[illegible]	[illegible]
[illegible]	
[illegible]	[illegible]

رواية

خطف الا[illegible]

فصل اول

زيارة ليلية

على ساحل البحر المتوسط جنوبي فرنسا مدينة «كان» المشهورة بجودة هوائها واعتدال حرّها وطيب مائها يؤمها فريق الامراء والاغنياء من اكثر البلاد الشمالية في ايام الشتاء إما فرارًا من البرد القارس واما انتجاعًا للعافية وترويحًا للنفس في جناتها الغناء

وممن يرغب في سكن تلك المدينة الزاهرة جماعة الشبان الذين ابطرهم المال فانقطعوا عن مزاولة الاشغال ومالوا الى البطالة سائرين في سبل الملاهي والسرور يقتنصون ظبية القصور بظبي الاعين الحور ويستنزلون ربات الخدور الى ميدان الخناء والفجور

ومن الناس من يقصد تلك الرياض النضرة لقتل الزمان باللعب والمقامرة في قصر جبل كرلو القريب محطر كاب الالوف من اغرار المتمولين الطامعين في زيادة الثروة بلا عناء

فمن هاته الفئة كان الشاب جمس باركلاي ابن رجل من مشاهير الاغنياء الاميركان الذي خلف له والده المتوفى ثروة كبيرة كان يحتار كيف يصرفها في اميركا فقصد باريس ام مدن العالم في الملاهي وكانت له اخت غضة الشباب بارعة الجمال اسمها ليونيدة مخطوبة لرجل عريق في الشرف اسمه مونترڤيو كان متوغلًا في التجارة

فاقام الثلثة في باريس حينًا من الدهر حتى سئم جمس البطالة وتاقت نفسهُ الى اللعب اقتداء بكثير من عشراء صبوته فانطلق مع شقيقته الى (كانّ) واستأجر فيها قصرًا عظيمًا قائمًا في قلب جنة تجري من تحتها المياه انهارًا

فما لبث الاخوان ان استأنسا بسكان المدينة الغرباء على وفق المثل السائر «كل

غريب للغريب نسيب » وقد سرّت الفتاة بغشيان بيت ارملة من الاميرات كان قصرها مجتمعاً لبعض الرجال وربات الحجال يقضون الساعات الطوال مجتنين ثمرات الانس والانبساط بين قيل وقال

فكانت ليونيدة تتردد الى بيت الاميرة زامركو غالباً واخوها يغتنم الفرصة للانهماك اناء الليل واطراف النهار في اللهو واللعب في قصر جبل كرلو لا يلوي على شيء . واللاعبون يبتزون منه المال ابتزاز الرعاة للبن صباح مساء

فاتفق يوماً ان ليونيدة عادت من بيت الاميرة بعد الغروب سكرى من نشوة المعاشرة والمزاح لكن صدرها كان منقبضاً من استسلام اخيها لملكة اللعب واللهو التي تمكنت منه حتى صار لا يفكر الا بها ولا يكترث الى فقد ثروته وتوعك صحته وخسارة حسن سمعته

ولما صعدت الى غرفتها رأت على منضدتها كتاباً مختوماً لم تدرِ اي يدٍ وضعته ففضت غلافهُ مرتجفةً وقرأت فيهِ ما يلي :

« ليونيدة شقيقة الروح

« انعمي عليَّ ان اراك في خلوة واحدثك لحظة في مكان لا تنفذه عين رقيب ولا حسود لاكشف لك ما يخالج صدري من الانشغاف بك واستميح منك جاثياً ان تحبيني قدر ذرة . . . ولا خوف علينا في هاته الليلة حيث اخوك يطيل السهر في قصر جبل كرلو وحسبك ان تدعي نافذة غرفتك مفتوحة فاطير اليك على جناح البرق » « المفتون بك»

« سنترمون»

فما اتمت ليونيدة قراءة الكتاب الا توردت وجنتاها وتولاها الغضب والاضطراب من فرط القحة البادية من هذا الشاب لانها كانت عفيفة النفس طاهرة القلب سليمة النية وقالت لاول وهلة : اف لهذا الوغد الجسور انهُ والله في غرور فلا تؤكل لحوم كل الطيور فها ءنذا آمر الخدام ان يوصدوا الابواب فيعود بالخيبة على الاعقاب ليعلم ان مثلي لا يخاطب بمثل هذا الخطاب

لكن ما لبث جأشها ان عاد الى السكون وارتخت عزيمتها كأن فؤادها أصيب بسهم مسنون وقد تنازع لبها من خفي العوامل ما يدفعها على عدم صد الزائر الجاهل وكان قد عرفها في بيت الاميرة زامركو فافتتن بجمالها الرائع وآنس منها الدماثة والرقة وقد جاملته بحديثها العذب فلم تأنف من معاشرته اللطيفة وزعمت ان من باب الغلظة والجفاء صد زيارته ولم يداخل نفسها الساذجة ادنى ريب في طهارة

وكان سنترمون من اكيس الشباب لا يلبس الا افخر الثياب ولا يخرج الا مدهناً معطرًا نظيفاً وهو ربعة القامة اسمر الوجه اسود العينين نحيف الجسم اهيف القوام بشوش المحيا لا يتكلم الا باسماً متبخترًا يفتن الاوانس بملاحته ويغوي العوانس بدهاء لسانه ولطافته وهذا كان منتهى الغاية من تجمله وسياسته وكان يتردد الى دار الاميرة زامركو ليلقي شباك هواه فيقتنص كل يوم غادة تغترّ بحبه ورضاه

وقد حام في تلك الدار حول ليونيدة حومة الصقر حول العصفور فكانت مع مؤانستها له تجفل من فخه جفول اظبي النفور وكلما نفرت ازداد بها هياماً فاخذها من غير باب وجعل يتصبب بجمالها ويتغزّل بغنجها ودلالها فيتمدح من كل حركة تأتيها ويستعظم كل اشارة تبديها فكانت منبسطة الى التملق طبعاً انبساط سائر الفتيات وصار ثناؤه عليها يقع في نفسها وقوع الندى الرطب فيستميلها اليه بزمام

وكان كلما جاءت ليونيدة الى بيت الاميرة في تلك الايام ايام المرافع يحتفل بها احتفالاً ويقوم بخدمتها تكرمة واجلالاً وفي الليالي الراقصة يسبق سائر اترابه الى مخاصرتها واطراء براعتها حتى ايقن ان حبه تملك فؤادها فتجرأ على مطارحتها حديث الهوى بالكتاب المعهود

وكانت ليونيدة تتوهم ان ذاك الاحتفاء انما هو نتيجة اخلاص وصفاء نية كتوهم سائر الفتيات بشبان هذا العصر المتخذين تلك الاعمال صناعة وبئست الصناعة فهانت لديها زيارته الليلية وحدثتها نفسها ان تقابله كعادتها عازمة على التحوّز مدعية انها اجلّ من ان تميل مع الهوى واقوى من ان تستغوى

فلما مضى الهزيع الاول من الليل ولم يأت احد ظنت انه عدل عن عزمه

لاستهجانه تلك الجسارة فحمدت الله لعدم دخولهـا في التجربة وعوّلت على اغلاق النافذة فاطلت منها وكان ضوء القمر في ليلة البدر ضاربًا اطنـابه في تلك الحديقة الفسيحة وسبحت الخالق العظيم واذا بصوت وقع اقدام بين الاشجار فاصغت وقالت : سنتره‌ون وما لفظت هذا الاسم الا صار الرجل في غرفتها وسلم عليها يلثم يدها وجعل يطارحها حديث الغرام ويبدي لها عما طي فؤاده من شدة الشوق والهيام ويخاب لبها باساليب الكلام حتى اعتقدت انهُ اخلص لها حبًا من كل الانام

وكان خطيبها منترفيو قد سافر من بضعة اشهر لقضاء بعض المهـام في اميركا فسلت حبه لان البعد جفاء وودّت لو يحل محلهُ الكونت سنتره‌ون المتظـاهر لها بتعشق جمالها الباذل نفسه في سبيل خدمتها الباسط لها ابهج المواعيد التي تتوق اليها نفوس الفتيات فكانت هذه الزيارة الليلية واسطة لتمكين هذا الفكر منها فوعدها الكنت بتزوجها قريبًا وكان هذا الوعد اقرب وسيلة ليدرك منها الوطر

فقضى الشاب والفتاة ساعتين يرشفان كؤوس الهنـاء حتى الثالثة آمنين عيون الرقباء الى ان انتصف الليل فانتبهت ليويدة الى ان ساعة رجوع اخيهـا قد دنت فاشارت على حبيبها بالانصراف فتردد ثم اذعن لها فودعها وقد اغلظ لها الايمان بحفظ وعوده وعهوده وانطلق من حيث اتى وهو يتمايل كالنشوان معجبًا بفوزه غانمًا

ولما خرج من الحديقة صادف على بعد تسعين ذراعًا رجلًا فتفرّس فيه فاذا هو جمس باركلاي الذي عاد من اللعب خاسرًا فتوارى بالاشجار الحاذية للطريق لكن لم يجرِ جمس بعض خطى حتى مر بخطيب اخته منترفيو قابضًا على بندقية موجهة الى الغابة كانهُ يراقب عدوًّا فاستوقفهُ جمس واستفهم عن قصده فقال لهُ دعني اطلق الرصاص على الوغد اللئيم عاشق خطيبتي اختك

فارتجف جمس وادرك للفور عاقبة اطلاق النار في نصف الليل واقلها الفضيحة والعار لان قتل الرجل يقتضي مطـالبة الحكومة بثأره واستكناهها الاسباب السابقة واثارة الشكوك في كل المدينة فنزع البنـدقية من يده وقال لهُ : دع عنك هذا الغرور افتظن انك بعد في اميركا

فرأر منترفيو وزمجر وقال لجمس او أنت يا ابن العم متفق معهما ايضاً

— الملك مجنون حتى تصدق ما تخيل لك الظنون فان ليونيدة باقية على عهد حبك حتى انها ذكرتك بالخير امس داعية لك بالعود من اميركا سالماً غانماً

— ولكن هوذا رجل كان عندها في هاته الساعة وانا مراقب رجوعه لاشفي منهُ غليلي

— انك في غرور ومن المستحيل ان تقبل الان رجلاً غريباً

— ما كنت لاصدق ذلك لو لم ابصره بعيني خارجاً من نافذة غرفتها ومع ذلك هلمَّ نسألها فنعرف صدق الخبر

وصل ثان

﴿ خطيب ليونيدة ﴾

بعد ذهاب سنترمون جلست ليونيدة تردد في ذهنها ذكر ما دخل على قلبها من البهجة والحبور في تلك الليلة الراضية فجفاها الكرى وجعلت ترقب النجوم الزواهر مستبطئة طلوع الصبح لتطير الى بيت الاميرة زامركو حسب الميعاد واذا بحركة على السلم فقالت هو جمس لا محالة وفكرت في اطفاء المصباح لكنها دفعاً لكل شك ابت اطفاءه وقامت الى الباب ففتحت قفله وجلست على كرسيها تقرأ في كتاب صلاتها

فلما صار القادمان على مقربة من باب غرفتها قالت اخي جمس اهلاً وسهلاً فوافاها من خارج صوت غضوب يقول : ليس اخوكِ بل انا انا

فارتاعت من صوت خطيبها وقالت لهُ مرتجفة : أنت أنت

فدخل منترفيو اولاً وقال لها لماذا ترتجفين أما كنتِ منتظرة قدومي في هاته الساعة هوذا اخوك ايضاً . والتفت الى جمس يقول اما هذا الارتجاف اكبر دليل

فاجتهدت ليونيدة في تسكين اضطرابها وقالت لهُ مبتسمة : لا تعجب في اندهالي فما كنت لانتظر رجوعك من السفر بغتة في نصف الليل فاهلاً وسهلاً ومرحباً

فتضاحك منترفيو وجلس على المقعد واخذ بيد ليونيدة وقال : عفواً يا عزيزتي فما كنت

ارجو ان اشاهدك في هاته الساعة لكن شوقي اليك في مدة سفري الطويل قد حملني في هذا الليل ان اطوف حول القصر لاستنشق ولو عن بعد ريا خزامك وانا واقف بازاء نافذة غرفتك فصادفت صديقي جمس راجعاً فراقته

فارتعبت من كلامه وقالت بصوت خنقه الاضطراب : انت انت نفسك كنت واقفاً بازاء نوافذ غرفتي . . . — نعم قضيت نحو الساعتين متجولاً في جوار القصر في ضوء القمر وقد عجبت كيف تنامين ونافذة حجرتك مفتوحة وجسمك هدف للرطوبة — ما كنت نائمة بل اقرأ هذا الكتاب الذي تخشعت فيه لذكر الله واتأمل العواقب الاخيرة فنسيت النوم من شدة الخوف والتأثر

— بالحق نطقت فان شدة الخوف والتأثر أطارت من جفنك الكرى وذكرى عواقب طياشتك اضاعت رشدك وهوذا وجنتاك تشهدان . . . ثم قام اليها وقبض على ذراعيها وشدهما شداً اليماً كأنه يطلب منها انتقاماً الا ان اخاها جذبه اليه ليسكن روعه فافلتت من يده وانزوت في اقصى الحجرة وسترت وجهها بيديها كالولد المضروب العارف بذنبه الخائف من معلمه

فنظر منترفيو الى جمس شزراً وقال له منتهراً ان لي وحدي الحق بكشف هاته الخيانة أفلست اكبر منك سناً واعد نظيراب لهاته الاسرة أولست انا الذي عني بامرك بعد وفاة والديك ودافع عن حقوقك وانقذ ثروتك من مخالب المعتدين وانا سافرت الى اميركا اخيراً لنفع لك اعظم من نفعي الخصوصي وقد تمكنت من ان اربح لك مليوناً لم يكن في حسبانك

فتهلل قلب جمس عند استماع المليون وكف عن معارضته فاستأنف منترفيو مخاطبته كمن ملك زمامه قال : افهكذا تعاملاني كلاكما عوض جميلي فقد وعدتني انت باطراح اللعب والعناية بشقيقتك وعدم تركها ليل نهار فلماذا اخلفت الميعاد . . . وأنت ياليونيدة اين محبتك لي وتعهدك بالا تميلي الى احد سواي وقد عهدت الى بعض الجواسيس ان يراقبوك فبئس ما انبؤوني

— لقد احببتك دائماً ولا ازال حتى الساعة احبك فاي ذنب تعرفني به ياترى؟

— ألم نقضي الايام الطوال في بت الاميرة زامركو محط ركاب الشباب الاغرار ممن ابطرهم الترف واليسار اولئك الساعين وراء الآنسات الهائمين على وجوههم في سبيل الشهوات فالويل للفتاة المصدقة لاقوالهم المغترة بتزيين لسانهم

فارتعشت ليونيدة كأن حجاباً انشق امام بصرها فرأت من ورائه مشهداً مريعاً وصرخت صرخة هائلة ثم حجبت وجهها بكفيها وقد تولاها حزن شديد فاستأنف منترفيو تقريعه لها قال: ولقد نمي اليَّ ان في تلك المعاشرات الخطيرة رجلاً علق بهواك فتزلف يبغي رضاك وما زال يراودك حتى استغواكِ واغراك اوَ تنكرين ان حبه استرقك واعماكِ

فنشطت ليونيدة من خمولها وقد داخلها بعض الجرأة والتفتت وهي شامخة الانف وقالت أجل انا احبهُ وهو يحبني ولاشيء يفصل بيننا وما انت ولا انا بمذنبين ان كانت خطبتنا قد جرت اولاً بدون تروٍ ولا مشاورة لاني كنت احبك محبة اخ ولم كن اعرف الحب لما خطبتني فما احسن ما جرى فالان مالك ولي فلعلي لا اصلح لك عروساً والاوانس كثيرات فاختر انفسك منهن من تحلو

فسكن جأشه وقال لها: اذن ماذا تحبين ان تصنعي

— على ما تحب يا عزيزي فاني اراك راغباً ان تتركني لاني لا اصلح لك زوجاً افعل ما بدا لك .. والحق اقول لك اني ان تزوجت بغير الكنت سنترمون اكون د خالفت ميل قلبي وضميري وشرفي — وهل وعدكِ هو ...

نعم قال لي ... هو يحبني ... ارجوك يا عزيزي ان لا تشك في محبته واخلاصه

— كيف لا اشك به وهو متزوج وله ابنتان

فسقطت على الارض كأن جبلاً انقض عليها فحطمها فولولت وأعولت ولم د ان تصدق فقالت: هذا محال فلم يقل لي احد انهُ متأهل كلا هو اعزب

— اقسم لك بشرفي

— لم يشاهد احد امرأته ولو وجدت لكانت الاميرة زامركو تعرفها لا محالة

— ان امرأتهُ من النساء الفاضلات اللاتي لا يحببنَ معاشرة العالم فضلاً عن

انها في اكثر الايام مريضة وهي مقيمة في قصر عظيم في قرية سيميز قرب نيس وان كنت على ذلك من ريب فهوذا عنوان بيتها

فجاش الغضب في احشائها وارتمت على المقعد وهي تشتم وتستغيث وطفقت تبكي بكاء مرًّا وقد تفطرت مرارتها من اليأس ورغبة الانتقام

فشفق عليها منترفيو وجعل يبكي لبكائها ثم امسك بيدها واخذ يسليها ويلاطفها ملاطفته لها لما كانت فتية مناديًا اياها بالتصغير « ليونيدتًا » ثم قال لها افرخي روعكِ فاني لآخذ بثأركِ ولا شيء يفصلكِ عني واوشكت الان ان اقتله لو لم يصدني اخوكِ فأنسيه ايضًا واضربي له ميعادًا يوافيك فيه فانتقم لكِ منهُ واصفح عنكِ ياحبيبتي — حاشى لا انتقم منهُ فقط لانهُ خدعني بمكره فاريد ان اكوي قلبه باعز شيء لديه انتقم منهُ بامرأته

— لا حاجة الى الاشتغال بها فهي مريضة مدنفة يكفيها المُ كدر حتى يميتها

— اذن يجب الانتقام من ابنتيه ليتعلم كيف يخادع الناس

— اجل ننتقم منهُ بهما ولكن تعدينى انك تسامينه ليدي لاكرع في دمه واتقع مني الغليل

نعم نعم هذا عليَّ وسيرى مني العذاب الاليم جزاء شره الاليم

﴿ فصل ثالث ﴾

في امرأة سنترمون

كانت هنريت امرأة الكنت سنترمون من اجمل واعقل نساء عصرها طلقة المحيا طاهرة القلب محبة لزوجها حافظة لعهده الا انها كانت سقيمة والحمى ملازمة لها لا تفارقها الا نادرًا وكانت مع ذلك لا تهمل ترتيب منزلها والعناية براحة بعلها واولادها وكان لها ابنتان جرمين وعمرها خمس سنوات واملين وعمرها ثلاث وكانتا محط آمالها ومناط تعزيتها

وكان الكنت سنترمون يقضي معظم النهار وسحابة الليل في نيس متقلبًا على

مهـاد الملاذ والملاهي واللعب في جبل كرلو وكانت امرأتهُ تعذره وتغض عنـه الطرف بالتغلر الى توعك صحتهـا وعدم اقتدارها على مرافقته في متسلياته ولم تكن لسلامة نيتهـا لتسيء الظن في اماذنه بل كانت تصدقه عند ما يؤكد لها انه يترفع عن الدنايا ويجـل عن المنكرات ولا يهوى من العادات سواها

وكان سنترمون بعد خروجه من قصر ليونيدة قد قضى سائر الليل في نزل قريب من المدينة ولم يرجع الى بيته الا ضحى اليوم التالي ولكن قبل رجوعه بنصف ساعة اقبل على هنريت شقيقها البارون لوران ديمارت وكان من الاغنياء وكبار الصيارف معتدلاً في المعيشة ناقماً على سنترمون لانفاقه الدراهم جزافاً في سبيل الملاهي والمعاصي حتى اتلف ثروته وثروة امرأته البـالغة مليوني فرنك واخذ يسعى في الاستيلاء على ثلاثة ملايين فرنك كانت عمتها قد حبستهـا وقفاً على ابنتيها الى حين بلوغهما اشدهما

فرحبت هنريت بشقيقها ترحيباً واخذا يتجاذبان اطراف الحديث حتى ادى بهما الى زوجها فجعـل يندد به مستقبحاً سوء سلوكه فامتعضت من هذا الكـلام لان حبهـا لهُ كان قد اعمى بصرها عن عيوبه وابت ان تصدق ان زوجهـا يحب سواها وانهُ يتردد على كثير من الاوانس في كانّ ونيس وغيرهما وظنت ان شقيقها انما يرمي زوجها بالسوء لأربٍ في النفس فطلبت اليه ان يطوي هذا الحديث

فلم يرق في عين لوران تطوح اختهِ في حبّ بعلها بل اعان لها صريحاً انه رائح الى هاوية الاملاق لا محالة فقد اضاع جميع مالها ولم يبق الا ربع الثلاثة الملايين وهذا يكاد لا يقوم باودهما طوال السنـة فان تراخت معهُ كعادتها تلقف هذا الربع صبرة ولعب به ولعلهُ يفقده بالقمار في ليـلة واحدة فانى ننفق في سائر ايام السنة

فانتبهت هنريت الى هذا الانذار وادركت ان اخاها انما هو مخلص لها النصح فسألتهُ عن الطريقـة المؤدية الى اصلاح الحال فاجابها لابد لذلك من احد امرين إما الانفصال عنه واما حرمانه بواسـطة الحكومة عن التصرف بمالها

وفيما لوران يقول لها هذا واذا بسنترمون قد اقبل وقد سمع العبارة الاخيرة فقاطعهُ بلهجة الهزء قائلاً : « ما شـاء الله ما شاء الله يا ابن العم العزيز ما اجمل النصيحة التي

تقدمها لامرأتي » ثم دخل واخذ يد امرأته فلثمها وقدم لها طاقة بنفسج واعتذر لها عن عدم رجوعه الليلة البارحة بانهُ اطال السهر مع اصحابه الى نصف الليل فشق عليه الرجوع الى منزله واوعز اليها ان تلبس ابنتيها الثياب ليذهب بهما معهما الى التنزه في ارباض القرية

فلما انطلقت قال سنترمون لابن حميه ماجاء بك اليوم هل لتلقي الفتنة بيني وبين اهلي حسب عادتك — لقد اعياني سوء تصرفك فضاق صدري وعيل صبري وما دأبك الا ان تخدع شقيقتي بحلاوة اللسان وانا ادري ان جل غايتك وضع يدك على ثروة ابنتيك لتلتهمها كما التهمت ثروة حليلتك فبئس العمل انه غير حر برجل شريف فتميز سنترمون من الغيظ وقفز من مكانه رافعاً يده كانه يريد ان يضرب بها لوران اما هذا فتكتف غير متأثر وقال لهُ متبارداً هلمَّ اضربني ولكن تأكد اني لا اكف البتة مدافعاً عن مال اختي وابنتيها ما دمت حيًّا

فتضاحك سنترمون وقال : اوشكت يا صاح ان تغضبني لكن فطنت الى ان المال عندك هو الجوهر وما سواه الاعرض فعذرتك فاولى لك ان تعود الى مصرفك وتفكر في حشد الثروة ولا تبذر الزوان في بيتي فلا اريد ان انغص عيش اهلي وولدي لاجل المال — لا تظن اني انخدع لبهرجة كلامك فقد تحققت انهُ لم يبقَ لك من مال امرأتك ولا درهم واحد وان كان في يدك شيء فهو مما تستدينهُ بالفوائض الفاحشة من الصيارفة الاغرار الذين تطمعهم بالثلثة الملايين المحبوسة وقفاً على ابنتيك مع ان ليس لك منها الا ربعها لا غير — أفلاجل هذا السبب كنت تحرض امرأتي على الانفصال او فصل المال فاين دعواك بالشرف والشهامة وانت تفعل هذا خوف ان اطالبك بمال ابنتي الذي تنتفع به الان افتظن اني لم ادرِ انك تضايقت لما اخذت من صندوق مصرفك المليونين اللذين لنا . والان لا تدافع عن الباقي حباً باختك او بابنتيها كما تزعم بل حباً بنفع نفسك الخاص لانك على جرف ازمة مالية قد تؤدي بك الى الافلاس

فاشمأز لوران واستكت اذنه فخرج غيره ودع وهو يقول بالحقيقة انه مجنون يا تعس ختي ...

فصل رابع

ليلة المساخر

خرج سنترمون مع اهله وابنتيه يستنشقان النسيم اللطيف صب الرياض النضرة وكان يداعبهن ويمازحهن منشرحاً صدراً حتى ان هنريت به تعلقاً وكذبت ما كان اخوها يتهمه به من حبه لغيرها

على انهُ انما تظاهر بهذا التجمل والتلطف لتنطلي عليها الحيلة فلا ترميه بسوء الظن فلما عاد الى البيت افطر وما لبث ان شرب القهوة حتى انطلق الى بيت الاميرة زامركو للاجتماع بليونيدة فوجدها اخلفت الميعاد لان الاميرة اخبرته انها لا تأتي الا في المساء لتلبس ثياب المساخر عندها وتذهب معهُ لحضور موكبها الحافل تلك الليلة

فامتعض سنترمون الا انهُ علل الامل بملتقى المساء فانطلق الى جبل كرلو لقتل ساعات النهار بين اللاعبين فوجد هناك جمس باركلاي الذي قطب في وجهه الا انهُ ما عتم ان بش وسلم عليه متبسماً واخبره انهُ يذهب مع شقيقته مساء الى نيس للاشتراك بمشهد المساخر فانتعشت نفسهُ وقبل الغروب بساعة ركب الى بيته في سيميز حيث كانت تنتظره امرأته مشتاقة الى ان ترافقهُ لمشهد المساخر في نيس

فرحبت به وتدللت واعربت لهُ عن رغبتها فعبس ولم يجبها فالحت عليه فنهاها بحجة ان صحتها لا تمكنها ان تخرج من البيت لئلا تنتكس انتكاساً فتوسلت اليه لان الجو صاف والهواء لطيف فلم يجب ان يكدرها بل قال لها بصوت شفوق حنون مليها : لا تلحي عليَّ فاني انا المسؤول بصحتك ومع ذلك هل يطاوعكِ قلبك ان تفارقي ابنتيك مهجة فؤادكِ — اذن تبقى عندنا هاته الليلة فنسهر ونطرب

— ياما احلى هذا الاجتماع لكن ليتني استطيع اليه سبيلًا فاني وعدت بعض رفقائي ان اصادفهم في موكب هاته الليلة فلكي لا اخاف الوعد اواجههم قليلًا ثم اعود اليكِ

سريعاً ثم اخذ يدها فقبلهــا مودعاً وسارمسرعاًوقد دهمهُ الوقت فلما وصل الى بيس اشترى لهُ بعض ثياب المساخر من الديباج القرمزي وهرول الى بيت الامــيرة فوجده فارغاً لان اللابسين قد تقدموه الى الموكب فلعن امرأتهُ التي اعاقتهُ عن ذلك الاجتماع المأنوس وهرع الى المشهد موقناً انهُ يشاهدفيه خالبة لبه ومحط ركاب حبه

ففي هذه الاثنــاء وفد على بيت سنترمون رجل غريب الزي وكانت هنريت قد خرجت من غرفة ابنتيها اللتين نامتا بعدان استعصتا على النوم قليلاً وفي قلبها حسرة وبلبال فسمعت قرع الباب فاندهلت ولم يكن عندها في البيت الا خادمة واحدة اما سائر الخدم فكانوا قد انطلقوا تلك الليلة مستــأذنين حسب عادة المرافع فتقدمت بنفسها الى الباب فدفع اليها الســاعي كتاباً مختوماً وقال لها : « سلمتني احدى النساء هذا الكتاب لاوصلهُ اليكِ » ثم توارى عن بصرها حتى ظنت انهُ عاد الى حيث اتى فرجعت مرتعبة ممــا عسى ان تكون فحوى هذا الكتاب الذي فضت غلافه فاذا فيه :

« سيدتي . ان زوجك هو الان في حفلة المســاخر مع معشوقته الجديدة »

« احدى التعيسات اللائي اغتررنَ به »

فتنهدت الصعــداء وصرخت بقلب قريح : لقــد صدق اخي . . . هوذا بعلي يخونني . . . تبــاً له من نذل لئيم ولكن سألحق به في الساعة وافضحهُ في بهرة المشهد

ثم استدعت الخادمة يوستين فالبستها ثيابها وبينما كانت تربط الى وسطها المشد تناولت خنجراً رشكتهُ فيه ابتغاء ان تطعن به صدر العــاشقين وهرولت نحو الطريق وذهبت ماشية حتى صادفت عجلة فركبتها ولم تصل الى المشهد الا بعد ساعة فوجدت خلقاً كثيراً في هرج ومرج يطوفون بملابس غريبة الازياء لا يستطيع بهــا ان يميز الاخ اخاه ولا الولد اباه فيئست من النجــاح ووجدت ان معاينة زوجها ضرب من المحال فجلست على مقعد هناك مكتئبة واذا بصوت متألم طارق اذنها فعرفت منهُ صوت زوجها فقامت لترى واذا بشــاب لابس طيلساناً قرمزياً وقع على مقربة منها يعج عجيج الثور من وجعه وقد سكنت الجلبة وتحولت اليه الابصار فدنت منهُ وكشفت قبعة المساخر عن وجهه فاذا هو بعلها سنترمون وقد جُرح جرحاً ثخيناً فامتقع وجههُ وعلاه اصفرار الموت

﴿ فصل خامس ﴾

« أخذ بثارها »

كانت ليويدة راكبة في عجلة الاميرةزامركو تطوف في موكب المساخر واخوها الى جانبها في عجلة اخرى فسألتهُ عن سنترمون فاجابها انهُ لم يصادفه في الحفلة ولعله لم يعرفهُ لسبب تنكره فسألتهُ عن ابنتيه فاخبرها انهما خُطفتا ولم يدر بالخاطف احد ومن المستحيل ان يكشف موضعهما فتهللت حينئذٍ وقالت الان انشرح صدري وبلغت متمناي حبذا الانتقام

وفيما كانا يتكلمان همساً اذ سكنت جلبة الاصوات واجتمع الخلق قرب مقعد قريب فاسرعا الى المكان فوجدا شاباً جريحاً مغمىً عليه مطروحاً في حضن امرأة تبكي وتكلمهُ منادية اياه ياعزيزي سنترمون شلت يمين طاعنك ردّ عليَّ ياحبيبي . فلما سمعا اسم سنترمون بُهتا فقالت ليونيدة متأسفة ومن الذي جرحه ياترى فاجابها اخوها « لعله احد اقرباء ابنة اذلها بعد ان وعدها بالزواج كما صنع معنا فانتقم منهُ فالحمد لله الذي اخذ بثارنا بغير يدنا »

— ومن هذه المرأة المضطجع في حضنها — لعلها احدى معشوقاته

فتفطر قلبها عليه غماً كأنها نسيت كل ما عزمت عليه قبلاً وقالت ليت جرحهُ غير خطير شفاه الله

— صه فتباً لهُ من اثيم ذهب بجريرته آه لو كان منترفيو يسمعكِ الان

— هيهات ان يكون هنا فهو يشتغل في تغييب الابنتين

وفي تلك الغضون جاء رئيس الشرطة واخذ يستقصي في البحث عن الواقعة والناس حول الجريح متألبون وبينهم ابن حميه لوران يسلي هنريت ويسألها ان تعود الى البيت وهو يعني بامر زوجها فأبت وقالت لهُ : كلالن افارقه فما كنت انت تحبهُ من قبل حتى اثق فيك

فالتفت رئيس الشرطة الى لوران وسألهُ عن نسب الجريح فاجاب « هو زوج شقيقتي الكنت سنترمون تريل سميز»

فشزره الشرطي وقال لهُ : انت كنت معهُ لما جرح

فارتبب لوران لهـذا السؤال لانهُ كان جبانًا وتلعثم لسانه وقال لهُ لا لا وانما وجدتهُ هنا بطريق الاتفاق

— ومن كان بصحبته ياترى — اظن ان شقيقتي كانت معهُ

فقالت هنريت : لم اكن معـهُ لانهُ جاء وحده وقد لحقت به لافتش عنـهُ واذا به قد سقط بجانبي جريحًا

فداخل الرئيس الريب في المرأة واخيها واخذ يقلب فيها النظر ويتمتم ويقول « عجبًا كيف اتفق اجتماع الاخ وشقيقته صدفة في الدقيقة التي جرح فيها » ثم قال لهما بلهجة فلا شك اذًا انكما شاهدتما القـاتل ولا نظنهُ بعيدًا فيجب ان تساعداني على كشفه

فلم تكترث هنريت الى كلامه لانها كانت ملتهية بجريحها وهي تتنهد الصعداء وقد جيء حينئذٍ بعجلة فنقل سنترمون اليها فتبعتهُ اما لوران فارتبك ايضًا في الجواب وقال « كيف اقدر ان اساعدك فلا اعرف شيئًا ولم ارَ الا خاقًا كثيرًا محتشدًا حول الجريح » لكن لاحت منهُ التفاتة الى مكان الجريح فنظر خنجرًا ملطخًا بدمه فتنـاولهُ ودفعهُ للرئيس دون ان يحقق النظر فيه وقال هوذا شيء تستطيع ان تتخذ منهُ دليلًا ما

فاخذه الرئيس وجعـل يقلبهُ على نور المصباح فارتعش لوران وامرأتهُ ارتعـاشًا فقال لهما يظهر انكما عرفتما هذه الجـارحة فلمن هي

فاخذ منهـما القلق والاضطراب لانهما عرفا ان الخنجر انما هو لهنريت فقال لهُ لوران هذا السلاح ليس لنا فقال الشرطي « اذن هو لامرأة سنترمون لا محالة » وهب ليلحقهـا لانها كانت تابعة لعجلة زوجها

فاستوقفهُ لوران وقال لهُ : ان شقيقتي مصدورة مدنفـة فارجوك ان شئت ان تستقصي منها شيئًا ان تصنع ذلك بغـاية التلطف والرعاية —

— رافقها مع امرأتك الى بيتهـا في سيزورها انا ذاهب في اثركم

فلما ذهب لوران قال رئيس الشرطة لاعوانه ان في المسألة لسرًا خفيًا لا بد من كشفه في هاته الليلة اما انتم فبثوا العيون في كل جانب وراقبوا كل حركة في المشهد وانا اسبقكم الان الى سيز

اما موكب المساخر فكان قد توقف بسبب الفاجعة نحو نصف ساعة الا ان الناس عادوا بعد اخذ الجريح الى الهرج والمرج واللعب والمزاح كأن القدر ما جرى

وكان سنترمون في العجلة مغمى عليه والى جانبه الطبيب وكانت هنريت تماشي العجلة ويدها في يد زوجها المتجلدة واخوها وامرأته يسيران وراء العجلة متحيرين من الحادثة الغريبة ولاسيما من وجود خنجر هنريت ماطخاً بالدم

على ان الطبيب اوعز الى هنريث بان تسبق العجلة الى القصر لتنبه الخدم وترتب ما يلزم لراحة الجريح فاسرعت الى البيت فوجدته خالياً خاوياً فدخلت الى غرفة ابنتيها فلم تجدهما في سريريهما فنادتهما فلم يجبها احد فظنت انهما مختبئتان على سبيل اللعب حسب عادتهما فاخذت تفتش في الزوايا وتحت الاسرة وبين الخزائن فلم تجد احداً فاعولت وولولت ونادت يوستين فلم يكن لندائها مجيب

وبينا هي على هذه الحال ادخل الجريح الى غرفته فقال لها الطبيب هل كل شيء معد فاجابت اين ابنتاي هل شاهدتموهما فاندهش مع اخيها وامرأته وظنوا ان بها مساً من الجنون

فاستأنفت كلامها قالت : اواه اين الابنتان لقد وجدت سريريهما فارغين ارجوك يا اخي لوران ان تردهما لي سريعاً

فلم يشك لوران باختلالها فاوعز الى امرأته بتسكين اضطرابها ريثما يهتم بالجريح

وكان سنترمون قد امتقع حتى امسى كالاموات وفارقته قوته لوفرة الدم الذي جرى من جرحه فعالجه الطبيب بما تيسر تضميداً لجرحه وتقوية لجسمه اما لوران فدخل الى غرفة الابنتين وعاد بعد هنيهة مكمد الوجه فاخذ ينتش عنهما فوجد اخته وامرأته تخاصمان يوستين الخادمة وهي تذرف العبرات وتصعد الزفرات ولسانها معتقل لا يلفظ شيئاً فقال لهما ابلعاها ريقها ودعاها تكفكف عنها الدمع ثم سألها متلطفاً عما تعلم من امر الابنتين

فاخذت الخادمة تقص الخبر والدمع يتفجر من عينيها سيولاً قالت : بعد ان رافقت سيدتي بعض خطى في الطريق حتى ركبت العجلة رجعت على الفور فالتقيت

بعض الجيران فحدثتهم قليلاً ثم دخلت القصر وتفقدت الابنتين فلم اجدهما في سريرهما فقلقت وفتشت كل الغرف فلم اعثر عليهما ولا ازال حتى الساعة افتش باكية ناحبة . فصرخت هنريت : ويل لك يا لكاع ورفعت يدها لتنتهرها الا ان الحزن فتت قلبها فانطرحت على المتكإ تسعل سعالاً شديداً ثم تنهدت منادية ابنتيها وقالت ويلاه لقد خطفوا حشاشة قلبي يريدون موتي . ثم اغمي عليها

﴿ فصل سادس ﴾

في الخنجر الايطالي

نقلت هنريت الى غرفتها لا تعي شيئاً ولبثت نحو عشر دقائق لا تبدي حراكاً حتى خيل انها ماتت فاخذ الطبيب يعالجها واخوها وامرأته يفركان يديها ورجليها المتجلدتين

وفي هذه الغضون عاد الخدام سكارى مترنحي الاعطاف يغنون طرباً فلما بلغهم ما جرى انقلب فرحهم كرباً وانتشروا في ضواحي القرية يفتشون عن الابنتين ثم جاء رئيس الشرطة فسمع الجيران على الابواب يتداولون هذه القصة فاتخذ منها ما يؤيد ظنه بان المجرم ليس بعيداً لان بعضهم كان يقول « ان سنترمون الهائم في المعاصي الساعي وراء بنات الهوى كان دائماً مظنة هاته التهلكة جزاء فعله » وقالت احدى الجارات التي كلمتها يوستين « لا يبعد ان هنريت لما رأت بعلها مع احدى معشوقاته بادرته بضربة خنجر انتقاماً »

فتسلح رئيس الشرطة بمثل هذه الظنون القريبة للتصديق ودخل القصر وكانت هنريت قد افاقت من اغمائها وهي تصرخ « اين زوجي اين اولادي » فسلم عليها وقال : اطمئني بالاً ايتها السيدة فقد اتخذت جميع الوسائل المؤدية الى كشف المجرم

فقاطعته هنريت بصوت خنقه الاسى اه ياسيدي ما حاجتنا الان الى الرجل الذي طعن زوجي لان امساكه لا يخفف شيئاً من بلواي . فقد خطفوا ابنتيّ فارجوك ان تبث جميع رجالك في كل الانحاء لكشفهما والقبض على الخطفة الاشرار

فاندهش رئيس الشرطة من لتحتهاوظن بادىء بدء انها تخلط او تهذي عمداً لكن لما تحقق فقد الابنتين اخذته الحيرة وتاه في بيداء الظنون ثم امر معاونه ان يبعث بالشرطة الى المدن والقرى المجاورة فاستأنفت هنريت التوسل اليه ملتمسة ان يبادر في البحث والتنقيب لان الزمان ثمين ثم اخذت تبين لهُ وصف كل من ابنتيها جرمين واملين

فطيب الرئيس خاطرها ووعدها بقرب اكتشافهما ثم استنطق الخادمة يوستين فلم يستفد شيئاً جديداً فطلبت هنريت ان ترافق بنفسها رجال الدرك في التفتيش فمنعها بحجة ان بقاءها في البيت لا بد منهُ للعناية ببعلها ولاجراء بعض التحقيق والتحري فلما طرق اذنها اسم زوجها انتفضت وكانت قد سلت ذكره وقامت الى غرفته واخذت تندب باكية فاستنصتها الطبيب وانبأها ان الحمى قد فارقتهُ وانه نائم مستريح ويرجي ان شفاءه لا يكون بعيداً

فشكرت فضل الطبيب وطفقت تذرف العبرات فاشفق ان يقوم العليل فيراها تبكي فقال لها اننا مستفرغون قصارى الجهد فى معالجته لكن يجب ان يسود الهدوء في غرفته فاذهبي الآن ومتى افاق دعوتك

فلما خرجت دخل رئيس الشرطة الى غرفة العليل وسأل الطبيب فاجابه ان جرحه ثخين خطير فعاد وهو يضرب اخماساً لاسداس ويرى ان دون اجراء التحقيق مشقة كبيرة في حين انه لا يرى منها مناصاً لان الاستنطاق الاول اثر وقوع الجرم يكون فى الغالب انفع منهُ بعد وكان يظن ان لهنريت يداً في جرح زوجها انتقاماً منهُ لخيانته لكن أشكل عليه تفسير اختفاء الابنتين ما لم تكن ثمت جريمة جديدة مفترقة عن الاولى فعمد الى هنريت لاستنطاقها وقال لها هل يمكنك ان تجيبي عن بعض اسئلة لابدَّ لي من استجلائها فقالت تراني مستعدة لكل ما يؤول الى كشف الاشقياء سالبي ولديَّ

— ماحاجتنا ان نستقصي فقط عن خطفة الابنتين بل ايضاً عن ذلك الشقي طاعن زوجك وانتِ اقدر الجميع على معاونتنا لمعرفته لانه لابد ان يكون من ذويك او ممن هم حواليك واني معذور اذا بالغت في الاستقصاء اتماماً لواجبات مأموريتي لان الحكومة لايمكنها الاَّ ان تأخذ بثارك فهوذا الخنجر الذي ضرب به بعلك انظري اليه فهو على

ما اظن يخصك ولا ريب في ان احد المتقربين منك قد اختلسه فقولي لي من تتهمين

فاضطربت هنريت ومدّت يدها الى المشد ولما لم تجد فيه شيئاً صاحت : كلاّ من المستحيل ان يكون زوجي قد طعن بهذا الخنجر . هذا غير ممكن لان الخنجر نفسهُ كان معي — انت تقرين ان هذا الخنجر كان معك وبما ان اخاك قد رفعه من تحت الجريح ملطخاً بالدم فاذاً . . .

فصرخت صرخة هائلة كانت بهاجنة فاضطر رئيس الشرطة ان يؤجل الاستنطاق الى الغد واستأذنها بالانصراف فأبت ورجتهُ ان يتمّ البحث لان الوقت ثمين وبدون اتمامه يتعذر اقتفاء اثر المجرمين ثم قالت لهُ « لقد داخلك بعض الريب لما علمت ان الخنجر خنجري ولكن قل لي بحياتك من انبأك انهُ يخصني »

— هو اخوك فشزرت اخاها بعين ناقمة وقالت هذا الخنجر كان امس عندي ولما خرجت من منزلي اثر تلك التهمة كنت فاقدة الرشد فاخذته على غير هدى ولما كنت في المشهد ووقع بعلي امامي الخبيث فوقهُ فسقط الخنجر

— ارجوكِ ان تفيديني ما هذه التهمة التي اشرت اليها

فحزنت هنريت لانها امست مضطرة ان تقرّ امام اخيها بامرٍ كانت تريد ان تخفيه عنهُ بشأن خيانة زوجها لها لئلاّ يشمت بها وقالت متأوهة : لقد آذيتني يالوران لانك كنت سبب سوء ظني ببعلي ولولاك لما كنت اكترثت الى تلك التهمة بل كنت بقيت في قصري ولم يتجاسر احد على سلب ابنتي ولما كنت التزم الآن ان اشرح سبب حملي هذا الخنجر

فحزن عليها رئيس الشرطة وقام ينصرف واستحسن لوران عملهُ وقال لها حسبك الآن لان العياء قد اخذ منك كل مأخذ فانا افيده بسائر الاعلامات اللازمة

— كلاّ كلاّ فانت لاتعرف شيئاً بل ربما قلت لهُ اشياء خالية من الحقيقة فقد اتهمت زوجي عدة تهم وانت تبغضهُ اعتباطاً

فرفع لوران عينيه الى السماء صابراً ولم يحر جواباً خوف ان يزيد في طين حزنها بلةً اما هنريت فالتفتت الى رئيس الشرطة وقالت : « لقد كذب الذين اتهموا بعلي بانه عاشق

ولهان لانهُ كان يحبني ويحب اولادي لكنهُ كان يودُّ التسلي والمعاشرة والتردد على الاصحاب لاني لم اكن استطيع ان ارافقهُ دائمًا بسبب توعك صحتي » واندفقت كالسيل في مثل هذا الحديث فقاطعها رئيس الشرطة وقال لها ما لنا وهذا الكلام بما انك تريدين الجواب على اسئلتي فاخبريني عن التهمة التي اشرت اليها

ــ فقالت وصلني هذا المساء كتاب مختومها كهُ فقرأهُ علانيةً وما كاد ينهي قراءتهُ حتى استأنفت هنريت تدافع عن زوجها المتهم بالعشق ظلماً

فقال لها الرئيس: أما انتِ فصدقت هذه التهمة وتسلحت بهذا الخنجر قبل انطلاقك

ــ بلى لسوء الحظ ولكن لم اتسلح به لاضربهُ في حين كان يحبني ولم يكدرني بشيء

ثم القى عليها عدة اسئلة تبين لهُ منها انها بريئة من هاته الفعلة الشنعاء على انها في خلال اجوبتها كانت دون عمد توجه التهمة الى اخيها الذي لم تجد امامها غيرهُ حين سقط بعلها جريحًا .

ثم اشتد سعالها فاومأ لوران الى رئيس الشرطة ان يكف عن استنطاقها وقام مع امرأتهِ واخذا بيد هنريت الى غرفتها لتستريح وعاد لوران الى الرئيس الذي سكب عليه وابل الاسئلة بشأن اخته وبعلها وميراثها وميراث الابنتين وكان يستشفُّ من وراء هذا التدقيق ان الرئيس متهمٌ لهُ بان لهُ بهذه الحادثة يدًا فانتبه لوران وقد جاش في صدره الغضب وقال لهُ « العلك تتهمني بشيء . »

ــ حاشى ولكن واجباتي تقتضي مني مزيد الاستقصاء فاودعك الآن الى الغد . ثم انطلق وبقي لوران وحدهُ متأثرًا من هاتهِ النتيجة الوخيمة وقال في نفسهُ بالحقيقة ان هذا الشرطي مجنون لامحالة ولبث لوران هنيهة مضطرب البال حتى اقبلت امرأتهُ فتظاهر بالابتسام وسألها عن اخته فاخبرته بانها نامت وعن الجريح فانبأته بان الطبيب ملازم لهُ لا يفارقه ولم تكن تحب سنترمون لانه كثيرًا ما كان يسخر بزوجها لمخالفته لسيرته فكانت شامتة به فرحة بمصابه

وبعد ان تبادل الزوجان ارق عواطف الوداد افترقا للرقاد وساد السكون والغم في ذلك الدار بعد ان كان بلبل الهناء مغنياً فيها ليل نهار

﴿ فصل سابع ﴾
في وفاة هنريت

باتت ليونيدة تلك الليلة في بيت الاميرة زامركو التي استيقظت باكرًا على خلاف عادتها وطلبت الجرائد الصباحية لتطالع اخبار البارحة فوجدتها طافحة بالتفاصيل عن مقتل سنترمون ولكن شدَّ ما كان اندهاشها لما وجدتها متفقة كلها على ان للجريح امرأة واولادًا وهي كانت تظنه اعزب ولولا ذلك لما كانت تأذن لهُ بمعاشرة الفتيات زائراتها حتى انها لما سمعت البعض بالامس يتحدثون ان امرأتهُ هي التي طعنتهُ غيرة عليه كذبتهم تكذيبًا

وكانت الاميرة تظن ان سنترمون بناء على هيامه بليونيدة سيتزوجها وكثيرًا ما كانت تغتفر لهُ بعض هفوات اما بانفراده بها واما لتمكين صلات الحبّ معها فاستدعت ليونيدة لتعزيها بفقد مطمح آمالها وكانت تخالها حزينة كئيبة فلما اقبلت ورأتها تتبسم تعجبت من رصانتها وعدم اكتراثها الى ما ابدى من الغدر والخاتلة وطفقت تطلب لهُ عن ذلك عذرًا بسبب سقم امرأته التي لم تكن تستطيع ان ترضيه

اما ليونيدة فلبثت ازاء ذلك الكلام متحوزة متجاهلة كأن لم يكن شيء. ثم استأذنت ودخلت غرفتها وانطرحت على سريرها وقد فاض قلبها كآبة ندمت على ما فرط منها ولاسيما بخطف الابنتين وكادت تبوح بالسرّ لو لم تشاهد اخاها متمشيًا نحوها متبخترًا فحياها بالبشر والايناس فقابلتهُ بالتقطيب والتعبيس فشزرها شزرة تقبيح لانقلابها وقال لها انتِ كنتِ الآمرة بكل هذا واراكِ الان تنكصين متراجعة

فاشتد قلب الفتاة جفاء وعدلت عن شفقتها واقبلت على اخيها تلاطفهُ فسألتهُ عن منترفيو فاخبرها بانهُ بعد ان فعل ما فعل سافر آمنًا ولم يدرِ به احد فخانتها حينئذٍ احدى عواطف الحب الذي اضرمه سنترمون في فؤادها فقالت لاخيها دون تروٍّ هل تظن انهُ يموت بالضيعة شبابه فاستهجن منها جس هذا الكلام وردعها من مثلهِ بقوله « لو كان منترفيو يسمعكِ الان . . . »

وبينا هما بالحديث واذا بالاميرة زامركو فتقدم كلاهما لملتقاها فخاطبتهما بفاجعة البارحةالتي ملأت المدينة اخبارها وكانت موضوع تحدث العموم

وقد انطلق الى قصر سيز جمع غفير من الكبار والسوقة ليستطلعوا اخبار تلك الفاجعة النادرة فذهبت ليونيدة مع اخيهابين القومالذين احتشدوا حول القصر وعلى ابوابه مئات والوفا وكانت هنريت ترصدالنوافذ منتقلة منها الى الشرفات المطلة على الطرق والعبرات تترقرق في عينيها وهي تنتظر البشرى بملتقى الابنتين ولكن عبثاً ولم يجدها البكاء شيئــاً فكانت تردد هذهالعبــارة واحسرتاه لقد فقدتهما ولا رجاء بعودتهما ولا عيني تراهما

امــا الجريح فكان في بحران الحمىيهذي كالمجانين ولم يطرق مخيلته الا ذكر القمار فكان لسانهُ يردد الفــاظ اللعب كما لو كان مع رفقته في نادي جبل كرلو وكان رئيس الشرطة والمستنطق والمدعي العمومي قد حضروا لاستنطاقه منذ الصباح على انهم وجدوه فاقد الرشد ولم يجبهم بشيء عمــا يسألون ولكن حانت من العليل التفاتة الى ابن حميه لوران فقال لهُ غاضباً « الا تخجل ان تقف هنا بعــد ان فعلت ما فعلت » قال هــذا ومد يده ليطرده فالتفت جميع ارباب الحكومــة الى لوران فوجدوا الاضطراب قد اخذ منهُ كل مأخذ حتى لم يستطع ان ينطق بكلمة فخرج منحني الرأس مرتجفاً كاسف البال

فاستشف هؤلاء من اشارة العليــل مــا أيد بعض الظنون لكنهم لم يستطيعوا ان يستطلعوا منهُ شيئاً اخر لانهُ عاد الى الهذيان فتركوه وجاؤوا الى لوران ليستنطقوه فتميز من الغيظ وقال لهم ما عنــدي ولا كلمة واحدة اضيفها الى ما قلتــهُ رئيس الشرطة سابقــاً ثم تركهم ومضى يتفقداحوال اخته التي امست في حال يرثى لها من الهزال وقد تولاها البلبــال وكادت تموت من شدة الاكتئاب

واراد لوران مع قرينته ان يسلي شقيقتهُ المرزوءة لكنها ما كانت لتتعزى ولم تفتر عن الاستفهام عن ابنتيهــا واما زوجها فكان غارقاً في بحران الهذيان لا ينطق الا بالفاظ القمار وكانت عيناه المفتوحتان لا تبصران الا اللاعبين ولا تميزان احداً من اهله واصحابه

وفيما كانت هنريت تندب وتتأوه واذا بزوجها يناديهـا باسمها فقفزت من موضعها ولكن خانتهـا قواها فسقطت على الحضيض ثم ما لبثت ان نهضت ولما وقع بصره عليها سألها متلهفاً اين البنتان العزيزتان اين مهجة القلب جرمين واملين

فنزل على فؤادها هذا الكلام كالصاعقة وقالت تباً لي ما كان اجهلني بترك البيت مجالاً للصوص كيف اجاوبه عن تينك الوديعتين العزيزتين اواه ياربي ردهما لي وارث لبلواي قالت هذا وجثت على قدميه لتعـترف له بذنبها وتسأله العفو عن تهاونها الا ان اخاها انهضها ومنعها عن انبـائه بالقصة خوف اشتداد الداء عليه

فتنهدت الصعداء وقالت : هو يطلب ابنتيه فانى آتيه بهما وماذا اجاوبه آه الموت عندي احلى من بعاد الوردتين والقبر لديَّ ارحب من القصر بدون الزهرتين وامصيبتاه هل من يرد عليَّ ما فقدت يدي آه واولديَّ وافلذة كبدي

هذه آخر عبارة نطقت بها ثم لوت عنقها واتكأت على صدر اخيهـا وفاضت روحها كضحية زكية في سبيل شطط زوجها عن محجـة الهدى قاتل الله عبيد الهوى

﴿ فصل ثامن ﴾

اين الابنتان

كان منترفيو ذا يخت كبير مزخرف يركبه في الاسفـار ايان شاء على شاكلة اخوانه الاميركان الاغنيـاء وعليه نوتيان وخادم ولكل من الاولين قصـة غريبة و. يصـلا الى اليخت الا افلاتاً من الحكومة فراراً من عقابها لما اتيا من المنكرات فحماهم منترفيو وغيبهما عن ابصار الحكومة مطوقاً عنقهما بقلادة من الجميل اثقل من الجبال حتى امسيا له كالعبيد واذل الرجال وكانا في كل آن طوع اشارته ولو كلفهما المستحيل فلم يكن ليقصر في استخدامهما في اغراضه وقضاء مآربه

اما الاول فاسمهُ غريك بوك وكان اميريكي المحتد سالكاً سبيل القبائح شرس الاخلاق يضرب كل يوم امرأتهُ وابنـهُ وينازع الجيران ويخاصم الاقارب والاباء حتى سئم منهُ الناس ذات يوم اذ جاء البيت سكران فحمل ابنهُ الطفل وضرب

امهُ حتى كاد يقتلهما معاً فحنقوا عليه ووثبوا وثبة الاسود ليقتلوه انتقاماً على حسب العوائد الاميركيــة التي لا تزال حتى اليوم جارية عندهم مجرى القــانون وبموجبها كل امرء يمتاز بجرم فظيع يصنعهُ على مرأى من الناس يجتمعون عليه فيقتلونهُ بلا محــاكمة زاعمين انهم بذلك يقومون مقام الطبيعة التي تكره حياة مثــل هولاء الرجال المدنسين اسم الانســانية فينزلونهم منزلة الوحوش الضارية التي يجب على كل فرد ان يسعى في اهلاكها انقاذاً للالفة من شرها

اما غريك فلما رأى ان ساعتــهُ قد دنت وانهُ هالك لا محالة فرَّ من وجه القوم فتأثروه حتى وصل الى البحر فنزل فيه وغاص في قعره فاشتــد لغطهم وارتفعت جلبتهم وقالوا فليقتل الشقي فليمت القاتل وظلوا ساعة ينتظرون خروجه فلم يظهر فقالوا لقد غرق لا قامت لهُ قائمة وعادوا مقتنعين بموته غرقاً ولكن كانوا يودون لو امسكوه وضربهُ كل منهم ضربةً ليشفي منهُ الغليل

اما غريك فلما سقط الى العمق ظل سابحاً تحت الماء حتى وصل الى يخت منترفيو الراسي يومئذٍ في ثغر نيويرك فعبر من تحته وتعلق بمرساته فابصره منترفيو واخذتهُ عليه الشفقة فرفعهُ الى اليخت وأمنهُ في حمــاه واتخذه في خدمته واحياه فاصبح لهُ كالأَمة لا يبغي الا هواه

اما البحري الثاني فكان اسمهُ زفرين من جبال بيريني الفاصلة بين فرنسا واسبانيا وكان من جنود البحرية الفرنسية في اسطول البحر المتوسط فتنازع يوماً مع احد ضباط سفينته وجرحهُ ولما دعي امام مجلس حربي فرَّ من الجندية واستقر مختبئاً في البحر عدة ساعات حتى صادف اليخت فاستجار به فاجاره منترفيو وضمهُ الى خدمته فكان مديوناً لفضله

ففي صباح يوم استدعى منترفيو غريك بوك واخذ يذكره بماضيه وبمــا لهُ عليه من الايادي البيضاء ويلمح لهُ انهُ لا تزال روحه في يده كالعصفور يقبضهــا في اي يوم شاء بمجرد الاباحة باسمه وظل يعدد لهُ مثــل هذه الامور حتى صغرت نفسهُ وامسى لا يهاب في سبيله الردى وقال لهُ سل ايهــا المولى فتطاع ولو فوق المستطاع

فلما آنس منهُ منترفيو هاته الطــاعة العمياء قال لست بمكلفك حملاً ثقيلاً ولا

خطرًا ولكن اقتضي منك ان تأتمر بما آمرك ملازماً جانب الكتمان لكل ما ترى فقم الان والبس ثياب تاجر اعددتها لك وعد سريعاً

و بينا النوتي يلبس الثوب الجديد ترل مولاه الى غرفة في يخته ورجع وفي يده صرة كبيرة فاندهش غريك وقال « صرة متحركة» فاجابه منترفيو متبسماً : أجل لان الاولاد يتحركون ولو نائمين

— يا لله في يدك ولدٌ فأنى اتى وابن من هو وهل هو ذكر ام انثى

— هذا لا يعنيك بل حسبك ان تعلم ان في يدي بنية اريد ان اكلفك بشأنها امرًا يسيرًا فاصغ لامري

— عفوًا ياسيدي لو شئت ان ابطش باحد البحارة او انقب احد البيوت كما فعلت في بيت باميركا لما امتنع صاحبهُ ان يؤدي لك مالك او امرتني باي شيء كان لفعلت حبًا وكرامة ولكن بخصوص الاولاد لا ادخل فارجوك ان تعفيني

فلم يعبأ منترفيو بهذا الكلام بل وضع البنية على المنضدة واخرج من جيبه كيساً فيه مئة ليرة وقال لهُ دونك هذا الكيس وسافر اليوم من جنوا الى ميلان ومنها الى بلجكا ولندن مارًا بسفيسرة والمانيا

— كل هذا السفر لاجل هذه الابنة الصغيرة — اريد ان تهتم بها غاية الاهتمام

— وان طلبت اباها او امها فماذا اصنع — قل لها انك ذاهب بها اليهما

— هذا شيء سهل

— لا اسهل منه ولكن يجب ان تعلم ان الفتية اذا استيقظت انذهلت فتلطف بها ولا تدعها تسيء بك الظن وان صاحت فاعطها حبة من هذه الحلويات فتنام سريعاً وعند وصولك الى لندن انزل في المحل الذي اعطيك عنوانهُ وانتظر مني امرًا جديدًا

فسافر غريك مع البنية الى لندن على الطائر الميمون

﴿ فصل تاسع ﴾

البنت الثانية

بينما كان منترفيو مشتغلًا بتغييب البنت الصغرى مع غريك بوك كان النوتي زفريس

يعاقر الخمرة في جنوا ويتقلب في حمأة الملاذ حتى دنا نصف الليل فعاد الى اليخت تحت جنح الظلام يتمايل من السكر وقد خاف من توبيخ مولاه فاسرع الى غرفة غريك فوجدها فارغة فناداه فلم يجبهُ فانبسط لانه سبقهُ وقال في نفسه « لا يزال ذلك الشقي ملتهياً بمغازلة الحسان ومعاقرة بنت الحان ولكن سيلقى جزاء ابطائه شديداً

وفيما كان يفتش عنهُ وجد زجاجة من الخمر لصاحب اليخت على المنضدة فارغة فقال في نفسه لا شك ان ذلك الشقي قد سرقها من غرفة سيده وبعد ان ملأ منها رأسهُ اركن الى الفرار فاخذ الزجاجة واعادها الى غرفة مولاه التي فتحها بطريقة سرّية كان قد تعلمها وكان القمر في اول اشراقه وما كاد يضع الزجاجة الا سمع صوتاً ينادي من وسط الغرفة « يا اماه يا اماه »

فارتعب زفرين لانهُ ظن ان هنالك ضرباً من الجن ولم يبدِ حراكاً فدنا من مكان الصوت واذا فتية تفرك عينيها فلما لمحتهُ ارتاعت واستغاثت وا اماه وا ابتاه فسكن اضطرابه واخذ يدها ولثمها فقالت لهُ اين امي

— لا اعلم اين امكِ واما ابوكِ فهو ...

— هل يأتي الان

— عما قريب يأتي لانهُ خرج يتنزه على ظهر السفينة

— وهل ابي جاء بي الى هنا

— نعم بل انتِ هنا عنده

— كان احب اليَّ ان ابقى في سريري الناعم الوثير في البيت اين والدتي ادعُ لي امي . اين اختي ليلي ... فتلعثم لسان زفرين ولم يحر جواباً لكنهُ لثم يد الفتاة ثانية واذا بصوت مولاه ينتهره فاخذتهُ الرجفة وجعل يعتذر عن وجوده في تلك الغرفة بسبب زجاجة الخمر فامره بالصعود الى سطح اليخت فصعد وحينئذٍ تقدم منترفيو الى البنية وقال لها « عما قليل نصل الى امكِ فهي التي كلفتني ان ارافقكِ في هذا السفر الطويل فنامي ياعزيزتي» ثم وضع في حلقها حبة من الحلوى المنومة فاستغرقت في الرقاد

فلما صعد منترفيو الى سطح المركب اخذ زفرين يبرىء نفسهُ معتذرًا عن هفوته قال له مولاه صه فاين غريك

— لا ادري وانا بسببه تحملت الملام ولما رجعت لم اشاهده

— لقد نزل الى البر ليقضي وطره من القصف واللهو كل الليل وظن انهُ اذا عاد عند الفجر لا اعلم به ولكن لاوسعنهُ عقابًا وتأديبًا

واراد منترفيو بهذا الكلام ان يموه على زفرين كي لا يداخلهُ ريب في تغيب غريك ولا يخامره ظن بانه سافر بامره ثم قال له متلطفًا : الا تعلم يازفرين إني لاجلك اقلعت من مرفإ نيس بغتة وحبًا بك تركت اعياد المرافع فيها

فبهت زفرين متحيرًا ولبث صامتًا فاستأنف منترفيو الكلام قال : نعم لاجلك فعلت كل هذا فقد بلغني ان الاسطول الفرنسي قادم الى نيس وفيه السفينة « دڤستاسيون » التي كنت فيها بحريًا فخفت ان يعرفك بحارتها فتلقى عذابًا اليمًا

فانتقع وجه زفرين انتفاعًا وذرفت دموعه عفوًا فقال لهُ مولاه لا تخف فاني استدركت الامر وجئت باليخت الى مياه جنوا حيث تكون امنًا حتى اذا كلفتك يومًا بامرٍ ما وجدتك عبدًا مطيعًا فجثا زفرين على قدميه وطفق يقبل يديه ويقول لهُ اني لك اطوع من بنانك فرني تطع ولو بذلت في سبيل خدمتك روحي فدى

فانهضه منترفيو وقال لهُ اذا كلفتك بشيء فلا اسألك ما لا يستطاع ولكن اخاف من لسانك المهذار ان يبوح بما اوحي اليك من الاسرار

— لا تخف يامولاي فاني أحفظ للسر من كل بشر فأقسم لك بشرف البحارة انا لو قطع لساني لما بحت بكلمة

— بارك الله فيك فاصغ لما انبيك : ان ام هذه الفتية امرأة متزوجة وقد ظن بعلها الى اليوم انها ابنتهُ — في حين انها بالحقيقة ابنتك

— انت قلت ولكن لما انكشف الغطاء أسرعت في تغييبها خوفًا عليها وعلى امها

— حسنًا فعلت ولكن ما انت صانع بها — اريد ان اربيها في بلد غريب واحب

ان افوض اليك ايصالها الى المدرسة — الى اين اسافر بها

— تتبعني الى حيث اذهب دون ان تنبس بكلمة بشأنها

— لا يجب ان يعلم بهذه المسألة لا غريك ولا الخادم — كلا ولا احد في الدنيا سواك فانت وحدك تعرف ان هذه هي ابنتي فانتفخ زفرين مفتخرًا بانهُ صار محط ثقة مولاه وقال لهُ هاءنذا مستعد للامر فمتى نسافر — الان الان فاذهب والبس حلة جديدة اشتريتها لك وتلبية لامر منترڤيو انطلق زفرين لتغيير لباسه بثياب نظيفة كلباس التجار فجعل منترڤيو يتأمل فظاعة الاثم الذي اتاه بظلم هاتين الفتاتين البارتين لكن ما زال جمر الانتقام متقدًا في صدره مصرءًا فيه ذكر تعدي سنترمون على خطيبته فقال انهُ سلبني الزهرة الاولى من بستان حبيبتي فلا بدع اذا سلبته زهرتيه فهو مستاهل لهذا السلب وبالعدل جوزي بخطف ابنتيه

وعند الفجر دفع منترڤيو الفتاة ملفوفةً الى زفرين واوصاه بان يغطي وجهها حتى لا يدري احد بما يحمل وانطلقا مسرعين فلم يشاهدا في الطريق الا نفرًا يسيرًا من العملة ولما وصلا الى محطة السكة الحديدية استاجر منترڤيو عجلة بمتها لركوب زفرين والبنت وركب في عجلة اخرى ملاصقة لها بعد ان دفع اليه صرةً ملأى من الخبز واللحم المسلوق والفواكه والحلويات

فلما سار القطار ارتجت العجلات ورنَّ دويها في اذن البنت فاستيقظت ونادت امها ثم نظرت الى وجه زفرين فارتاعت واستغاثت بامها تكرارًا فلم يكن مجيب الا ان زفرين تبسم في وجهها ومد يده ليداعبها فنفرت منهُ وقفزت الى صدر العجلة وقالت له اياك وان تمسني مرة اخرى فاين امي اريد امي

﴿ فصل عاشر ﴾

في اخفاء البنت الكبرى

لما رأى زفرين نفور البنت منه حزن وطفق يبكي كالاولاد رغمًا عنهُ مع انهُ قضى عمره في المعاصي وتجشم الاهوال ولم تجد عينهُ بقطرة واحدة ثم تقدم الى الفتاة

ذليلًا وجثا امامها ولثم يدها فلم تمنعــهُ بل مالت اليــه وقالت « انت مكلف بمرافقتي في هذا السفر »   — نعم لان والدتكِ اضطرت ان تسافر سفرًا طويلًا فلم تستطع ان ترافقك وقد جيء بكِ اليَّ لكي اعتني بكِ عناية المربيات بالاولاد وقد اتت هذه العبــارة من زفرين رمية من غير رامٍ لان امهــا كانت وقتئذٍ قد رحلت الى الابدية

وكان بعد ان اتم عبارته قد ضحك فضحكت هي ايضًا وسألتهُ هل السفر بعيد ومتى تشاهد امها فاجابهــا عن السوال الاول بالايجاب وعن الثاني بالارتياب ثم ســألتهُ عن ابيها فحار في الجواب الا انهُ دفعًا لكثرة اسئلتها الهاهــا بفتح صرة المأكولات ولما أبصرت اقراص الحلوى ابتهجت وطفقت تأكل ملتهمة اياها التهامًا

وقضوا ذلك اليوم واليوم التالي في السكة الحديدية في بلاد ايطاليا وفي اليوم الثالث وصلوا الى المانيا فنزلوا في احدى الفنادق وجعلت جوبين في غرفة وحدهــا فابت الا ان ينام زفرين في غرفتهــا وعند الصباح قامت اليه وعانقتهُ كأنه والدها وقد خافت ان يوذيها احد فتبقى بلا نصير فلم ترَ ابقى لها من زفرين الذي سر منهُ والفتهُ ولما سألته الحماية حلف لهــا انهُ لن ينالها أذى مادام حيًا فسكنت الى يمينه وسلت ذكر امها وابيها ولا سيما لما رأت ان السفر طال اربعة ايام متوالية لان منترفيو لم يكن يسافر في الخطوط الكبيرة في المانيا بل في الفروع الضيقة حيث لا يركب الا الفلاحون الذين يجهلون اللغة الفرنسية حتى اذا تشكت البنت او فاهت بشيء لم تصادف من يفهمها

وفي اليوم الخامس وصلوا الى انفرس في باجكا فسافروا منها الى لندن ولما وصلوها قال منترفيو لزفرين هنا نحط ركابنــا ولقد سررت من تصرفك وفطنتك كل السرور فاثني عليك وساجازيك خير جزاء ولم يبقَ لاتمام مهمتك هذه الا شغل يسير تقضيه هذا النهار واعلم ان لك عند الله اجرًا كبيرًا لانك ساعدتني على تخليص هذه البنت من الموت فيجب ان لا ترى بلاد فرنســا كل عمرها بل تعيش وتموت في انكلترة . وهنا امرأة جليلة تعتني بتربيــة اللقطاء والايتام نفوضها اليها فخذ الان الفي فرنك اجرة السنة الاولى سلفًا وادفعها للسيدة برستون واخبرها ان الفتاة يتيمــة من الابوين وتحقيقًا لذلك

سالبسها السواد دلالة على الحداد

فادرك النوتي من خلال هذا الكلام ان معلمه يموه عليه الحقيقة وان الفتاة ليست بابنة بغي كما يدعي وانما هي ضحيـــة طمع وانتقام فحوّل في نفســــه ان يرعاها اينما ذهبت ويرعى ظالمها بعين ساهرة حتى اذا تهيأت له الفرصة انقذها من الاسر في مستقبل الايام

فصل حادي عشر

تدابير منترفيو

لما خرج زفرين من الغرفة ليأخذ جرمين الى السيدة برمتون قعد منترفيو يتـــأمل والهواجس تتخاطف افكاره وعوامل الشفقة على الابنتين تتنازع فؤاده حتى كاد يعدل عن عزمه بتغييبهما وفكر في ردهما الى نيس وتركهما في الطريق ليلًا فتهتديان الى ابويهما ويتخلص من وخزات الضمير لكن خاف ان يغضب حبيبته ليونيدة بمخالفة امرها وهي القابضة على زمام قلبه وعقله فلا يسعهُ الا الرضوخ لامرها

ولدى افتكاره بليونيدة اهاج ذكرها كمين حقده على سنترمون الذين جنى من حديقتها البـاكـورة فردد قوله الســابق لقد سلبني الزهرة الاولى فمن العــدل ان اسلبه زهرتيه

وكان يعرف ان جرمين المرسـلة الى السيدة برمتون انما هي مسوقة الى الموت لان هذه الانكليزية كانت قد اتخذت جمع اللقطاء حرفة فعندما يدخلون بيتها يلاقون من الجوع والعطش والعري وسوء المعـاملة ما يؤدي باكثر الاولاد الى القبر سريعاً

ولم يكن منترفيو ليحب ان يميت البنت وانما كان مكرهاً على اخفائها عن الابصـار خوف ان تفشي السر لانها في سنها كانت تستطيع ان تبوح باشياء كثيرة ربمـا أدت الى كشف الستار عن جرمه واما اختهـا الصغرى فقد خبأ لها حالة افضل لانها كانت عاجزة عن كل ضرر

ثم جلس منترفيو يقرأ الصحف الانكليزية اليومية التي كانت مشحونة باخبـار مقتل

سنترمون وكان كلما تلا فقرة يضحك من اخفاق مساعي الشرطة في اكتشاف المجرم ولم يرَ فيها خبرًا جديدًا سوى مأتم امرأة سنترمون التي توفيت من جراء فرط حزنها على فقد ابنتيها وقد نقلت جثتها الى باريس لتدفن في مدفن آلها وصحب الجنازة اخوها البارون لوران الذي عزم ان لا يعود الى سيميز لان زوج اخته كان كلما رآه شتمه واهانه حتى وجه ظنون ارباب الحكمة الى ان له يدًا في هاته الجريمة اما المريض فقالت الجرائد ان الحمى ملازمة له لكنها خفت قليلًا ويحتمل ان يقوى عليها فيشفي

فلم تقع هذه العبارة الاخيرة لدى منترفيو موقع القبول لانهُ كان يؤكد ان ضربتهُ كانت قاضية على انهُ رأى شيئًا آخر استلفت انظاره لان بعض الصحف قالت «اما القاتل وخاطف الابنتين فلم يوقف لهُ على اثر رغمًا عن نشاط الشرطة واستفراغهم جعبة الوسائل لكنهم يظنون ان الجريمة انما هي عمل رجل كبير من الاغنياء واصحاب النفوذ ولكن لا يتسنى الاباحة باسمه قبل الوقوف على الحجج الدامغة»

فوقف منترفيو عند هذا الكلام متحيرًا وقال من يريدون يا ترى بهذا الرجل الكبير الغني فلو كان ثمت ادنى سبيل للريب في هذا الشان لكان جمس باركلاي قد انبأني بالحقيقة تلك اوهام لا تصلح ركنًا للاحكام

ثم قام في النهار الى المدينة وزار بعض الاكابر وأبرم بعض الاشغال المالية حتى يموه على الناس انهُ انما قصد لندن لقضاء بعض المهام ولما اتى المساء انطلق الى البيت الذي امر خادمه غريك بوك ان يسكنه في لندن عند اخذه البنت الصغرى

وكان غريك قد استأجر غرفة في زقاق البحرية حيث كان يقضي جل وقته مع رؤساء السفن والنوتية مدعيًا انهُ ربان مركب عظيم فلما وصل منترفيو رآه جالسًا معهم والغليون في فيه يحاكي هذا ويفاخر ذاك مازحًا مهرجًا وبالقرب منهُ اولاد يلعبون ضاحكين مسرورين بينهم البنت املين التي كانت اشد منهم انبساطًا غير مبالية بما حل بها

فاستدعى منترفيو خادمهُ وخلا به في غرفة اخرى وجعل يسائلهُ عما جرى لهُ في الطريق وما صادف من المصاعب فاخبره «ان السفر تمَّ على غاية ما يرام من الراحة والاطمئنان وقد نامت البنت مدة طويلة من المسافة ولما افاقت نادت امها واختها

فالهتها بعض الحلويات ثم رقدت وعنداستيقاظها عانقتني وطلبت ماًكلاً وسألت ذكر امها واختها وها هي الان كما رأيتها ضاحكة لاعبة لا تكترث الى شيء فسر مترفيو من افلاحه واثنى عليه وقال لة اراك منشرح الصدر وتود لو تبقى حارساً لها على تلك الحال طويلاً فما قولك اذا مهدت لك سبيل هذه العيشة الراضية

— غمرتني بفضلك لابد ان تكون قد تحيرت في امر هذه البنية واردت ان تعرف ابنة من هي ولكن لن تعرف البتة لان ذلك لا يهمك فاذا سئلت فقل ما شئت عنها إما انها ابنة اخ لك توفي ابوها او هي لقيطة اشفقت عليها او هي ابنتك من بغيٍّ او غير ذلك ما شئت

امرك يا مولاي فاني لا اخاف ان يعيرني بها احد

ولكن لا بد لها من ام تربيها — صعبت سؤالك وهل استطيع ان اتزوج اذا لم اكن أرملاً — وماذا يمنعك ان تعود لمساكنة امرأتك

— هذا مستحيل. هذا غير ممكن — ولماذا فقد رتب لك محلاً في الباخرة المسافرة الى نيويرك صباح غد فلا تخف ان تذهب اليها لان القوم يظنون هناك انك صرت من الاموات ولا شك ان ذلك السكير الشقي الذي كانوا يعرفونهُ باسم غريك قد تبدل الان برجل عاقل حكيم فانطلق الى امرأتك وقل لها « اني كنت بالامس شريدًا سكيرًا وعدت الان اليك مهذبًا وديعًا ومعي هاته البنية (التي تخبرها عن قصتها على ما يلوح لك) فيجب ان نربيها ونعنى بها كما لو كانت ابنتنا ولنا على ذلك اجرة تبلغ الف ليرة انكليزية عدًّا فاندهش غريك من هذا المقال ولاسيا لما طرق اذنيه صوت الف الليرة فابتهج ولكن لم يصدق ما سمع وظن الامر هزلاً فاراد ان يتحققهُ قال : انت تعطيني الف ليرة اي خمسة الاف ريال (دولر)

— أجل لك هذا المبلغ وقدره خمسة وعشرون الف فرنك تقبضها من الصراف الذي اتعامل معهُ في نيويرك

فحك غريك رأسه هنيهة وقال « لعل الشرطة يقبضون عليَّ »

— لا تخف وهل يقبضون على رجل غرق في البحر من عدة سنين

ـ ولكن عند قبض الدواهم يجب ان اذكر للصراف اسمي

ـ لقد استدركت هذه المشكلة وتلافيتها فكتبت لك التحويل لامر حامله ايًا كان

ـ ولعل امرأتي تأبى قبولي ـ حاشى فاني على يقين انهـا امرأة عاقلة فلا تبصق على الف ليرة انكليزية تكون ملكًا لك ولها بل بالعكس ترحب بك ترحيبًا لانكما تستطيعـان بهذا المال ان تربيا ولدكما في احسن المدارس وان تعيشا عيشة رغد ورخاء

فرضي غريك جذلاً ولما انس منترفيو منهُ الرضى قال لهُ بلهجـة التهديد : اريد ان تعنى بهاته البنية كل العنـاية فلا يصيبها اقل اذًى والا فلا تلم الا نفسك

ـ اقسم لك بالانجيل اني احافظ عليها محافظتي على انسان عيني

ـ وان حنثت بقسمـك فاعلم اني واقف لك بالمرصـاد فلافعلن بك ذيت وذيت . . . ـ بشرفك يامولاي لن احنث وقـد يكون المرء شريرًا لقلة ذات يده ولكن متى صار ذا الف لـيرة اضطر ان يكون عاقلًا وساشتغل بهذا المال فاربح به الف الف ان شاء الله

فضحك منترفيو مستهزئًا به وقال لهُ ليس في اميركا شيء مستحيـل فاصنع ما شئت وافلح واربح وفِ بوعدك والان تحفز للسفر

وقد اخترت لك بعض البواخر الصغيرة خوف ان لا يظهر امرك امام ركاب الكبيرة حيث يكثر الغرباء والمتكلمون باللغة الفرنسية التي تنطق بها الفتية

ـ اراني ملتزمًا بتبديل اسمي ـ انت حرٌّ فافعل ما تشاء

ـ ويمكنني ان اهجر نيويرك ايضًا ـ لا بأس بشرط ان تفيدني عن البلد الذي تنتقل اليـه ويجب ان تعلمني شهرًا فشهرًا باخبار الفتاة قم الان وتحفز للسفر واعلم انك منذ غدٍ لا تنطق بكلمة واحدة فرنسية وان البنت بعد ستة اشهر يجب ان تكون قد نسيتهـا حتى اذا حال الحول وتعلمت اللغة الانكليزية وجب ان تقنعها انها اميركية المولد والمحتد فان فعلت هذا ربحت رضاي عنك وثنائي عليك

﴿ فصل ثاني عشر ﴾

في السيدة برمتون

ذهب زفرين ائتمارًا لاشارة مولاه بالفتاة جرمين ليسلمها الى السيدة برمتون التي نديد في لندن محلًا يتاجر بارواح الصغار بحجة انها مأوًى للقطاء والايتام وقد اشتهر بيتها عند الكثيرين بانهُ محط رحال كل ولد يريد اولياؤه التخلص منهُ موقتًا او دائمًا وهي لا تقتل الاولاد قتلًا لكن تذيقهم من شظف العيش وسوء الغذاء والخدمة ما يؤدي بهم طبعًا الى الهزال والهلاك

فالى هذا المكان اراد منترفيو ان يطرح الفتية جرمين بنت الكنت سنترمون فانطلق بها زفرين صباحًا وقلبه منقبض حزنًا عليها لانهُ احبها حب والد لولده وكان يود لو يخلصها ولكن لم يكن ليستطيع الى ذلك سبيلًا لان حياته كانت في يد ذلك الظالم الفتاك فراح بالرغم عنهُ يتمشى في اسواق لندن وحدائقها والبنت تضحك وتلعب وهو يضرب اخماسًا لاسداس حتى جاء المساء فلم يجد مناصًا من اتمام مشيئة سيده فركب العجلة وذهب الى بيت السيدة برمتون في ازقة ضيقة تكتنفها احياء صغيرة وخيمة فلما دخل واجهتهُ امرأة في سن الكهولة فاستلمت الفتاة وقالت لهُ انت است اباها — لا بل مكلف بتسليمها لكِ وقد قيل لي ان والديها قد توفيا فيجب عليكِ ان تعلميها بخبرهما

— ساصنع ذلك واظنها فرنسية الاصل ويريد اولياؤها ان تنسى لغتها ولا تتكلم الا الانكليزية — لا اعلم

— انا اعرف منك بهذه الحوادث ولي خبرة بها طويلة فلم يجدوا من حاجة الى زيادتي بيانًا فاخبرهم اني اعنى بها مزيد العناية ولها رفيقات كثيرات تلعب معهن واذا شاؤا ان اخبرهم عن احوالها فليعرفوني بالواسطة وليرسلوا لي العنوان فتصلهم اخبارها شهريًا فهات الان الدراهم فتردد زفرين في تسليمها ولكنهُ كان

مكرهاً فدفعها وكتبت له وصلاً بالفي فرنك وذيلت الوصل بان الفتاة اذا توفيت في اثناء السنة الاولى فلا يحق استرجاع شيء من الدراهم

فارتعش زفرين عند ذكر الوفاة واراد ان يعترضها فاستأنفت كلامها بان قانون محلها يقضي بهذا الشرط مع العموم ثم ودعته فوقف فسألته في ذلك فقال لها اسمحي لي ان اودعها قبل ان اذهب

فشزرته بطرف عينها وقالت : « انت لست الا مكلفاً بايصالها اليَّ فاوصلتها ودخلت بين الاولاد فلا تخرج بعد » ثم قفلت الباب في وجهه فذهب حزيناً كاسف البال ولم يتمالك من ذرف عبرات حرَّى فمرَّ باحدى الحانات فدخلها وجعل يكرع في المسكرات تفريجاً لكربته حتى كاد يضيع رشده فانتبه الى ان الميعاد المضروب له من منترفيو قد فات فترك الحانة وهو يتمايل ثملاً حتى وصل الى النزل المقيم فيه مولاه

وكان منترفيو يتقلب على جمر الانتظار وعوامل الافكار تتنازعه وقد خاف ان يكون زفرين قد زلق بلسانه بما يورطه في تهلكة اكيدة فلما رأى خادمهُ انتعش وقد ادرك انهُ شرب حتى سكر فلم يعارضهُ بل سأَلهُ عن اتمام المهمة التي انتدبه اليها فاشار اليه بانهُ اتمها وفق المراد فاطمأن وامره بالرقاد وفي الصباح يخبره ما جرى تفصيلاً

فلم ينم زفرين الا ساعات يسيرة ثم استيقظ عند الفجر وطفق يفكر في هاته الرواية الغريبة ودخل على مولاه فقصها عليه ودفع له الوصل فاعرب لهُ منترفيو عن سروره منه لكنه امره بوجوب نسيان تلك السفرة وحذفها من سجل حياته ودفن كل ما سمع ورأى في لحد الاهمال

فتظاهر زفرين بتمام الخضوع والطاعة فقال لهُ سيده : اني انما اتيت الى لندن لقضاء بعض المهام المالية وقد اصحبتك نظير خادم خاص فاحسنت الخدمة وهاك الان ثلاثة الاف فرنك منها الف فرنك تصرفها في ١٠ تهوى والالفان الاخران تؤديهما اجرة رفيقك غريك وخادم اليخت فعد الى اليخت اليوم او غداً بغير طريق فرنسا وانتقل باليخت الى ثغر نابولي حيث ننتظر رجوعي اليه وها انا الان مسافر الى باريس وبعد ايام يسيرة ارجع الى اليخت

﴿ فصل ثالث عشر ﴾

البعض يأكلون الحصرم واخرون يضرسون

لما عاد البارون لوران بعد وفاة اخته الى باريس لبث فيها وعوّل ان لا يخرج الى صهره في سميز ابتغاء ان يتناسى تلك الفاجعة الدهماء لكن بينما كان في بيته ذات يوم يتصفح الجرائد اليومية عثر فيها على تفاصيل مقتل سنترمون وقد اتفقت كلها اتفاق رجال الشرطة على ان « مرتكب الجريمة حسب قولها اذا اختفى وجب ان نفتش عنهُ في من يكون اكثر استفادة منها وعلى حسب هذه القاعدة التي لا تتبدل خالاً وجهت التهمة على الرجل الذي يغتنم الفائدة الكبرى من مقتل سنترمون ومن اختفاء الابنتين وهو مشهور ولو لم نذكر اسمهُ صريحاً اما توقيفهُ فامر لا ريب فيه »

فما كاد البارون يتم هذه العبارة حتى جاشت فيه ثورة الغضب وتميز من الغيظ وقال « تبًا لهم من سخفاء العقل انهم كلهم مجانين »

وكان البارون لوران من كبار اغنياء باريس واشهر صيارفها ولهُ ولد وحيد [illegible] مع امرأته في تثقيفه وكانت اطيار الافراح تغني في دارهم الرحيبة مساء صباح فجاءت هاته المصيبة ونغصت عيشهم الرغيد فبدلت الرخا بالعناء وحولت السرور الى كآبة تقبض الصدور

ولما رأى الصحف السياسية مشحونة بمثل هذه الاقاويل تتناقل عن بعضها ما ساء من التآويل عدل عنها الى تصفح الجرائد المالية فجاءت اخبارها ضغثاً على ابالة لانها كشفت القناع عن كثير من البيوتات التجارية المظنونة عامرة فاذا هي متأخرة متقهقرة وانهُ مع بعضها علائق واموال فاشتد حزنهُ وفكر في ان الدهر قلب لهُ ظهر المجن وان المصائب كرّت عليه فلا تبقي ولا تذر

وبينا هو خابط في مهامه الهواجس دخلت امرأته وابنهُ حجرة المائدة لتناول الغداء فنادياه فلم يسمع فقامت اليه البارونة وسألته في هذا الانشغال فانتبه واراد ان يموه عليها ما دخل عليه من البلبال فبش بوجهها متكلفاً وقام الى المائدة وهو يخاطبها

على عادته متلطفاً

ولكي يستر كآبتهُ اخذ يسائل ابنهُ هوبر عن احواله في المدرسة ونجاحه في العلم ووعده انهُ في ذلك المساء يأخذه عند الانصراف من المدرسة الى النزهة في ضواحي المدينة

لكن البارون رغماً عن تكلفه ظواهر السرور كانت ملامحه تبدي اشارة الغم والكدور فما اكل الا يسيراً ثم قام الى الجرائد فتأبطها وقصد النزول الى مكتبه الذي كان في الطابق الاسفل من بيته فصادف امين صندوقه آتياً مرتجفاً فقال له جئتك بخبر مشؤوم فان مصرف جياريس قد توقف عن اداء ديونهِ

— لا باس ولماذا الخوف — لان لنا معهُ علائق مالية تلحق بنا خسائر كلية

فنزل البارون الى المكتب متجلداً على المصيبة كأنهُ غير مكترث لها ولكن لما رأى على منضدته تمسكاً بالف ليرة يطلب اداؤه من صندوقه انتقع لونه وقال لا اذكر ان على مصرفنا مثل هذه القيمة تستحق هذا اليوم

اجل هو تمسك من امضاء جياريس لامر المسيو منترفيو مذيل بامضائك كفالة لهُ فلما امتنع عن ادائه الاصيل رجع صاحبه الى الكفيل ولم يكن في الصندوق مال يكفي لسد ربع هذا المبلغ وكانت تلك السنة سنة ضيق وازمة مالية عمومية هوت فيها الى هاوية الافلاس عدة مصارف بسبب المضاربات البورسية واعتصاب كبار البيوتات التجارية فحزن البارون وصغرت نفسه ثم قام الى خزانته فاخرج منها ستين سهماً من صكوك السكك الحديدية كانت عنده بوجه الامانة وامر امينهُ ان يرهنها في الكريديليونه لاستدانة الف ليرة

فلما خرج الامين عاد البارون الى مقعده فطرق فكره ما اتهم به صهره وقال في نفسه لقد صدق ستترمون ان تلك الجرعة المزدوجة انما هي عائدة الى فائدتي وحدي دون سواي فان احوالي متضعضعة وان شدد اصحاب الدين في الطلب افلست لا محالة

وكان منترفيو قد جاء بنفسه حاملاً ذلك التمسك ليقبضه فدعاه البارون الى داخل المكتب للاطفته ريثما يعود الامين بالمال واعرب لهُ انهُ مستعد لاداء المطلوب

على الفور لكنه انذهل من توقف جيار يس فجأة فاراد الاستعلام ورجاه ان يصبر قليلاً

وفي هذه الاثنـاء وفد على المكتب رجلان من مأموري الحكومة يطلبـان مواجهة البارون فعلم بغايتهما وادخلهما الى غرفته الخاصة داخل المكتب واشار اليهما بالجلوس ظاناً انهما قاصدان استئناف اخذ سائر الاعلامات اللازمة بشـأن الجريمتين الا ان احدهما وضع يده على كتفه وقال له يشق عليَّ ايها البارون ان اجري ما أُمرت به معك ولكن هي الواجبـات لا بد من قضائها فباسم الشريعة اوقفك

فاضطرب لوران وخجل وسألهما متلعثماً باية سلطة يوقفانه فاخـبراه بان احدهما هو رئيس شرطة المحـلة والاخر مأمور من العدلية فقال لهما ان ذا التوقيف ضرب من الجنون فلاي سبب ولاية جريمة فاطلعهُ مأمور العدايـة على صورة الدعوة الموجهة فيها التهمة اليـه بانهُ عامل على قتل صهره ومشترك بخطف ابنتيه

فصاح البـارون : هذا محض افتراء هذا كذب وبهتان بل خلط وهذيان وهل يسوغ للحكومة ان تستند الى هذيان مريض انهكته الحمى فتبني عليه تهمة لا اصل لها ولا شبه اصل

فقال له رئيس الشرطة بسكون : لست مكلفاً ياصاح بان ادخل معك بالجدال بل بالقبض عليك لا غير فان كان لك شغـل فاقضه قبل ان تتبعنا

كيف اتبعكم واترك مكتبي وبيتي وامرأتي وولدي . . . كلا لا اقدر ان اتبعكم اني احترم الحكومة ولكن انكر عليهـا تصديق مثل هذه التهمة الباطلة

— لقد قلت لك ولا حاجة الى التكرار اني لست مكلفاً بالجدال معـك بل مأمور بتوقيفك وقد قمت بواجبات مأموريتي . . . وانت عاقل وتفهم ان معارضتك لا تجديك نفعاً فانغض رأسه واطرق الى الارض وقد دمعت عيناه ولم يكن ليخاف من التهمة لانه كان بريئاً طاهر الذيل لكنهُ فكر في حزن اهله وولده ثم تنهد وقال : ياربَّاه ما هذه البلوى اوَّاه ماذا صنعت لتبلوني بمثل هذه المصائب ثم صعد الى البيت كئيباً وهما يتبعانه

وكان وجههُ اصفر فاقعاً فلما شاهدته امرأته ذعرت ولما مست يده البـاردة اضطربت

وظنت ان به طرفاً من البرداء فاشارت اليه ان يذهب بالمصريته ليستريح لكنها انذهلت من هيئة الرجلين اللذين يتبعانه فاخذ بيدها وقال لها على انفراد : لقد دهتنا مصيبة جديدة لكنها ليست الا غيابة وستنجلي — ما المصيبة ياترى صرّح عاجلاً

— دعوى لا طائل تحتها فلست اعلم ماذا جرى في نيس بعد سفري منها وماذا قال سنترمون من الهذيان وهو في ابان البحران

— قاتل الله المنافقين ان سنترمون كان كذاباً مهذاراً في ايام صحتــه فكيف الان وهو فاقد الرشــد . فانت اذاً مكرهٌ على الرجوع الى نيس

— كذا اظن لانهم يتهموني تهمة فظيعة لا اثر لها من الحق انهم بالحقيقة مجانين

— ماذا تقول وعــاذا يتهمونك يانور عيني

— بكل ما جرى هناك بجرح سنترمون وخطف ابنتيه

— معاذ الله قاتل الله الوشاة انها لفرية لا تطاق

قالت هذا وفرقت بين بعلها والمأمورين اللذين قالت لهما : بالله عليكما ان تدعا بعلي ولا تسلباني رَجلي فهو طاهر اليدين بريء من كل جرم ومين

قال لها لوران : خففي عنكِ الحزن ياعزيزتي جوليا ولا تخافي فان المسألة ليست بذات بال فسكني روعكِ واياكِ ان يعرف ولدنا هوبر بشيء بل تصبري والقي على الله همكِ فهو يعولنا وينقذنا من ايدي الاشرار ثم ودعها وسار

﴿ فصل رابع عشر ﴾

عيادة ليونيدة للجريح

اقامت ليونيدة في بيت الاميرة زامركو اياماً طويلة بعــد تلك الحوادث وكانت تنتهز كل فرصة للاستعلام عن صحة سنترمون فوعدتها الاميرة يوماً بانهــا ستصحبها لعيادته لانها سمعت ان صحته تحسنت وقد فارقته الحمى واخذ جرحه يلتئم

وكان سنترمون قوي البنيــة شديد العضلات معتاداً على تمرين الجسم بالالعاب المروّضة فلم تقوَ الحمى على الفتك به فلما فارقته عاوده الرشد فجاءه المستنطق لاجراء

التحقيق الذي لم يستطعه يوم كان في الجرائد قال « اني رجل تتهم الحجرية لسلامة حميك البارون لوران »

وكان سنترمون قد طعن على ابن حميه مرارًا لكنه لما سمع بذكر التهمة قال للمستنطق منكرًا : لم اتهمهُ البتــة باتيان الجرم لاني قلت لك اني اجهل الذي ضربني وفي حين ضُربت لم اسمع شيئــاً ولم ارَ شيئاً على اني مقتنع انهُ لو لم يأتِ البارون لوران صباح ذلك اليوم ويهيج عليَّ امرأتي لما كانت تصدق ذلك الكتــاب المزوَّر ولم تكن لتخرج من البيت ليلًا او لتدع سبيلًا لخطف ابنتيّ

على ان الحكومة رغمًا عن شهود سنترمون ببراءة ابن حميه لم يسعها الا القبض عليه لاستجلاء الحقيقة ما دامت طي الخفاء ومع اقتناع سنترمون بصدق لوران واستحالة اقترافه لجرمي القتل والخطف قد سرَّ قلبًا بتوقيفه ومحاكمته لانهُ رأى في ذلك اكبر واسطة لسقوط شأنه وقلة ثقــة القوم به فيصبح غير اهل ليؤتمن على ثلاثة ملايين الفرنك المودعة عنده لابنتي شقيقته ولم يشك ان المحكمــة لا ترى رجلًا اجدر بان يؤتمن على ذلك من والد الابنتين فولد فيه ذلك الفكر سرورًا عظيمًا وبنى عليه قصورًا من السعادة والرفاهية بعد شقائه

وبينا هو حالم في مثل هاته الافكار المبهجة اذ قرع البــاب فاستأذنت الاميرة زامركو بالدخول على الجريح مع ليونيــدة فعارضتهما الخادمة بان الطبيب منع عنه كل زيارة لكنها ألحت فدخلت عليه وسلمت عليه فقبــل يدها وشكرها وكانت ليونيدة وراءها فلما وقعت عينه عليها اضطرب واحمر وجههُ لانها اعرضت عنهُ لاول وهلة مدفوعة من عامل الحقد لمخادعته لها لكنها رمقتــهُ بلحظها الفتان مدفوعة من عاطفــة الحب فظنها انها انفت من مرضه فقال لها : مالي اراكِ محجمة عني ألعلكِ كارهة لمرأى العليل فمدت لهُ يدها دلالة على عدم الكراهية فلثمها ودمعت عيناه شوقًا وشكر لها وللاميرة معًا

ثم جلست الامــيرة في صدر الغرفة فانتهزت ليونيــدة الفرصة لتقول لهُ « كان الاحرى بي ان اكرهك حاقدة عليــك الى الابد وانتقم منك لانك خدعتني خداعــاً فظيعًا لكن ما العمل وانا احبك فالان وقد قضى الدهر بان تعود سرًّا يجب ان نعلم اني

ابيك فلا مناص لا ستهونا ان يذهب بعد الاختيار »

فارتج سنترمون من هذا الكلام لاول وهلة لكنه سر في نفسه من ذكر تخلصه من

عوائق امرأته الاولى   فلما رأت الخادمة تأخره قالت للاميرة

« لقد طالت زيارتكما واخاف ان يلومني الطبيب » فودعته واعدة اياه بالرجوع وانطلقت

مع ليونيدة التي بشت في وجه الخادمة ونفحتها دينارًا فطار قلبها من الفرح وودعتها

الى الباب الخارجي ورجتها ان تكرر زيارتها مرارًا فسألتها عن وقت خدمتها للعليل

فاخبرتها ان لها رفيقة تخدمه من الظهر الى نصف الليل وهي تخدمهُ بالمناوبة من نصف

الليل الى الظهر   فعادت الخادمة وقد نقش على قلبها حب الفتاة البديعة الصفات

« فانتعش سنترمون عند ذكرها وقال ما الطفها وما ارق شمائلها فقالت حبذا لو

تزورنا دائمًا ولكن اخاف ان يونبني الطبيب على ذلك

لا تخافي فاني اشعر ان زيارتها احيت فؤادي وادخلت عليه السرور

والانبساط

وبالحقيقة ان تلك الزيارة جددت فيه حرارة القوة والنشاط فنام تلك الليلة هنيئًا

ولما عاده الطبيب صباحًا تعجب من تحسن صحته وتفاءل خيرًا وبشره بقرب الشفاء

فانتهزت الخادمة الفرصة واستأذنت الطبيب لقبول بعض زيارات فاذن لها فلما

شاع الخبر اقبل الناس زرافات لعيادة العليل وعادت ليونيدة مع الاميرة زامركو واخيها

باركلاي فرحب بهم سنترمون كل الترحيب وقد دار الحديث بينهم فلمحت ليونيدة الى

ان اخاها استأجر بيتًا في ستيزرما نصحة ففهم العليل انها انما صنعت ذلك اكرامًا له

لتتمكن من التردد اليه مرارًا فسر سرورًا عظيمًا

وكانت الخادمة قد اعلمت سيدها بسؤال ليونيدة عن نوب خدمتها فعلل الامل

بأنها تزوره خفية بعد نصف الليل فانتظرها الليلة الاولى ولم تأت فتكدر الا انه نام

الليلة التالية منذ الغروب ليتمكن من السهر في اخر الليل

فلما كانت الساعة الاولى بعد منتصف الليل اقبلت الفتاة سرًا فاستقبلتها الخادمة

بالترحاب وبالغت في اكرامها لانها قبضت منها دينارًا ثانيًا ودخلت على سنترمون

فاستيقظ وطفق يشكر لها من عواطف الحب الأكيد وجعل يحقق لها ما عزم عليه من عدم الافتراق عنها كل العمر فوبخته اولاً على مخادعته لها واعلمته بان حزنها بعد تلك الزورة الليلية في قصرها كان شديداً جداً ولاسيما عندما علمت بانهُ مرتبط بالزواج وان لا امل لها به فاستغفرها باكياً ووعدها بالاصلاح فقالت لهُ لو لم تنحل من وثاق الزواج بوفاة امرأتك لكنت اموت اسىً

فصل خامس عشر

تدابير نسائية

لما سمع سنترمون من فم ليونيدة ذكر الموت ارتعش ثم بكى وقال لها : انتِ تموتين وانا احيا كلا لن تموتي ياحشاشتي — كيف لا اموت وقد اتيت ما اتيت ولو لم تنزل الفاجعة بفقد امرأتك لاستحال عليك التكفير عن ذنبك

فجعل سنترمون يتنهد نادماً ويستغفرها مقنعاً اياها بلطيف الكلام انهُ لم يخدعها البتة بل كان يحبها قلبياً وانهُ كان عالماً بان امرأتهُ مولية الى غير ذلك من الحجج اللطيفة التي حسن وقعها في قلب الفتاة فاعربت لهُ انها صفحت عنهُ من صميم الفواد وهي تسأل الله لهُ الشفاء العاجل ثم طفقت ترطب قلبهُ بلطيف الحديث وتخبره عما دبرت من الحيل حتى اقنعت اخاها بالانتقال من كانّ الى سيير بحجة انها اوفق لصحتها وانما قصدت بذلك مجرد الرغبة في التقرب منهُ ليس الا

فاثنى على براعتها وشكر كرم اخلاقها والتمس منها ان تعوده ليليًّا فجاءته الليلة التالية واخذت تطيب خاطره وتوءانسهُ وكذلك فعلت الليلة الثالثة وقد لبثت عنده حتى انشق عمود الفجر فانسلت من حديقة القصر وكان بينها وبين حديقة بيتها ممر ضيق فعبرته برشاقة وفيما هي ملتفتة لقفل الباب اذ رأت منترفيو منتصباً امامها وقد اشهر عليها خنجرًا وكاد يطعنها بهِ لولا ان قفزت عليهِ وامسكت بذراعيهِ وعضت اليد القابضة على المدية عضةً شديدةً حتى وقع الخنجر على الارض فالتقطته واومأت اليهِ ان يتبعها الى البيت فيتفاوضا بما يكون من امره

فانقاد لها صاغراً بعد ذلك العتو حتى اذا وصلت ردهة الاستقبال اضجعت في صدرها وقدمت له كرسياً ليجلس فجلس وكان كالمشدوه لا يدري اهو في يقظة ام في منام فسألها عن جمس اخيها فاجابته هو نائم ولا يجب ان يوقظه احد سحرًا فضلاً عن ان لا حاجة لنا اليه اذ لسنا الا شخصين بقلب واحد

فهبَّ اليها متناظاً بهيئة متهدد لها فقالت له بهدوء ـ عد الى مكانك ولا ترتفع صوتنا كي لا يقوم اخي فينازعك ولا يهب الخدم فيسمعوا ما نقول

ـ اجل هذا غاية متمناي فاني اريد ان ينفضح امرك لدى العموم فاين كنتِ الليلة يالكاع ـ قلت لك اجلس واخفض صوتك والا تركتك وذهبت أفلا تخجل ان تتهدد فتاة ضعيفة

ـ كلا فما انتِ الا امرأة خبيثة فقولي الان اين كنتِ

ـ لا اقول لك الا متى قصصت عليَّ ما صنعت بالمهمة التي انتدبتك اليها

قالت هذا واخذت سيكارة وشرعت تدخنها وكان قد نهاها عن التدخين قبلاً فغضب وقال لها ألم انصحكِ مرارًا بان التدخين يؤذيكِ

ـ دعني من نصائحك فما لي بها حاجة ـ لله ما هذا الجفاء هل انتِ انتِ ليونيدة التي طالما عشقتها نفسي فماذا جرى بك من التغير المشؤوم

ـ اجل تغير مشؤوم .. اما رأيت كيف قابلت فتاة بالسلاح عوض السلام وبالتهدد عوض المؤانسة والتودد ... هل سمع مثل ذلك الا عند هنود اميركا او برابرة افريقيا ... او هذا زيٌّ جديد من الازياء العصرية ...

ـ أحشفًا وسوء كيلة . اتنقضين عهد حبي وتسخرين الان بي

ـ كلا بل لا ازال احبك اكثر من حبك لي فاخبرني ماذا صنعت

ـ اواه اقتحمت الاهوال وغامرت بالحياة و بذلت الاموال وارتكبت القتل والخطف في سبيل حبك وتدعين انك تحبينني اكثر من حبي لك .. اهكذا تكافئين المحبة ... أانت هي ليونيدة ام انا في الحلم

ثم وضع يده على جبهته ولبث هنيهة صامتاً ذاهلاً فأمرَّت اناملها على جبينه ولاطفته

بالكلام قالت : دعنا من العتاب واخبرني الان ماذا جرى على الابنتين

— لقد قضي الامر ونيل الوطر — اين اخذتهما

— الواحدة في انكلترة والاخرى في اميركا

— هل يصعب استرجاعها عندما نشاء ياترى

— الان تريدين استرجاعها بعد ابعادهما

— لعل الحوادث تقضي بذلك فابنك حينئذٍ بما يكون — لم افهم ما تقولين

— ستفهم عما قريب فاعلم انك انت صديقي الوفي وحبيبي المخلص فلا تشك انك تصدّق على كل ما صنعت ودبرت في مدة غيابك

— قولي لي سريعاً ما صنعتِ ولاتخادعيني هذه المرة كما خادعتني في «كان» فحسبي الان انخداعاً — اراكِ قد عدت الى اتهامك لي واساءة ظنك بي وبعض الظن اثم وهذا منهُ

— ما ظني الا صادق في محله وقد راقبتك هذين اليومين انا بنفسي فوجدتك في النهار من اكمل الفتيات المخدرات ادباً واحتشاما اما في الليل فقد خلعت العذار وركبتِ متن الاغترار حتى كدت لا اصدق ما ابصرت عيناي بل ظننتني ارى احلاماً

فصمتت ليونيدة ولم تنبس ببنت شفة فاستأنف منترفيو كلامه وفي قلبه غصة اليمة قال : انا شاهدتك عند الفجر خارجة من هذه الحديقة أفما هي حديقة الكنت سنترمون فماذا كنتِ تصنعين فيها تحت جنح الظلام افهكذا تقابلين حب الذي ذهب في سبيل طاعتكِ الى ارتكاب الموبقات تباً لي ما اتعس حظي بتصديقي هذه المرأة الخداعة

فتلطفت به وقالت لهُ بهدوء ورصانة ارعني السمع ياعزيزي وافهم مقالي فاني بعد سفرك قد انعمت النظر طويلاً ونقبت في خفايا ضميري فوجدت ان داعي الغضب حملنا لاول وهلة على ضرب هذا الرجل بما هو اعز شيء لديه ولكن لما امسيت وحدي خجلت من نفسي واستحييت منك كيف شاء لطفك ان يمنحني عفواً لست لهُ اهلاً وفكرت اني غير مستحقة ان اكون لك زوجاً وقد تولاني هذا الافتكار كل المدة ولم

يفارقني ليل نهار — كذبتِ ياخبيثة كذبتِ

— كلا بل انا صادقة ياعزيزي واكلمك كصديق حميم واحبك حبي لاخي قد قصدت ان لا اقبل عفوك لاني رأيت انك اذا اتخذتني لك امرأة نكدت عيشك وبت كل عمري لديك ذليلة فانت تستطيع ان تجد الف امرأة احسن مني وانا التصق بالذي رضيني له امرأة — فاذًا لم تقصدي موت امرأته واختفاء ابنتيه الا ليكون حرًّا فيتزوجكِ ... اف لكِ من محتالة مختالة

— لا وربك لم يدر في خلدي مثل هذا القصد اذ حينما اعتمدنا خطف الابنتين وكنت في ذا الجرم شريكة لك لم اقصد الا الانتقام ... اما الان ولم يبقَ ما يفرق بيني وبين الكنت سنترمون في حين ان كل شيء مفرق بيني وبينك فهل من اللياقة ان اقبل حبك الكريم كلا ثم كلا ان فيَّ شيئًا يقرنني الى الابد بالذي كان ابا عذرتي ... فلا استطيع الى الانفصال عنهُ سبيلًا

فجمد منترفيو عند استماع هذا الاقرار وكاد يغمى عليه من فرط الاسف الا انهُ وثب فجأة فارتاعت الفتاة وتحولت من وجهه فاتجه الى الباب فعارضته وقالت الى اين ذاهب فاني ارى عينيك تقدحان شررًا ألعلك تفكر في الانتقام أوَلا تدري انك رازح تحت وقر جرم فظيع واني باقل من لمح البصر اشكوك الى الحكومة بانك انت طاعن سنترمون في ليلة المساخر وكان منترفيو قد اعرض عنها في اول الامر ولم يشأ ان يكترث لكلامها لكنهُ لما سمع تهديدها ارتد اليها مرتجفًا وقال كلا ما انا بالذي طعنه بل هو البارون لوران الذي اتهمته الحكومة وقبضت عليه

— قص هذه الخرافة على غيري افلست انت الذي طعنه في وسط الحفلة في حين كان اخي جمس مشتغلًا بنقل الابنتين الى مختك او لم يخبرني اخي انك لحقت سنترمون الى مخزن الثياب حيث اشترى ثوب المساخر القرمزي فأعلمنهُ من وراء حتى تميزه في بهرة الحشد — ومن اقامكِ عليَّ مستنطقًا وماذا حملك على هذا الوعيد — لو لم اوقفك الان لكنت ذهبت الى الجريح توًّا فقذفت عليَّ بما استطعت لالقاء الوحشة بيني وبينهُ

مــا كان في نيتي ان اقذف بك بل قصارى غايتي ان اعود سنترمون واطلعهُ على حقيقة امرك وانبئه بمكان ابنتيــه حتى اسافر معهُ واسلمهما لهُ

ــ ويل لك لو صنعت ذلـك لكنتُ افشيت سرَّك للمدعي العام فيكون نصيبك الحبس بعد ساعة لا محالة فتبسم منترفيو تبسم ازدراء وقال لها اولا تعلمين انك تستطين انتِ ايضــاً في الحفرة التي تحتفرين

ــ العلك تخيفني بهذا التهويل فباي اثم شاركتك ياترى وكيف تثبت اتفــاقي معك فان تجرَّأت ان تتهمني بشيء فانظر ماذا يكون جوابي في الحكمــة (ثم اخذت سيكارة واضطجعت على المقعد واستأنفت كلامها) : ان هذا الرجل ما برح يحــاول الاقتران بي منــذ صبوتي فكنت مضطرة ان اقبل طلابهُ ما دمت قاصرة ولكن لمــا بلغت اشدي رفضتهُ كل الرفض فحنق عليَّ وعــلى الكنت سنترمون الذي كان يحبني فانتقم منهُ والانَّ يلفق عليَّ ما شاء انتقاماً مني . فهل يتسنى للقضاة بعد هذا الكلام ان يصدقوا ادعاءك باني اغريتــك على هاته الجريمة وماذا تكــون حجتك ياترى وهل رافقتك لما ركبتهُ ــ لا بل اخوكِ جمس كان معي

ــ لم يعرف بذلك احد ولا يقدر احد ان يثبت انهُ فارق المشهد ليلة المساخر ولا دقيقة واحدة فأنت وحدك الذي غمس يديه في حمأة الاثم ولذا اولى لك ان ترد سيفك الى غمده وتلبث صامتاً كي لا ينقلب عليك الكــلام وبالاً وان اصغيت الى نصيحتي كنت رابحاً وبقينا اصحاباً اوداء مدى العمر فلا يجب ان تنطق بحرف من هــذا السرّ لاحد البتة لا للكنت سنترمون ولا لغيره ولالاي مخلوق كان

﴿ فصل سادس عشر ﴾

تخليص الفتاة الكبرى

خرج منترفيو من عند ليونيدة متصدع القلب ،منكسر الخاطر يزمجر كالاسد ولكنهُ مغلول اليدين لا يستطيع الى الانتقام سبيلاً وكان يردد هاته العبارة بفؤاد قرحه الاسى « لقد فقــدت كل شيء واضعت كل شيء وصرت مجرماً » وقــد تخلل كلاً من هاته

الفقرات اصعاد الحسرات واسبال عبرات احرّ من الجمرات

على ان فكر الانتقـام لم يبرح من ذهنه ولم يكن ليضيع لحظة دون البحث في الطرق المؤدية اليه عاجلًا او آجلًا حتى لاح لهُ وميض رجاء فطفر جذلاً وقال في نفسه اقوم الى نابولي حيث يكون زفرين بانتظاري فاسترجعه الى لندن واستعيد الفتاة جرمين من عند السيدة برمتون ثم اسافر الى نيويرك فارجع املين من يدي غريك بوك واسلمهما الى زفرين ليردهما الى ابيهما مع كتـاب مغفل الامضاء فيه بيان صريح بان سبب ما جرى كلهُ كان ليونيدة المغرم بهواها ثم اعود الى اميركا حيث اقضي سائر العمر في سعة العيش بعيدًا عن العالم القديم الذي كرهته ومقتُّ نقض ذمام اهله

فسافر الى نابولي وانطلق الى البحر توًّا وفتش عن يخته في الثغر فلم يجده فاستشاط غضبًا على زفرين لانهُ لم يطع امره وظن انه التهى بالسكر والفحش في جنوا فآثر البقاء فيها حتى تنفد من يده الدراهم لكنهُ خاف ايضًا ان يكون قد زلق في كلامه فقبضت عليه الحكومة فطير اليه على جنـاح البرق رسالة يقول لهُ فيها « ان كنت لم تخرج من جنوا فابقَ فيها ريثما اجيء وجاوبني تلغرافيًا» فلم يرد لهُ جواب الا من خادم اليخت يقول « انا باقٍ في اليخت وحـدي لان غريك وزفرين لم يرجعا منذ يوم سفركم ومحتاج الى دراهم »

فاضطرب منترفيو عند اخذ الجواب وجعل يضرب في فيـافي الافتكار في ما عسى ان يكون زفرين قد صنع فتارة كانت نفسهُ تحدثهُ بانهُ لما رأى في يده ثلثة الاف فرنك نسي العهد والذمة واندفع يتمرغ في حمأة الرذائل في لندن لا يخاف عليه رقيبًا وانهُ لا بد ان يعود اليه يومًا ذليلًا صاغرًا فيؤدبه تأديبًا وطورًا كان يظن انهُ اخذ الدراهم وضرب في الارض يبتغي الرزق حرًّا وحينًا كان يتوقع سقوطه في مصيبة او داهية

اما زفرين فبعد ان سافر مولاه من لندن تحفز ليرحل منها هو ايضـًا فوجد ان في قلبه عاطفة سرية تدفعهُ الى الثبوت فيها وكان يناجي ضميره فيجزه وخزًا اشد من وقع الاسنة لتضييع فرصة كان يقـدر فيها ان يخلص فتاة انتقش في قلبه حبها فجعل يتجول في الاسواق هائمًا في هاته الهواجس مترددًا الى الحانات لقتل الزمان وتفريج

الكروب والاحزان حتى اداه به المسير يوماً الى الشارع للذي فيه قتل السيدة بمتون ولما دنا من الباب رأى رجلين يحملان تابوتاً صغيراً فهاجت في صدره عاطفة الحنو واشفق ان يكون في التابوت جثة جومين فقفز اليها واستوقفه ووضع يده على التابوت وقال لهما بالفرنسية أفيه صبي ام بنت فلم يفهما كلامه ولم يكترثا اليه بل سار ومشى وراءهما القس الى المقبرة فاطل من الباب فشاهد السيدة بمتون مكشرة فقالت له « ليست هي ليست هي » واقفلت في وجهه الباب

فجعل يدمدم ويحمحم ويدفي ويزبد قائلاً هذه ولا شك آخرة تلك النعجة اللطيفة التي ضممتها الى صدري اياماً فصرت احبها كانها فلذة من كبدي وصارت تحبني كانها ولدي تباً لي كيف سلمتها الى هذه الذئبة الكاسرة التي لا تشفق ولا ترحم لقد قبضت الفي فرنك معجلة وتخاف ان لا يؤدى لها غيرها فلا يهمها عاشت ام ماتت كلا لن يكون هذا. والله لآخذنّ الفتاة طوعاً او كرهاً واربيها واستغني عن ظالمها الاثيم والله الرزاق الكريم

ثم قرع باب النزل ففتحت الخادمة فأمرها ان تدعو مولاتها فلما حضرت على عادتها من التيه والكبرياء قابلها بالمثل من حيث الصلف والجفاء وقال لها يجب ان تردي لي البنت حالاً

ــ هذا لا يعنيك ما انت الا خادم ومأمور

ــ اقول لك يجب ان ترديها لي على الفور والا خطفتها وملأت شوارع لندن من قبائحكِ فانك جاعلة تركك مصيدة لاقتناص صغار الاطفال على شاكلة دهليز يمرون به الى القبر ولم تخشي رقيباً ولا وشياً لان الاشياء تجري هنا تحت طي الخفاء فلافشينّ اسرارك واهتكن اخبارك وانقضنّ داركِ واجعلنك عبرة للعالمين

فارتعدت المرأة من هذا الوعيد وتلعثم لسانها وكادت تسلمهُ الفتاة الا انها قالت له بجراءة ماذا اجيب اولياءها اذا سألوني عنها ــ انا هو وليها وحدي

ــ لكن يجب ان تعلم ان الشرط بيننا ان الفي الفرنك المدفوعة سلفاً يجب ان تبقى للمحل ولا ترد البتة

ــ لسنا نختلف بشأن الدراهم فاسرعي بالفتاة ونحن نتفق على ما تريدين وفي الوصل الذي اعطيتني لم تذكري الاَّ شرط الموت اما اذا كان اولياء البنت ياخذونهـا قبل . تمام السنة فلهم حق بمطالبتك بمقدار المدة لكني انا كريم فيكفيني استرجاع البنت ولا اجادلك في الدراهم فلتبقَ لكِ حلالاً

فانبسطت المرأة لهذا الكلام على انها ارادت ان تتردد خوف ان يكون هـذا خداعاً وان يكون للبنت قصة فلعل من ورائها مالاً جزيلاً فاحمرَّت عين زفرين ونظر اليها نظرة الغضوب والقى يده الغليظة على ركبتها وضغطها فارتاعت وقامت من كرسيها فقال لها اولى لكِ ان تسلميني الفتاة طوعاً والاَّ اخذتها قسراً

فلم تجد برمتون مناصاً من الرضوخ لامره وامرت الخادمة فجاءت بالفتاة جومين .بثياب قذرة وسخة وعينين جاحظتين وجسم ضئيـل حتى لم يستطع زفرين ان يميزها اماهي فلما لمحته هرعت اليه وانطرحت على صدره وجعلت تقبله وترجوه ان يخلصها من هذا الجحيم حيث يضربونها ويجوعونها ويسيئون معاملتها ولها رفيقات سليطات رديئات فكذبتها برمتون وقالت انها مستحقة التأديب

فاحتملها زفرين وترل بها الى الشارع حيث استأجر لها عجلة ووضعها فيهـا تحت حراسة الحوذي الذي امره بالانتظار ثم عاد الى السيدة برمتون وطلب مواجهتها ثانية فجاءت خائفة فقال لها اريني السجل المكتوب فيه اسم الفتـاة فامتنعت فشدد الطلب ففتحته فوجد تاريخ يوم دخولهـا واما تاريخ خروجها فلم يذكر عنه شيء فامرها ان تكتب في المحل الفارغ « ماتت »

فشزرته برمتون كانها تتهمهُ بالخادعة فقال لها دونك الف فرنك فاكتبي بيدك « ماتت في هذا النهـار » فلما ابرق الذهب اعمى بصرها فتلقفت الدراهم وكتبت كما شاء فودعها وخرج مسروراً

فعاد زفرين الى العجـلة التي سارت تنهب الارض نهباً وفي اثناء الطريق كان يداعب الفتاة ويحملها على منكبيه ويقبلها ويضمها الى صدره كأنها ولده وهي مبتهجة فرحاً بلقياه كأنه والدها وقد رأت وهي في حضنه انها انتقلت من الجحيم الى النعيم

﴿ فصل سابع عشر ﴾

محاولة منترفيو في استرجاع الاثنتين

بعد خروج زفرين بالفتاة جرمين جلست السيدة برمتون تفكر في ما جرى واخرجت ورقة الالف الفرنك التي قبضتها اخيرًا لتفحصها خوف ان تكون زائفة ولما وجدتها صحيحة كادت لا تصدق عينيها وقفزت من وفرة فرحها وطفقت تمشي في الارض مرحًا لتمكنها من ربح ثلثة الاف فرنك في مدى اسبوعين لا غير لكنها لشدة طمعها اخذت تناجي نفسها وتقول ليتني ماطلت قليلًا لعل غير هذا الجلف ينفحني كمًا اوفر من المال

ولبثت تنازعها هذه الافكار ثلثة ايام فلما كان صباح اليوم الرابع انبأتها الخادمة بقدوم رجل جليل القدر يطلب مواجهتها فادخلتهُ وسألتهُ عن غرضه فقال لها ارجوكِ ياسيدتي ان تسلميني البنية جرمين التي فوضت اليكِ تربيتها من نحو خمسة عشر يومًا

فارتجت برمتون كأنَّ صاعقة انقضت عليها وقرعت سن الندم متأوهة لفوات هذه الفرصة الثمينة التي كانت قد استدركتها فظن منترفيو انها متأسفة على اخراج هذه الفتاة عاجلًا وخسارة شيء من اجرتها فقال لها قبل ان تجاوبه : لا اشك انها بوجودها عندكِ تكون مستريحة راضية الاَّ اني عوَّلت على اخراجها بسبب رطوبة هواء لندن ولا تخافي ان اطالبك بالمبلغ الذي ارسلته لكِ كله بل يكفي ان تردي لي منهُ الف فرنك فقط

وكانت برمتون الى حين سماع العبارة الاخيرة مترددة في افشاء امر زفرين لكن منترفيو بسبب طمعه بالمال خسر كل أمل بالوقوف على الحقيقة وقد ايقنت برمتون انها لن تنال من زائرها فلسًا جديدًا فآثرت ان تحفظ سرَّ ذلك الجلف الذي كان معها كريمًا ولذا نشرت منديلها لمسح العبرات القاصدة ان تذرفها وشرعت في تمثيل روايتها قالت :

بالصواب نطقت ياسيدي وان خوفك واقع موقعه بشأن هواء لندن ... لله در تلك الفتية المحبوبة والدرة المكنونة كم كانت لطيفة انيسة وديعة ... اوَّاه ما كان اقسى قلب الذي نقلها في حداثة سنها من ارياف البحر المتوسط النضرة وزجها في ظلمات الضباب في لندن حقًا ان ذلك قد فتت مني الفؤاد وقد قلتهُ للرجل الذي جاءني بها

فارتجف منترفيو عندما سمع منهـا انها عارفة باصل وطن الفتاة وقال في نفسه انها ولا شك لم تفهم ذلك الا من لسان جرمين وخاف ان تكون الفتاة قد افشت غير ذلك من الاسرار فتاه في بيداء الافكار وفقد كل ما اشتهر به من الذكاء والفطنة حتى صدق هذه الرواية بلا اعتراض

فاستأنفت السيدة برمتون كلامها وكانت قد توقفت عنه لتظاهرها بالبكاء قالت : انت تعرف ياسيدي ان الله علمنا ان نقبل مصائبنا بشكر ونباركه مهما اشتدت الرزايا . فتأكد يامولاي اني وحياتك قد عنيت بها عناية ام بولدها لكن ما العمل وقد اثر فيها البرد بعد الحر عقيب انتقال سريع وقد جلست على سريرها لم افارقها لا ليل ولا نهار وكان الطبيب يعودها في اليوم مرتين ولم نبخل عليها باعز الادوية

ثم توقفت ايضاً وعصرت عينيها حتى اخرجت منهما قطرتين من الدمع ثم فتحت السجل وأرته اياه وقالت «منذ ثلاثة ايام»

فلما وقعت عينه على لفظة « ماتت »اقشعر بدنهُ اقشعراراً وقد وخزه ضميره وخزات شديدة احد من السهام ولبث جامداً متنطر المرارة من فرط الاهتمام وكان يتصور نفسه قابضاً على عنقها والمدية في يده يذبحها بها

فقالت لهُ برمتون انهـا قضت يوما كاملًا متقلبة على سهـاد النزع وهي في حضني وانا انظر اليهـا وقلبي يذوب معها حتى فاضت روحهـا وطارت الى الملائكة : أفترى ان تجشم مثل هذا العناء الطويل لايؤاتي امي وربك . . .

فاكتفى منترفيو وقام الى الباب منكسر القلب غير مطالب بشيء وذهب الى منزله حزيناً لا لفقد الفتاة بل لفوات فرصة عزيزة للانتقام من ليونيدة واخذ من ثم يفكر في الانتحار اذ لم يجد بعد ذلك الذلّ للحياة لذة

على انهُ ذكر الفتـاة الصغرى امابين فقال ومن يدري ان كان غريك يورك لا يطمع بالخمسة والعشرين الف فرنك فيقتل الفتاة ويهرب بالمال فعوّل على السفر الى امريكا سريعاً لا نتشالها من ذلك الوحش قبـل فوات الوقت

فقضى ذلك النهـار في التفتيش عن زفرين في شوارع لندن بين الحانات فكان

اصحابها يخبرونه انهُ كثيرًا ما تردد اليهــا لشرب المسكرات فقال لا بد ان تفرغ يده من المال فيعود اليَّ ذليلًا فاؤدبهُ تأديبًا

وفي اليوم التــالي سافر الى نيويرك فقضى في البحر خمسة ايام خالها خمسة اعوام لم يفتر في خلالها من اجهاد القريحة في تذكر المكان الذي كان يختــه راسيًا فيه في ثغر نيويرك يوم انطرح غريك في البحر والجهة التي كان الشعب قادمًا منهــا سعيًا وراءه والحلة التي كان غريك ساكنًا فيهــا مع امرأته وقد تصوَّر انهُ سيهتدي اليه بلا عناء نهار وصوله

فلما حطت السفينة في ثغر نيويرك بادر منترفيو الى المصرف الذي ارسل اليــه التحويل بالف ليرة لامر غريك ومــا كاد يسأل امين الصندوق عنهُ حتى اخــبره بان الذي قبضهُ هو رجل غليظ يكاد يكون نوتيًا بثياب تاجر وعلى ذراعيه فتية نحيفة

فايقن منترفيو ان صاحبهُ وصل بالبنت حية فهرع الى الحلة التي فيها بيتهُ وقعد على قارعة الطريق ساعتين يتعهد الداخل والخارج فلم يهتدِ الى المطلوب فتجرأ حينئذٍ وتوغل في داخل الحلة فوجد بعض عجائز يتبادلنَ الحديث فسلم عليهن وســألهنَّ عن امرأة غريك فتقدمن اليه كلهن مندهلات واخبرنهُ انها ماتت من زمان طويل اثر سوء معاملة زوجها لها من ضرب وتجويع وتجريع غصص مرَّة وكان لها ولد فاخذت الحكومة تربيه على نفقتها مع الاولاد الفقراء

فارتعد منترفيو ولبث شاخصــا في العجائز فاستأنفن كلامهن قلنَ : ومن الغريب ان غريك الذي كنــا نظن انهُ مات غرقًا في البحر قد عاد من نحو اسبوعــين يسأل عن امرأته وجيوبه ملأى بالذهب وعلى صدره طفلة بديعة يظن انها ولدت له من بغيٍ فتحقق منترفيو حينئذٍ ان غريك اتمَّ امره مدققًا واراد مساكنة امرأته ولكن لما رأى انها ماتت خاف ان تهتدي اليــه الحكومة فتوارى عن الابصــار في اميركا الشاسعة الامصار وصار من المستحيل اكتشافه في قطر من الاقطار

فعاد منترفيو بخفي حنين وقد ضاقت الدنيــا في وجهه ولم يدرِ ماذا يصنع فقد حتى على نفسه ليفقد عبده وحطة الابنتين من حضن امهما لكي يفقد تلك الحادثة

التي نقضت ذمامهُ وكان يؤمل بالانتقام منها فخاب الامل فاشتدت عليه الغموم وتنازعتهُ الهموم حتى ابتلاه السقام واعترتهُ الحمى عدة ايام

فصل ثامن عشر

محاكمة البارون لوران

لما قبض على البارون لوران في باريس متهماً بمحاولة قتل صهره ارسلتهُ الحكومة مخفورًا الى نيس حيث القي في السجن ليحاكم فيها في اليوم المضروب للجلسة فتبعتهُ امرأته واستأجرت منزلاً بقرب سجنه لتهتم باكله وتعتني بكل لوازمه عناية المرأة الفاضلة برب بيتها

اما القوم في نيس فكانوا لا يتحدثون الا بهذه المسألة ولا يلهجون الا بالمحاكمة وكانوا يرغبون باسرهم ان يحضروا تلك الجلسة وقد اعدوا لهم في ساحة المحكمة مقاعد قبل عدة ايام حتى امتلأت ولم يبقَ لاحد محل فصارت الكراسي المأخوذة تباع وتشترى كالسلع فارتفعت اجورها ارتفاعاً فاحشاً وصل بها الى عشرين ليرة اجرة الكرسي الواحد

وكان من جملة المستعدين لحضور المحاكمة الاميرة زامركو وبصحبتها ليونيدة واخوها جمس باركلاي ومنترفيو الذي كان قد عاد من نيويرك وقد وخطه الشيب حتى خيل انه تقدم في العمر عشر سنين لما قاسى من مضض الاكدار وغصص الدهر بخيبة امله من الاثار فضلًا عن ان الحمى كانت قد انهكته في نيويرك اياماً فلما عاد اغضى عن القذى وتظاهر بالتودد نحو ليونيدة كأن لم يكن شيء

فلما كان الاجل المعهود غصت باحة المحكمة واروقتها السفلى والعليا بخلق كثير فجلس القضاة على كراسيهم وجيء بالبارون لوران منقبض الوجه لكن ساكن البال رابط الجاش كانه امين من برارته وهو متحمل بلبته بشكر كما تحملتها امرأته بصبر جميل وقد ايقنا كلاهما ان الحكومة وان ضلت حيناً فلا تضل دهرًا ولا بد ان ينكشف وجه الحق يوماً

فشرع رئيس المحكمة باستنطاقه واتهامه اولاً باتيان الخلل في ادارة اعماله

التجارية ومد يده الى الامانات الموتمن عليها ولاسيا الملايين الثلاثة خاصة ابنتي اخته

فانكر البارون هذه التهمة كل الانكار واعلن ان محله التجاري قد اصابته ازمة مالية من افلاس بعض البيوتات التجارية كما اصابت كثيرًا غيره لكن لو لم توقفه الحكومة لكان واصل اشغاله واصلح ذلك الخلل بالحكمة

فاخذ الرئيس يقص على رصفائه القضاة اعضاء المحكمة خلاصة حياته التجارية قال: كان هذا الرجل منتهجًا نهج الاستقامة وحسن المعاملة في السنين الاولى التي تولى فيها ادارة المصرف الذي كان لوالده فاكتسب منه ارباحًا عادلة ولبث على هذه الحال مستقيمًا الى ان فوض اليه الوكالة على مال ابنتي اخته فتغير فجأة وساءت حاله

فصحح البارون كلام الرئيس وقال: اني كنت ولا ازال جاريًا مجرى الصدق والاستقامة اما المال المحبوس على ابنتي اختي فهو وصاة من عمتي كانت تريد تخصيصها بشقيقتي لكن هذه تزوجت برجل سيء السيرة خلافًا لرضاها ورضاي فخافت ان يتلف المال فحولت عمتي الوصاة الى الابنتين على شرط ان يبقى المال عندي واعطي ابويهما ريعه الى ان تبلغا اشدهما فارده لهما تامًا وقدره ثلثة ملايين فرنك

فلم يلتفت الرئيس الى هذا الكلام بل استأنف ايضاحه قال: ان احوال البارون لوران التجارية قد اخذت تتضعضع منذ سنتين نعم لم يكن ذلك كله بذنبه لانه خسر مالاً جزيلًا بافلاس بعض التجار لكن لم يكن بريأً من اللوم لانهُ اندفع في المضاربات التجارية وانكب على اعمال البورصة فاضاع قسمًا كبيرًا من ماله فعوضًا عن الارتداع عن هذه الاعمال الخطرة مد يده الى مال الابنتين القاصرتين وجعل يتصرف به كيف شاء فاضاع منهُ نحو نصف مليون ولو لم تأتِ هاته الحادثة فتضع لذلك حدًا ولو لم تستولِ الحكومة والحالة هذه على ذلك المال لكانت الخسارة ابلغ وافظع ... وهوذا اوراق الدعوى تنطق باتهامك ايها البارون بانك قتلت الكنت سنترمون لانهُ طالبك بمال ابنتيه

اما البارون فكان قد احنى رأسه خجلًا عند ذكر تضعضع اعماله وحزنًا على سوء حاله لكن لما وجه اليه الرئيس التهمة الاخيرة رفع رأسهُ وقال مدافعًا عن نفسه: كنت

دائماً محرزًا تام الحرية في ادارة مال الابنتين ولم يكن عليّ الا ان أؤدي ريعه لاهلها واجهزه يوم بلوغهما اشدهما وقد قمت بذلك خير قيام .. فلما بدت افلاسات بعض البيوتات التجارية فجأة واضطررت الى اداء قسم كبير من المال لم اكن مديونًا به بل كافلًا له استعنت بشيء من الوديعة ولكن بقصد رده في اول فرصة وبرهانًا لذلك عندما طلبت الحكومة مني تلك الوديعة أفلم أؤدِ لها ثلثة ملايين فرنك كاملة

فاجابهُ الرئيس : هذا صحيح ولكن لم تكن تستطيع ان تصنع ذلك لو لم تبع عقارًا لامرأتك التي لو أبت عليك بيعهُ ... — انا وامرأتي واحد

— هبْ ذلك صحيحًا ولكن لا بد لنا ان نشهد انك لولا محبة امرأتك لك لكنت عاجزًا عن اداء الوديعة وكنت تحت طائلة التهمة بانتهاك حرمة الامانة . والان انت على جرف الافلاس ولا تمضي ايام قليلة الا وانت في هاويته

— لو لم توقفني الحكومة لكنت اتخذت التحوطات دفعًا للافلاس

— هذا ليس من بحثنا الان اما الشيء الذي نعلمهُ فهو انك في حين ارتباكك بهاته الازمة جئت الى سيبز ونازعت اختك لتفترق عن زوجها

— لم افعل ذلك الاَّ لان صهري كان سالكًا في طرق الفساد مسلكًا ذميمًا حتى انهُ في ليلة ذلك الحادث لم يرقد في بيته — ما هذا بسبب كافٍ لازعاج راحة الزوجين لان اكثر الرجال في هـذا العصر على هاته الخطة سالكون والنساء يغضضن عنهم الطرف مسامحات فكان اولى لك ان تنصح صهرك على حدة لان تثير عوامل الغيرة في صدر شقيقتك ومن المقرر لدينا ان الكنت سنترمون ولئن لم يكن امينًا على عهد الزيجة فقد كان حسن السيرة مع امرأته لطيف المعاشرة محبًا لهـا ورغمًا عن اشتداد النزاع بينك وبينهُ يومئذ حتى أدى به الى طردك من بيته بلغنا انهُ قضى سائر النهار على احسن ما يرام من الوفاق مع زوجه واولاده ولم يفارقهم الا بعد الظهر بساعتين حين ذهب الى نيس للاجتماع ببعض اصحابه لا لملاقاة احدى معشوقاته كما اتهموه ثم عاد المساء الى البيت ليذهب الى نيس لشهود حفلة المساخر ففي هاته الساعة انطلقت انت الى سيبز

— نعم — وشاهدت صهرك نازلاً من العجلة — كلا

— سبيلك انت ان تنكر امـا نحن فنواصل البحث عن الحقيقة فانك تتبعت صهرك من وراء وراء الى المخزن الـذي استأجر منهُ ثوباً يلبسه تلك الليلـة ولست تستطيع ان تنكر انك ذهبت يومئذ الى ذلك المخزن

— ذهبت ولكن لم اجتمـع بصهري وقتئذ وكان المخزن مكتظاً بالخلق

— انك انتهزت الفرصـة لتنظر اي ثوب يستأجره صهرك ولما لبسه أعلمتهُ بثلاثة حروق من وراء حتى تستطيع ان تميزه بين الحشد الكثير في الموكب

— من المحال اتهـامي بهذا الجرم في حين لم يكن معي سلاح

— لقـد كنت احذق من ان تظهر سلاحك فقد اخفيتهُ حتى استحال على رجال الدرك كشفهُ الا انك لوفرة دهائك قد التقطت من تحت الجريح خنجراً كان لشقيقتك واريتهُ لرئيس الشرطة حتى توهم انهـا هي الطاعنة لهُ في ساعة غضبها غيرةً منهُ

— لله ماهذه التهمة الفظيعة واشقيقتاه — وفي هذا الوقت عينـه ارسلت شريكك في الجريمة الذي عبثاً حاولنا البحث عنهُ فلم نقف لهُ على اثر الى سميز حيث دفع الى امرأة الكنت سنترمون كتاباً مغفل التوقيع مكرراً الشكوى التي بدت منك في الصباح نفسه

فلما سمع البارون لفظة شريك بالجرم ابتسم ابتسامة ساخر مزدرٍ ثم صرف اسنانه وقال « يالجنون كل هـذا جنون » ثم لبث صامتاً لا ينطق الا ببعض الفاظ مفردة في حين كان رئيس المحكمـة مواصلاً سرد سائر الحوادث الجارية تلك الليلة حتى مل الجميع من اسهاب الدعوى وتفاصيلها

ثم جيء بعدة شهود من خدام الكنت سنترمون وصاحب مخزن الثيـاب وغير اشخاص ولدى استنطاقهم واحداً واحدا لم يظهر من اجوبتهم ادنى شيء يمس البارون بسوء حتى وصل الكنت سنترمون وكان قد برئ من جرحه لكنهُ كان ضئيـلاً ممتقع الوجه فاشرأبت اليه الاعناق واركن الجميع الى الهدو كأنَّ على رؤوسهم الطير

فطارحه الرئيس عدة اسئلة لا طائل تحتها لم يظهر منها ادنى شبهة ببراءة البارون

ولما اعلن له الرئيس ان ابن حميه متهم بالجريمة عارضهُ بشهامة تقتضيها الذمة والمروءة قال « لقد انخدع الجميع في البحث عن الحقيقة حتى الحكومة نفسها لم تهتدِ الى اثر منها فرغماً عما بيني وبين ابن حمي من النفور والخصام لا اظن البتة بانهُ مجرم ولا يمكن ان يقترف هذه المنكرات وكفاه ذنباً انهُ أثار غيرة زوجي المأسوف عليها (وهنا مسح عبراته ثم قال) وها انا ذا اشهد امام الله واقسم بشرفي انهُ براء من جريمة محاولة قتلي في وسط المشهد في ليلة المساخر ومن فظيعة خطف ابنتيَّ ... اواه اين هما ابنتاي وحشاشة قلبي »

ـــ فان كنت تبرّىء ابن حميك من هاتين الجريمتين أفلا تتهم احداً او تظن باحد انهُ فاعل لهما لتعاون الحكومة على كشفهما

ـــ لقد امعنت النظر طويلاً فلم اجد لي عدوّاً ولا اتذكر اني اغضبت احداً عليَّ فاظن بل اوكد ان الضارب قد انخدع بي وكان يريد غيري فضربني سهوّاً لانه استحال عليه تمييز عدوه في بهرة ذلك الحشد العظيم

ـــ يمكن أنى اتت تلك الحروق في طيلسانك على شكل زاوية

ـــ قد يمكن ان يكون ذلك من شعلة لفائف التبغ وكان المدخنون حينئذٍ مئات عديدة ـــ فان كان طعنك قد صار سهوّاً فلا يمكن ان يكون خطف ابنتيك قد تم كذلك

ـــ واحسرتاه اني على يقين ان فاعل الجريمتين ليس بواحد ولا علاقة للواحدة بالاخرى لان الرجل الذي حمل الكتاب الى امرأتي لو كان عارفاً بما يجري لي في ليلة المساخر لما كان اخبرها بموضعي الحقيقي بل لكان دلها الى مكان اخر فلا خلاف والحالة هذه بان مقترف الجريمة الاولى هو غير مقترف الثانية واني معتقد ان خطف ابنتيَّ انما كان من بعض قطاع الطرق الذين اتخذوا خطف الناس حرفة لينالوا عنها الفدية العظيمة من المال لكن لما سمعوا باني طعنت في تلك الليلة خافوا من اظهارها لئلا يتهموا بانهم هم الذين حاولوا قتلي ولذا سأنشر في الجرائد اني اسامح اولئك الخطفة ولا احاكمهم البتة واني مستعد لادفع كل ما يطلبون من المال لافتداء ابنتيَّ العزيزتين

[illegible] يلفظ [illegible] البـــاردون لوران من كلام [illegible] [illegible] [illegible]
بالصدق رغماً عمـا بينهما من الفتور فاجابة انه لم يفعل الا ما اضطره اليه الواجب

ثم استأذن الكنت بالانصراف بحجة وهن صحتـــه فخرج وجيء بامرأة لوران لاستنطاقها فدخلت بقلب جريء كأنهـــا واثقة بان القضاة لا يحكـــمون الا بالعدل فسألها الرئيس ان تقص ما تعلم من حوادث ليلة المساخر

فتنهدت وقالت : لقـــد كان ذلك اليوم من اسوإ الايام لان زوجي عاد صباحاً من بيت شقيقته مغموماً وقضى كل نهاره كاسف البال حتى جاء المساء فالححت عليه ان يأخذني الى موكب المســـاخر تفريجاً لكدره

فقال لها الرئيس : لكن قبل ان يذهب الى الموكب قد غاب عنك نحو الساعة

— نعم من عادته بعد العشاء ان يدخن سيكارة خارج البيت ترويحاً للنفس

فغمز الرئيس سائر الاعضاء استلفاتاً لهم الى ذلك التعيب نحو الساعة واشار الى المرأة ان تستأنف الحديث فقالت : لما عاد من نزهتـــه كان منشرح الصدر ساكن الجأش فمن المستحيل ان يكون في تلك البرهة القصيرة قد ابرم تلك المكيدة على صهره

— لكن بعد ان ذهبتا الى المشهد غاب عنكِ ايضاً نحو ربع ساعة

— نعم كان ازدحام الحشد عظيماً ولا اعلم كيف افترق عني بعض دقائق

— ألم تحتمعي بزوجك الا بجانب برج الجرم

فاحنت رأسها لان لسانها اعتقل عندما شاهدت ان قرائن الحـــادثة تؤيد التهمة وكان الرئيس قد استلفت انظار القضـــاة مرتين ثم قال للمرأة حسبنا الان فقد سمعنا ما كنا نحب ان نسمع فانتصبت وصرخت من صميم فؤادها « انهُ بريء بريء اقسم لكم انهُ بريء » ثم اطرحت على المقعـــد وقد اغمي عليها

فاعلن الرئيس توقيف الجلسة وتأجيلها الى اليوم التالي

فلما انفضت الجلسة ابتدأ النـــاس يخطون في بوادي الحدس والتخمين بشأن نتيجة المحاكمة وذهب كل منهم في ذلك مذهبا حتى ان المقـــامرين قد ابرموا عـــدة مراهنات ولم يكن حديث القوم تلك الليلة الا في هذا وقد عيل صبرهم في انتظار

للنهار المقبل ليجتلوا صبح النتيجة

اما الاميرة زامركو فكانت اشدهم اشتيـاقاً الى الوقوف على الحكم وكانت تسأل كلّاً من زوارها رأيهُ فلما سألت ليونيدة ارتأت ان البـارون لوران يبرأ وسألت منترفيو فتردد اولاً عن الجواب ولما ألحت عليهِ ارتأى رأي ليونيدة بحجة ان لم يوجد في اجوبتهِ ادنى شيء يؤيد اثبـات التهمة عليه وانمـا قال ذلك لانهُ كان يحب ان تبرأ ساحتهُ كي لا يتحمل عبء وزرٍ جديد باهلاك هذا البارون المسكين

فلما كان اليوم التالي اقبل الناس الى المحكمة افواجاً وقد ظنوا ان الجلسة تطول فاخذوا موءونتهم من النقل والحلوى وبعض المسكرات

ولما انتظم عقد المجلس جاء البـارون وعلى وجهـه امارات السكون والاطمئنان لائحة كأن قلبهُ النقي دلهُ ان الحق يعلو فلابد من فوزه بالتبرئة خلافاً للمجرمين الذين حينما يستدعون للجلســة الاخيرة يتولاهم الخوف والرعب وتمتقع وجوههم وتبـدو عليها علائم السهاد لعدم الفة الكرى لعيونهم تلك الليلة

وقد اعتاد القضــاة ان يحققوا كثيراً من التهم بمجرد النظر الى هيئة المتهم عند حضوره الجلســة الاخيرة فلذا كان سكون جأش البارون سبباً لاقناعهم ببرارته فقـام المدعي العمومي وقرأ خـلاصة ما يدعى بهِ على البارون فانتصب المحامي وشرع يبسط الحجج والادلة الدامغة درءاً للتهمة واثباتاً للبراءة فكان لكلامه وقع عظيم في القلوب فدخل الاعضاء لغرفة المذاكرة بضع دقائق ثم عادوا فاعلن الرئيس براءة البـارون فلم ينطق لوران الا بكلمة الشكر ثم سقط مغمى عليه من شدة الفرح

فاقبلت عليه امرأتهُ مبتهجة ونادتهُ فافاق وانتعش لمرآها وقال لها هيا بنا لمشاهدة ولدنا هوبر ثم خرجا يخترقان صفوف الحشد الذي كان بينهمـا وكانا يسمعان على جانبهما لغط المتقامرين يتنازعون بسبب دعواهمـا والرابحون يتقاضون من الخاسرين رهونهم

وفيما كانت الاميرة زامركو عائدة في عجلتها مع ليونيدة الى قصرها دعت منترفيو ليرافقها فلبى الدعوة وقد لاحظ لاول مرة بعض تغير في وجه ليونيدة وقامتهـا فتحقق انها حامل وانهُ خسرها للابد فحنق حنقاً شديداً على انهُ كظم غيظهُ ولسـان قلبه

يناجيها : تبًّا لكِ ياشقيقــة ما اشد كيدكِ فانكِ ارضاء لهواكِ قد عجلتِ موت عليلة وسببتِ موت او اخفاء ابنيهـا وخربتِ بيت رجل كريم لان البارون لوران المسكين لم يتملص من تهمـة الحكومة الا ليقع في ورطة جديدة ورطة الافلاس تعسـا لكِ ياغادرة فقد اكرهتني على ركوب المعاصي والجرائم بغير جدوى ولكن سانتقم منكِ ولآخذنَّ بثأري وثأر جميع ضحاياكِ ولاصبرنَّ عـلى انفضا ولو عشرين سنة ولكن لابدَّ من ساعةٍ تأتيكِ وان غدًا لناظره قريب

﴿ فصل تاسع عشر ﴾

بعد عرس ليونيدة

ما برحت ليونيدة تعود حبيبها العليل تغدو وتروح الى بيته حتى شفي وكان يود لو تملص من اسر حبها لكنها خلبته واكرهته ان يزفها اليه عاجلا فعقد له عليها وانفرد معها معتزلاً عشرة العالم ثلاث سنين اجتنيا في خلالها ثمار الانس دانيـة القطوف وقد ولد لهما صبي بعد الزفاف ببضعة اشهر فتم للعروس سعدها ورقص لها دهرها

الا ان سنترمون الذي اعتاد معاشرة الظرفاء ومؤانسـة الاوانس قد سئم العزلة كل تلك المدة ومالت نفسـه الى اللهو وشهود المراقص والمحافل واول مرقص شهده مع عروسه بعد تلك الخـلوة كان المرقص البديع الذي عملته الاميرة زامركو ايام المرافع ودعت اليه كثيرًا من لطفاء الاكابر واجمل المخدرات

فلما دخل سنترمون مع عروسه اندهش المدعون من ذلك الجمال الرائع والقـد الاهيف واقبـلوا يهنئونهما مرحبين بهما وكان بينهم منـترفيو فنغص لفقده تلك الجوهرة اليتيمـة ولكن طوى كدره ونشر على محياه البشاشة فصـافح العروس بيدها وهنأها وطلب منهـا فعرفته ببعلها الذي تلطف به وعقد معهُ ربط صداقة متينة حتى ان سنترمون دعاه لزيارته في قصره فوعده وهذا غاية ما كان يتمنى

وكان لمرقص الاميرة زامركو رنة في الجرائد الباريسية التي وصفت الحفلة واطنبت بيها ليونيدة وجمال ملابسها حتى شوّقت جميع معدي المراقص ان يدعوها مع بعلها

الى سهرات المراقص ومراقصها العديدة وقد سرّا كلاهما ورغبا في تلبية الدعوات لانهما انفا من الانفراد لكن ليونيدة ندمت على فتح هذا الباب الذي يؤدي بزوجها الى التطوح في العشرات ويدفعهُ الى سلوك غير سبيل الرشاد عائدًا الى ما كان عليه ايام زوجه الاولى من الانغماس في الملاهي والمنكرات

وقد صدق ظنها فان اصحاب سنترمون ما كادوا يعلمون من انباء الصحف انه خرج من خلوته حتى اقبلوا عليه اقبال الظمآن على الماء واخذوا يتنازعون استمالتهُ الى الالعاب والمتنزهات فاضطرّ من باب الحياء ان ينجذب معهم وجعل يقضي الجانب الاكبر من النهار بعيدًا عن عروسه التي كانت تلتهي عنهُ بمداعبة ابنها ارثور

وكان منترفيو اجابة لدعوة سنترمون قد غشي قصره مرارًا فاتفق لهُ يومًا انه صادف ليونيدة وحدها في الحديقة تلاعب ولدها فخاطبها قبل السلام بهذا الكلام :

ما اسعد حظي اليوم بمصادفتك وحدك ذلك ما . . . لما كنت اتمناهّ واليه تتوق نفسي وقد شاهدت هذا الصباح زوجك مسافرًا للاجتماع باصحابه فقصدت . واجهتك

فتشاءمت ليونيدة من هذه الزيارة الصباحية واوجست ان يكون وراءها ما يكدر صفاء عيشها على انها تجلدت على ملاطفته وبشت في وجههِ وقالت اهلًا وسهلًا بالصديق القديم فقد حضرت في حين كنت ارجو حضورك لان عندي شيئًا اريد ان افاوضك فيهِ على انفراد

فسرّ منترفيو من ترحيبها والتفت الى ابنها وحملهُ على ذراعيهِ يقبلهُ فصفعهُ الطفل على وجهه وخدشهُ قليلًا فتبسم وقال : هو غيرُ كاسر نظير امهِ

ـــ اعذره فهو لا يعرفك بعدُ

ـــ سيعرفني ان شاء الله ويعتبرني كصديق مخلص

فاستدعت ليونيدة الخادمة فذهبت بالولد الى القصر ولما خلا الجوُّ قال منترفيو يسرني ان اراكِ على غاية ما يرام من السعادة ورغد العيش واني انبسط كلما ذكرت انك مديونة لي بالقسم الاكبر من سعادتك فلا اظنكِ تستهجنين طلبي اذا سالتك لنفسي من تلك السعادة نصيبًا ولا سيما انك اوسعتِ لي في قلبكِ مقامًا

فسيماً كما وعدتني ولذا اراني الان اسعد البشر لان محبة امرأة مثلكِ هي لدي افضل من كل كنوز العالم — هل صادق انت فيما تقول

— ولماذا لا أكون صادقاً ولماذا ترتابين بمحبتي فهل ازعجتكِ بشيء منذ ثلاث سنين أوَ لم ادعكِ تتمتعين بفوزكِ بملء الحرية

— ان اردت ان احمل كلامكَ على محمل الصدق ايها العزيز وان اصدقكَ تصدقاً فساعدني على اصلاح الضرر الذي صنعناه كلانا في يوم غضب اجابةً لداعي الانتقام . . . ردّ لي تينك الابنتين اللتين اخفيتهما فانهما لم يصنعا معك شراً وكثيراً ما اعربت عن شفقتك عليهما وقلت انهما بريئتان

— لكن هل ذهلتِ ياعزيزتي ليونيدتا اني لم اخطف البنيتين من حضن ابويهما الاّ ائتماراً لاشارتكِ واجابةً لالحاحكِ عليّ

— وا حسرتاه ياحبيبي تعساً لي ما كان اشدّ جنوني . ويلاً لي اني كنت وقتئذٍ رديئة شريرة قاسية وانت كنتَ تثير في صدري عوامل الانتقام . اوّاه انّا اتينا بذلك فعلةً شنعاء — لكن اسمحي لي ان اذكركِ انك لولا هاتهِ الفعلة الشنعاء لما كنتِ الان امرأةً للكنت سنترمون

— وا لوعتاهُ هل اتيتَ الان لتثير قديم اشجاني وتهزأ بي

— كلا لست بكِ هازئاً بل اتعجب كيف يخزكِ ضميركِ من جراء جريمة كانت علة غبطتك في هذه الدنيا — ما همكِ لو رددت لي هاتين الابنتين

— ان حبي لكِ اعظم من ان اكدر صفاء عيشك باعادة الابنتين لان سنترمون عند الحصول على ابنتيه تنقص محبته لكِ فيها الآن في حرز حريز وامن وسلام فدعيهما وشأنهما اولى لكِ ولهما — تباً لك من ماكرٍ خبيث تريد ان تحفظهما الى ان تسنح لك الفرصة فتجرد علينا بهما سيف انتقام . الآن عرفت مرامك

— حاشا حاشا بل لا اعلم اين هما الان

فتميزت ليونيدة من الغضب وعنفته وكذبتهُ اما هو فلبث ساكن الجاش وقال لها :

اقسم لكِ بشرفي يا عزيزتي اني حسب امرك واريتهما في الاقطار الشاسعة حتى اضعتهما واصبحت الان لا اعرف لهما مقرًّا ولكن لا اعلم سبب طلبك لهما ولا اية فائدة لكِ منهما ما لم يكن لك من وراثهما طمع بثلاثة ملايين الفرنك التي لا يؤذن لاحد بمسها — افّ للمال ولحبيه فاني من كرم الله غنية لا حاجة لي بهِ البتة

— ان لم يكن لاجل المال فلاجل تقييد بعلك بمحبتك التي اراها قد فترت بتردده الى الملاهي والمراقص ونوادي الاوانس ولا بد ان تكوني قد لحظتِ من ذلك شيئا من يوم اخذ هذا العصفور يطير من قصره احيانًا لمحاورة حور العيون

— صه صه.. — لا لا اسكت فلي كلام اخر اقوله

لك فقد ظننت يا عزيزتي ليوندا انكِ تغمرينهُ بجميلك اذا رددت لهُ ابنتيه فينقاد لامرك صاغرًا ثلاث سنين اخرى فهب انهُ حفظ عهدك هذه المدة فما انتِ صانعة بعد لتطيلي اجل حبه لكِ فاعلمي انه مهما أحبك فلا يحبك بدرجة من شغفي بك فاني اكاد اذوب شوقًا اليكِ يا شقيقة الروح — اياك ان تراودني ايضًا بمثل هذا الكلام والا شكوتك لزوجي

— بماذا تشكيني لزوجكِ يا ترى هل تقولين لهُ انك لكي تستطيعي الاقتران به امرتني ان اخطف ابنتيه وافرقهما في الارض هدفًا للشقاء ويل لكِ ان نطقتِ ضدي ببنت شفة امام الكنت فلن تفلتي من يده ولا من يد الحكومة ... وهل ذهلت اننا كلانا ملتزمان بحفظ السرّ الذي يوثقنا توثيقًا مكينًا بحيث لا يمكن احدًا منا ان يفكر في اسقاط الاخر دون ان يسقط هو نفسه

وكان منترفيو في خلال كلامه يرغي ويزبد بعينين تبعثان شررًا وبلهجة تهديدية حتى خافت ليونيدة وقالت لهُ خفض عنك فلعل احدًا من الخدم يتنصت فيسمعنا

— ان شئتِ ان البث هادئًا فلا تتهدديني البتة ولا تجبريني ان اسيء اليكِ اما بشأن الابنتين فانتِ تعلمين اني اريد خيركِ يا ليونيدة وخير هذا الطفل الذي صفعني الان فلماذا اجعلهُ يخسر اربعة ملايين فرنك

— لم افقه معنى مقالك

— الا تعرفين الامور المالية فهاءنذا اشرح لك : ما دام اعتبار ابنتي الكنت سنتزمون غائبتين يسوغ لزوجكِ ان يقبض الثلثين الف فرنك سنوياً وهو القسم الذي عينته له المحكمة من ريع المال وعما قريب يؤذن له بتناول الربع كله ولكن بعد ثلثين سنة تعتبر الابنتان مختفيتين او مائتين فوريثهما ابوهما وحينئذ يكون المال مع فوائضه المركبة قد بلغ مجموعه الى الاربعة الملايين فاذا ربح ابنكِ هذا المال يوماً فيكون الفضل فيه لي دون غيري فهل تشكين بعد ذلك بحبي لكِ والحرص على صوالحكِ — ما كنت طوال عمري لاكترث للمال

— ستكترثين اليه يوماً عندما يتلف زوجكِ كل مالك ويعضك ناب الفقر... ومع ذلك ان شئتِ على كل الاحوال ان ارجع الابنتين الى والدهما ...

— فلما سمعت ليونيدة العبارة الاخيرة انتعشت روحها وقالت له بلهجة ابتهالٍ اشكرك يا عزيزي على انك رضيت اخيراً باعادتهما لاني اعهد انك طيب العنصر ولست بذاتك رديئاً الا ان الغضب قد اعمى بصرك ولكن ما لبث ان عاودك رشدك وثاب اليك الصواب

— وحياتكِ اني لست رديئاً بتة ولا اطلب شيئاً اكثر من الاخرين وقد جئت يا ليونيدة اقول لك هذا : اني صديق زوجك وصديق بيتكِ ومنكِ لست اقتضي الان شيئاً ... فان زوجكِ يخدعكِ اليوم وقلبه يتعلق رويداً رويداً بسواكِ من الغانيات اليوم باحدى الراقصات وغداً باحدى الممثلات واخيراً ببغيٍّ يقطرها لحسابه فالى حد هذه الساعة انتظر — ما عساك تنتظر يا ترى

— ان تطلبي من يعزيكِ ويقوم مقام بعلكِ لديك

— صه يا شقي واغرب من وجهي سريعاً

فقام منترفيو وحمل قبعته وتركها غير مودعٍ وهو يقول : انتِ طلبتِ مني شيئاً وانا اقتضيت منك لقاءه وبهذا الثمن يتم العقد ولا سبيل للحياء او الكدر فان زوجك سيهجركِ يوماً فتأخذين بدله عاشقاً فانا والحالة هذه اولى من غيري

— كلا لا انت ولا غيرك فاني بذلت نفسي في سبيل زوجي مرة فلن انكث عهد

مانته ما دمت حية ولو تركني والا كنت احقر سائر الخلائق حتى البهائم

— اصنعي ما بدا لكِ

وكان قلب ليونيدة قد نفطر من شدة الاسى فبكت بكاء مرًّا وقالت في نفسها : وقت الانتقام وافى وهذا اول المخاض . وبعد اسبالها العبرات سيولاً انطلقت لمشاهدة ولدها فالتهت به قليلاً لانها كانت تنتظر قدوم زوجها لتتعزى به لانهُ كان يؤانسها ويتملقها ويقص عليها كل ما يسمع ويرى في بحر النهار

فلما جاء عند المساء قابلها على خلاف عادته بوجه عبوس وجاس معها على المائدة وآثار الكدر على وجهه لائحة فلما انصرف الخدم ولبثا وحدهما سألتهُ عن سبب كآبته فاخبرها بان ابن عمه البارون لوران محتضر على سرير المنون وقد بلغ به الفقر والتعس الى حال يرثى لها حتى كاد يموت جزعاً

فنزل هذا الخبر الفاجع على قلب ليونيدة نزول الصاعقة فغاصت في لجة الحزن واخذت تتأمل في ان الذي لم يقترف من الاثم شيئاً قد انتهى به الحال الى هذا المآل فكيف تكون حالها وماذا خبيء لها من العذاب الاليم . على انها ارادت ان تغيثهُ فقالت لزوجها . نحن من فضل الله اغنياء فلمَ لا نسعفهُ بيسير من المال

— لا اظن ان يقبل منا شيئاً

﴿ فصل عشرون ﴾

في موت البارون لوران

لا شك ان الآلام الادبية هي اشد عملا في قتل الناس من اعظم الامراض الطبيعية خطراً فقد تولى الغم قلب البارون لوران منذ سقوط مصرفه وقد صدق من قال ان البارون لم يفلت من شرّ تلك الدعوى المشؤومة الا ليقع في شر الافلاس ولذا لم يدم فرحه ببراءته الا ليلة واحدة وهي الليلة التي سافر بها مع امرأته من نيس الى باريس بعد نهاية الدعوى

فبعد ان عانق البارون ولده هوبر الذي كان يظن ان والديه سافرا للتفتيش

على ابنتي خالته المخطوفتين انطلق حالاً الى مصرفه فاحاقت بهِ الغموم من كل جانب لان جميع عملائه قد قطعوا صلاتهم معهُ ولم تبقَ لهُ اقل ثقة عند اخلص اصدقائه اما اصحاب الاموال المودعة في مصرفه فكانوا يأتون في مواعيد الاستحقاق لقبضها لفقدهم كل امنية فيه فاضطرَّ سدًّا لديونه ان يبيع كل ما ملكت يد امرأته لان ثروته الخصوصية كان قد فقدها منذ اشتغل في اعمال البورصة التي تزعزع اعظم البيوتات المالية وتقوضها تقويضاً

وكان كلما فقد كماً من المال يزداد ميلاً الى المضاربة ومشترى الاسهم المختلفة فلم يخدمهُ السعد ولا يوماً واحداً بل كانت الخسائر تتوالى عليه حتى امسى افقر من ابن المذلق وجعل يلعن الساعة التي تعلق فيها على تلك الاشغال الخطرة التي كانت قد غرَّتهُ اولاً بحلاوة ارباحها فزلت به القدم الى دارها حيث غرَّق كل ثروته ولم يخرج من ذلك البحر العجاج الا عرياناً

وكان البارون واثقاً بصداقة الوف من الاصحاب والخلان الذين كان يكرمهم وينفعهم فلما توالت المصيبة تفرقوا عنهُ كمن عاتر جرباء وامسوا لا يعرفونهُ واذا صادفوه بالطريق حولوا ابصارهم عنه حتى ان كتابهُ وخدامهُ انفسهم تركوه هاجرين

وكان البارون ابيَّ النفس فأنف من عار الافلاس فجمع ارباب ديونه وقص عليهم ما جرى لهُ وقدم لهم قصره وحلى امرأته واثاث بيته فاجتمع منها ثلثمائة الف فرنك لقاء دينه البالغ مليوناً وثلثمائة وخمسين الف فرنك فاكتفوا بهذه التصفية وعدلوا عن اشهار افلاسه وشهدوا جميعاً بشهامته وصدقه فتعزى بذلك عن المفقود على نحو قول الحكيم « الصيت الحسن خير من المال المجموع »

على ان البارون رغماً عن ترك كل شيء يملكه لوفاء دينه كان منغص العيش غير ناسٍ انهُ بفقده مليون فرنك قد اضاع مالاً جزيلاً على كثير من الارامل والفقراء الذين ائتمنوه على دراهمهم فامسوا بسببه تعساء كل عمرهم وكان مجرد هذا الفكر نظير سم قاتل افسد مورد حياته فانتابته الامراض ولم تمضِ بضعة اشهر حتى اشتعل رأسهُ شيباً وابتلي بداء الصدر الذى اخذ يهدم هيكل جسمه يوماً فيوماً

اما امرأتهُ فتحملت مصابها بصبر وشكر واضطرت بعد ذلك العز الرفيع ان تخدم اصغر الناس للحصول على قوت زوجها وولدها فكانت تعلم الفتيات الضرب على القانون (البيانو) وتشتغل في اوقات الفراغ بتصوير بعض اللعب المعدة للبيع فتنفق من دخلها على بيتها وعلى تربية ابنها هوبر الذي غدا نابغة بين كل رفاقه ومخايل النجابة تنبيء عن فرط ذكائه

لكن الداء كان يزداد على لوران اشتداداً حتى دنا به من حافة اللحد وحينئذٍ عرف سنترمون بتعس حاله واخبر ليونيدة بانه عزم على عيادته واغاثته

وكانت امرأة البارون تكره سنترمون اعتقاد انه العلة الاولى لخراب بيتها فانقطعت مع زوجها عن زيارته منذ تلك الدعوى المشهورة ولم تشأ ان تفكر فيه البتة

فلما وصل الكنت الى بيت نسيبه وكان حقيراً مؤلفاً من غرفة ومطبخ في الطابق الاسفل وغرفتين للنوم في الطابق الاعلى اخذه انذهال من تقلب الاحوال وانتقال اسرة البارون الشريفة من قصورها المنيفة الى هذا المسكن الصغير فدخل سنترمون فشاهد امرأة البارون في المطبخ تطبخ لزوجها طعاماً فسلم عليها واعتذر لها بانه كان تلك المدة جاهلاً حالتها واحتياجها

فنتزرته البارونة وقالت لهُ ما انا بحاجة الي شيء والحمد لله فهل رأيتني طلبت منك شيئاً فاضطرب الكنت من هذا الجواب على انه تجلد وقال اراكِ قد تغيرت ياعزيزتي حتى لم اعرفكِ

— اجل لقد تغيرت ولكن بقي فيَّ شيءٌ واحد لم يتغير الا وهو كرهي لك ونفوري منك — عجب كيف تتكلمين بملء الحرية

— لاني لا اعرف ان اكذب مثلك — ما كان احسنكِ ولكن مصائبك قد ادخلت على طبعكِ الحدة والنزق كما ارى فلا بأس

— كلا فان البلايا مهما عظمت فلم تكن لتؤثر فيَّ البتة

— لقد اتهمتموني اني كنت علة مصائبكم ولكن اؤكد انكم في غرور

— كيف نكون في غرور والامر واضح وضوح النور في حالك الديجور الست انت

الذي اعربت من بغضك لزوجي ونفورك منه يوم كان ارباب الحكمه حولك يرقبون كل كلمة تلفظها وقد اتيت ببعض الفاظ مشبوهة توهم انه المجرم او لست انت الذي اعلن ان زوجي وحده هو الذي ينتفع من اختفائك واختفاء الابنتين في حين انك انت وحدك الان تنتفع بذلك ولم يكن لك الا غاية واحدة وهي الاستيلاء على ثروة ابنتيك — عفواً ياسيدتي فاني اعلنت على رؤوس الاشهاد امام الحكمة اني موقن ببراءة زوجك

— ماذا نفع اقرارك بعد ان سبق السيف العذل وكان الشر قد جرى لان زوجي لم يخرج من الحكمة الا ليسقط في هاوية الافلاس الذي طعن فؤاده اشد من طعن المدى

— يظهر انك آسفة لعدم الاجهاز علي ولكن ما لنا وهذا الحديث فاني جئت الان مدفوعاً من امرأتي لانظر في حاجتكم واساعدكم بما وصلت اليه يدي فقابلتني اسوأ مقابلة ولكن لا بأس فاني طيب القلب واصفح عنك صفحاً

— لست بحاجة الى صفحك ولا الى مالك ولا اطلب منك الا ان تدعني وشأني

— لعل زوجك يقبل ما اعرض عليك من الاسعاف

— لا اسمح لك ان تشاهده البتة

— اذن ترغبين في قطع الصلات قطعاً باتا

— لقد انقطعت هذه الصلات على ما اظن منذ ثلاث سنين

فابتهل سنترمون وصغرت نفسه امام شهامة تلك المرأة الفاضلة وخرج مودعاً لها بقوله : لقد صنعت المفروض كواجب على كل ذي قربى نحو قريبه فرفضتني بكبرياء ما بعدها كبر بعد ان كنت تصفيني بالعجرفة فلا تلومي الا نفسك اذا نزلت بك بلايا جديدة — لقد قلت لك واكرر القول الان لم التجئ الى احد ولم اطلب من احد شيئاً حتى اطلب منك فاذهب عني بحفظ الله

فخرج سنترمون منقبض الصدر لما اخذه من الخجل بعد هذا الفشل ولسعه حينئذ عقرب ضميره كوخز الابر لتيقنه انه هو علة تعاسة ذلك البيت الكريم على انه هز

كتفيه كأنهُ غير مكترث وقال لقد صنعت ما عليَّ واردت انهاضهم فابوا فليصنعوا ما شاؤُوا ولم تستحسن البارونة ان تخبر زوجها ولا ابنها بزيارة سنترمون فكتمت امرها طي صدرها لان داء البارون امسى شديد الوطأة وكان ابنه هوبر مشتغلًا في تلقي الدروس مجتهدًا في احراز العلم وكان في كل صباح يتاو على ابيه امثولاته ويعرض عليه التمارين التي يكتبها فيصلح لهُ وينصحهُ بالمثابرة على الجد والسعي لانجاز دروسه سريعًا ليتمكن من اسعاف البيت ورفع شأنهِ

وكان البارون يشعر بانحطاط قواه ونضوب زيت حياته ودنو اجله فاستدعى في ذلك اليوم امرأته وابنه وجعل ينبئهما بقرب انحلاله من الدنيا الغرور ويستغفرهما عما فرط منه لتركهما فقيرين بذنبه فبكيا على سريره طويلًا وعزياه بالطف الكلام ودعوا لهُ بطول الايام وكان قلب البارون يتلظى اسفًا على اولئك الارامل والمساكين الذين استودعوا صندوقه اموالهم فخسروها بقلة درايته ولم يكن ينكف عن ذكرهم نادبًا حظه لعدم تمكنه من التعويض عليهم ثم ضم هوبر الى صدره واستودعه اولئك الدائنين حتى اذا اقبل الرزق عليه وتوفرت ثروته عوَّض عليهم اضعافًا ثم قال لهُ : عش يابني شريفًا كريم الخلق محبًا للجميع ما دمت حيًا لاني كنت كذلك فبك اثق انك تعيد بت ابيك الجبهانه الاول وتحيي اسمي وشرفي فها انا راحل فدعني اعتقد عروَتك حين انزل الى القبر والسلام

فاجهش الولد بالبكاء واسبلت امهُ من العبرات سيولاً اما البارون فما اتم كلامه الاخيرة حتى غاب عن الرشد واشتدت عليه الحشرجه واخذت جسمه البرداء ولم يلبث بضع دقائق حتى فاضت روحه فانكبَّ الام والولد على السرير وبكيا ساعةً ثم صليا وقاما للاهتمام بتجهيزه فحملت في اليوم التالي جنازته على نعش الفقراء ولم يسر وراءه الا بعض خدامه القدماء واحد كتابه الذي كان امينًا لصندوق مصرفه وهو وحده من بين كتابه لبث حافظًا لوداد سيده

وكانت البارونة قد كتمت عن ابنها كل ما جرى لابيها الى ذلك اليوم من المحاكمة والافلاس كي لاتنغص عيش صبوته بتلك الاشجان فتسم حياته النضة ولذا لما عرض

عليها امين الصندوق بعد الدفن ان يأخذ هوبر الى المحل نفسه الذي استخدم فيه ليدربه على الخدمة أبت وقالت له لايكون اول استخدامه في باريس ولا في فرنسا بل في بلدٍ غريب حيث لايمكن احداً ان يعرفه بقوله « انت ابن الصراف المفلس »

فصل حادٍ وعشرون

مهاجرة البارونة وابنها

لقد سئمت البارونة الارملة ان تقيم في فرنسا ذليلة حقيرة بعد عزها الرفيع وعزمت ان تهجرها الى اميركا رغماً عن شغفها بوطنها العزيز فباعت ما بقي لديها من الاثاث وعافت تلك الديار العامرة والدمع ملء مقلتيها وانتهزت فرصة السفر لتعد ابنها هوبر للعيشة الجديدة في ارض الغربة وتدربه في ما يجب صنيعه وكان ذكي الفؤاد فطناً واسع الفكر ولو لم يكن الا في العاشرة من عمره فكان يسمع ويعي في قلبه كل شيء على انه لما سمع ان امه مستعدة ان تشتغل بيديها في نقش المراوح للقيام باودهما ونفقة اتمام علمه في احدى المدارس عارضها بانهُ لا يدعها تحمل ذلك العبء وحدها بل عزم ان يشتغل في النهار ويدرس في الليل

فلما وصلا الى نيويرك واتخذا لهما مركزاً في نزلٍ حقير انطلقت البارونة الى احد تجار المراوح حاملةً اليه كتاب وصاة من عميلهِ في باريس فاطلع التاجر على بعض انموذجات كانت معها فاعجبته فوعدها بالشغل ثم تركها والتفت الى مهمة اخرى فامتعضت لانها لم تجد لديه من الاكرام ما كان لها في وطنها ولم تكن تعلم بعد ان « الوقت عند الانكليز والاميركان دراهم » فكل ما لافائدة منهُ لا يعتد به . ولذا توفرت ثروتهم وعظمت منزلتهم لحرصهم على الزمان فعادت الى المنزل عند المساء ولم يكن هوبر فيه فقلقت لكن ما لبث ان عاد فرحاً يبشر امهُ بانهُ وجد شغلاً وقص عليها ما يأتي :

خرجت من البيت عند الصباح واخذت اتجول في الازقة مفكراً بوجوب الاستخدام في اي محل كان وباي معاش كان دون انتظار ولا بطالة رغبة في تعلم اللغة الانكليزية التي

لابدّ منها هنا اعتبار ان ذلك الاستخدام يغنيني عن المدرسة فشاهدت الغلمان يوزعون الاعلانات في الشوارع فقلت ان لم يكن لي من الخدمة الا توزيع الاعلانات اكن قنوعاً فاخذت اعلاناً وقرأت عنوانه فاذا هو صادر من معمل يصنع الطيوب فذهبت الى صاحبه وعرضت عليه الخدمة فطارحني بعض الاسئلة ثم ادخلني الى المعمل للف الزجاجات والعلب فاستصعبت العمل لاول وهلة وخصوصاً لاني رأيت بعض الغلمان بارعين مسرعين في عملها فافرغت الجهد ولكن لم يأت الظهر الا تورمت اصابعي وتألمت شديداً حتى كدت ابكي فخجلت وصبرت ولما جاء المدير ونظر شغلي قال « نعما الشغل وانت في اول يوم » فنشطني كلامهُ وانساني العناء وواصلت الكدّ الى المساء فلانت اصابعي وألفت هذا العمل فضمت الام الى صدرها ذلك الولد النجيب وسالت عبراتها من الفرح به ثم حانت منها التفاتة الى المنضدة فرأت عشرة ريالات فاندهشت وقالت انىّ لك الدراهم ولم نشتغل بعد الا يوماً واحداً

فتبسم الولد وقال لها كنت قد اخذت معي احدى المراوح التي تصنعينها لعلي ابيعها فلا يضيع نهاري سدًى فلما دخلت الى معمل الطيوب اخبرت المدير بمهارتك بنقش المراوح واريتهُ التي معي انموذجاً فاعجب بها واتفق حينئذٍ ان قد كانت عنده احدى السيدات فسألت عن ثمنها فقلت لها خمسة عشر ريالاً اي ثلاثة اضعاف قيمتها في باريس لاني ذكرت ما قلتِ يوما ان المعيشة تكلف المرء في اميركا ثلاثة اضعاف كلفتها في باريس. فاخذ صاحب المعمل خمسة ريالات وترك لي العشرة وعينني ان اكون في مخزن البيع لاتكلم باللغة الفرنسية مع المشترين الذين لا يعرفون سواها وجعل راتبي في الشهر الاول خمسة عشر ريالاً

فعانقت المرأة ابنها النبيه ثانية وتوسمت فيه مخايل الذكاء والحذق والدراية والجسارة وافتكرت بانهُ لو كان مديرًا لبنك والده لما كان جرى ذلك الافلاس

﴿ فصل ثانٍ وعشرون ﴾

زهرة الحقل

ما احسن ما قيل ان العمل والكد افضل من كل تعزية فان البارونة وابنها كانا يجتهدان في الشغل متعاونين على القيام باودهما فكان ذلك الاشتغال باعثاً على زوال الحزن من بينهما وتناسي غمتهما وما مضت السنة حتى ارتفع راتب الفتى الى خمسة وعشرين ريالاً فظن انهُ صار غنياً واخذ يرجو امهُ لترك النزل واستئجار بيت خاص وتجهيزه بالاثاث فردت طلبهُ بحجة ان ما يربحانه كلاهما لا يقوم بنفقات ذلك البيت ولم تخبره انها كانت تشتغل معظم الليل وتجني قسماً من اجرتها لحين الحاجة ثم انقضى العام الثاني فتحسنت احوال هوبر واصبح يحسن التكلم بالانكليزية وجعل ينصب على تلقي بعض العلوم لنفسه منكباً خصوصاً على الفروع التجارية حتى برع فيها وطفق يعلل الأمل بنجاح المستقبل كما نجح في ذلك العالم الجديد اناس كثيرون كانوا اكثر منه خمولاً وصاروا اصحاب ملايين ومليارات فاطلقت عليهم القاب الملوك فسمي احدهم بملك النحاس وآخر بملك الذهب وآخر بملك السكك الحديدية وآخر بملك الفضة وتوفرت عندهم الخدم والمماليك مع انهم لم يكونوا في بدء عمرهم الا فقراء صعاليك

وكان هوبر طامح البصر الى المعالي تائق القلب الى جمع المال لا حباً به بل قياماً بامر ابيه الذي اوصاه قبيل وفاته باسترجاع ثروتهِ المفقودة ورغبة في انقاذ امه من متاعب الشغل والكد في النقش فلما تمت لهُ السنة الخامسة في معمل العطر الذي اتخذه معرضاً للمراوح التي كانت تنقشها امهُ توفرت وارداتهُ من راتبه ومن مبيع المراوح فصار يتأنق في المعاش والملبس وكان قد بلغ مبلغ الرجال واصبح شاباً مليحاً معتدل القوام جميل الوجه جديراً باستلفات انظار الغيد الحسان الا انه كان اديباً مهذباً قلما التفت الى الرعونة والجهل كسائر الشبان لان قلبه كان مغلقاً دون تلك الترهات وكان ينتهز اوقات الفراغ للتضلع من الحساب والفنون التجارية ولا يخرج الى النزهة الا صباح الاحد راكباً جواداً وبعد الظهر يساير امهُ الى احدى الحدائق العمومية

ولما راى احواله في فلاح استأجر داراً وأثثها بما اتصلت اليه يده من الرياش والادوات اللازمة وبعد الانتقال اليها بزمن يسير انبأ والدته بانهُ عوَّل على الخروج من معمل العطر فاستاءت من هذا النبإ وظنت انهُ تنازع مع سيده فطيب خاطرها باعلامه لها انهُ على غاية من الوئام من الائتلاف معهُ وقال لها : اني تعلمت كل شيء عنده وبلغت لديه منتهى الحد الذي يمكن البلوغ اليه فلا يستطيع فيما بعد ان يزيد راتبي ولا يقدر ان يتنحى ويعطيني مقامهُ فمن نحو ستة اشهر اخذت اشتغل في ترتيب حساباته ومسك دفاتره فوجدت في ذلك منتهى لذتي ورايتني اني خلقت للحساب والمكاتبة التجارية وقد تمكنت من ترتيب تلك الحسابات وتوحيدها مع اني لم اتعلم شيئاً من ذلك قبلاً وقد اتاح لي الحظ اليوم ان اخابر احد مديري المصرف العمومي في نيويرك فامتحنني واستحسن معارفي . . لكن عجباً مالي اراك يا امي قد امتقع وجهك وتغيرت الوانك

وكانت البارونة لدى استماعها لفظة « المصرف » قد انتقعت واضطربت لانها كانت تودُّ ان ينبغ ابنها في التجارة والصناعة لان مجرد اسم الصرافة كان يخيفها فقالت لهُ . ان الحرفة التي رغبت فيها هي اكثر سائر الحرف احتياجاً الى رأس مال كبير وانت لا تملك منهُ شيئاً واكتفت بايراد هذا السبب الطفيف دون العلة الحقيقية التي حملتها على الخوف من المصارف لئلا تنبه افكاره الى مصائب والده

فتبسم هوبر وقال لها ما حاجتي الى رأس المال فهذا يهم المصرف لا كاتبهُ ولا يخفاك ان مصرف نيويرك العام هو من الطبقة الاولى فان مديره المقيم في نيويرك يربح في السنة مائة وخمسين الف فرنك ومديري شعبه في شيكاغو وسان فرنسسكو ولندن مائة الف وفي برلين وباريس ستين الفاً فلا تمضي عليَّ عشر سنين الا اصير واحداً من هولاء المديرين ان شاء الله

فلما سمعت البارونة اسم باريس اضطربت وقالت لهُ لا نحب ان نخرج من نيويرك فاننا فيها على الرحب والسعة — يجب اذن ان تنتظري اكثر من عشر سنين حتى اصير مديراً لمصرف نيويرك

وقد اعرب هوبر عن نجابة فريدة حتى احبهُ مدير المصرف ونقلهُ الى قلم الادارة

وجعلهُ من اخصاء كتابه وجعل معاشه في السنة الاولى ستة الاف فرنك فوجد هذا الدخل كافياً ليمنع والدته عن الاشغال اليدوية وما بلغ السنة الحادية والعشرين من عمره الا اضحى شامة بين شبان العصر وقدوة بالتهذيب والاداب واحرز لدى الالفة اعتبار العموم لهُ ولما آنست منهُ الادارة الذكاء والفطنة اختارتهُ ليفتش شُعب المصرف في جهات اميركا ويطلع على حساباتها ويفض عدة مشاكل مالية

فتكدرت امه لاول وهلة لابتعاده عنها على انها اذنت لهُ معتصمة بالصبر فانطلق هوبر وقام بالمهمة المنتدب اليها احسن قيام وبعد ان قضى في تلك السفرة نحو خمسة او ستة اشهر بعيداً عن نيويرك وكاد يعود اليها اذ ورد لهُ امر تلغرافي بان يعرّج على اقليم اركنساس حيث المسيو غريغوري دربوكوف احد مشاهير اصحاب المواشي واكابر الاغنياء فامتعض بداءة ذي بدء لانهُ كان مشتاقاً لامه وكان قد اخبرها بقرب عوده . وكان دربوكوف هذا ذا اراضٍ فسيحة والوف مؤلفة من جميع انواع المواشي وكان يتعامل مع مصرف نيويرك فوقع خلاف بينهما كاد يفضي الى الانفصال وعزم دربوكوف ان يقطع علائقه معهُ ليصلها مع مصرف شيكاغو فساءت المدير هذه الازمة وفوّض الى هوبر ان يفصل معهُ الخلاف بالتي احسن بشرط اعادة المياه الى مجاريها ولو ببعض التساهل

فركب هوبر القطار سائراً الى اركنساس واخذ ينقب في اوراق وحسابات دربوكوف الذي كان على جانب من الجهل وقد اتفق انهُ جاء الى نيويرك مرتين لابساً الثياب الغليظة فكان ضحكةً في عيون كل كتاب المصرف فظن هوبر انهُ واحدٌ من القرويين الاغنياء يسكن بيتاً حقيراً ولكن لما دنا من منزله وجده قصراً فسيحاً وسط جنة غناء وما قرب من الباب حتى سمع انغام الاوتار فقال هي ولا شك فتاة هذا القروي تضرب على العود ولما وصل استقبلهُ خادمهُ ببزّة حسنة كسائر خدام الاكابر فسألهُ عن سيده دربوكوف فأنبأه انهُ يشتغل في الحقل مع الحصادين ودعاه الى ردهة الاستقبال ريثما يستدعيه

فشدّ ما كان انذهال هوبر لما رأى تأنق صاحب البيت بزينته واثاثه الفاخر

وكان في الردهـــة باب يؤدي الى الغرفة المجاورة حيث كان ضرب العود

قام هوبر الى الباب فرأى امرأةً كهلة جالسة تضرب على القانون وفي وسط الغرفة فتاة كاعب غير بالغة من العمر سوى خمسة عشر ربيعاً ذات شعر ذهبي مدلىً على ظهرها هيفاء القد بارعة الجمال تتحفز للرقص على نغم الاوتار لكنها لم تكن لتعرف ان توفق بين حركاتها وانغام الموسيقى فقالت لمعلمتهـــا كيف استطيع ان اتعلم الرقص من نفسي وانتِ تصعدين بالضرب وتنزلين فساقول لابي هـــذا المساء انهُ يستحيل عليَّ التعلم وحدي فاما ان ياخذني الى المدينة واما ان يقيم حفلة راقصة في قصرنا هذا

— لا باس الان غمي الامتحان — عبثاً اتعب وفي يقيني انهُ لو كان هنا شابٌ ياخذ بيدي لكنت ارقص رقصاً مرتباً ولو لم اسمع نقر القانون

وما اتمت هذه العبارة حتى سمعت من داخل الصاعـــة صوتاً مجهولاً يقول : هوذا يدي ياسيدتي فلنرقص

وحينئذ دخل هوبر متقدماً الى الفتاة التي اندهشت وخجلت لاول وهلة في حين ان معلمتها حملقت مغتاظة وكانت محتارة على ان الراقصة قهقهت وقالت لها لامانع فهي فرصة اتيحت لي لاتعلم الرقص في هذه البرية المقفرة فعودي الى الضرب على القانون

فترددت المعلمـــة وكانت انكليزية بحتة واستهجنت هذا العمل الغريب الا ان ليلي كانت لسذاجتهـــا لا ترى في ذلك الامر غرابة بل بالعكس ظنت ان في رفضها يد ذلك الشاب اللطيف لغلاظة وقلة لياقة ولاسيما انه على ما يظهر صديق لوالدها فلا سبيل الى الحياء

فعادت الانكليزية بالرغم عنها الى نقر الاوتار واخـــذ هوبر بذراع ليلي وشرعا يتخاصران على توقيع الانغام وبينما هما على غاية ما يرام من الانبساط واذ وفد دربوكوف الى الصاعة فلما لم يجد فيها احداً غضب وجاء الى المرقص فلا تسل حينئذٍ عن اندهاله من مرأى المتخاصرين لكن الفتاة ما لمحت اباها حتى تركت الرقص وعانقته وقبل ان ينطق بكلمةٍ قالت له : آه يا ابت كم انا مسرورة اليوم بقدوم هذا الشاب الاديب الذي جاء ليعلمني الرقص متلطفاً من تلقاء خاطره فما اكرم اخلاقه

فتلعثم لسان دربوكوف وتنهد فهمست في اذنه وقالت : انه بارعٌ جدًا بهذا الفن وقد علمني اليوم رقصة الميدان فأرجوك ان تبقيه عندنا ضيفًا ليعلمني رقصة الحجلان

فسكن ما كان قد جاش في صدره من فائر الغضب ونظر الى الشاب نظرة لطيفة فحياه هذا احسن تحية وكان دربوكوف ناقمًا على مصرف نيويرك زاعمًا انه هزأ به وعزم على قطع كل صلة معهُ بتاتًا ولولا تلك الفتاة المالكة فؤاده والسائدة على قلبه لكان يجافي الشاب ولا يرضى بشيء من التسوية الا ان تلك المشكلة المعضلة قد انحلت بواسطة رقصة واحدة لم تكن تخطر لدربوكوف ولا لهوبر على بال

فسألهُ دربوكوف عن مهمته في ذلك المصرف فاجابه انهُ كاتب سر المدير وقد جاء ليفض الخلاف الناشيء عن سوء فهم بين الفريقين في حين انهُ ليس في حد ذاته من الاهمية بشيء

فلما سمعت ليلي اسم المصرف رتعمت من معاملتها لان دربوكوف كان لا يفتأ عن الطعن عليه يوميا مستاء من معاملته لهُ ولكن ما كان اشد اندهال الانكليزية وما كان اوفر ابتهاج ليلي عندما رأت والدها يصافح هوبر بيده متهللا له مرحبًا به ببشاشة وقال له : تؤانسنا اليوم بالتعشي معنا وبعد العشاء دفعني المشكلة

فازداد اندهاش المعلمة من تغير دربوكوف السريع وكانت تظنه يثبت على مناوأة المصرف الذي طالما اهاج غضبه شأن الانكليز الذين اذا عولوا على امر ثبتوا فيه وقلما حادوا عنه ولو كانوا على غير هدًى فتصبرت وقالت لليلي هلم فقد حان وقت امثولتكِ الفرنسية ثم اخذتها بيدها واذ ابوها يدعو هوبر للتنزه معه في المرج القريب حيث ترعى الوف من المواشي فرجعت وقالت لابيها : الا تأخذني معك في هذه النزهة

— هذا وقت امثولتكِ الفرنسية فكيف تدعينها وانت مغرمة بتعلم هاته اللغة

— يكلمني الخواجا هوبر بالفرنسية فيقوم الخطاب مقام الف امثولة

— وكيف عرفتِ ان الخواجا يتكلم بالفرنسية

— الا ترى ان اسمهُ اسم فرنسي وان لهجته تدل عليه

فتبسم هوبر وقال اني بالحقيقة فرنسي المحتد والمولد وها انذا مستعد لخدمتك فبكل سرور اعلمك لغتي كما علمتك الرقص ياسيدتي

وقبل ان تنتظر الفتاة اذن ابيها صريحا هرعت الى غرفتها لتلبس ثيابها وقد لاحظت من سكوت ابيها انه راض عن خروجها معها

فلما ابتعدت عنهما قال هوبر لابيها الله درها ما الطفها وما اطيب قلبها فضحك الاميركي ثم سالت من عينه عبرة وهو يضحك وقال للشاب : هذا خلاف رأي معلمتها الانكليزية التي ترى في هذه السذاجة الطاهرة خفة ورعونة وقلة ادب ولو سمعتك الان لكانت تلت عليك خطبة تطول ثلاثة ارباع الساعة

ثم تمشيا قليلا وقال دربوكوف لهوبر : اظنك تتعب من الركوب الان بعد وصولك من السفر فاجاب سلبا مع انه كان في الحقيقة قد اعيا من اللغوب

فامر دربوكوف باسراج الخيل المطهمة ومضت هنيهة حتى عادت ليلي بثوب الركوب وقالت لهما بالفرنسية هوذا الخيل فلنركب

فاندهل هوبر من حسن لفظها باللغة الفرنسية وقال لها من المستحيل ان تكون معلمة انكليزية قد علمتك هذا اللفظ الذي يشبه لهجة الفرنسيس انفسهم فاجابت مسرورة بانها تجد في نفسها ميلا شديدا الى تعلم هاته اللغة وميلا طبيعيا الى اتقان لفظها

فلما ركب الثلاثة اكتنفهم ثلثة من الخدم وركب كل منهم فرسا كريما وساروا بين ايديهم فاعربت ليلي عن مهارة غريبة في الفروسية اندهل منها الشاب غاية الاندهال وقلما اكترث في الطريق الى بساتين المروج الزبرجدية بل كان بصره شاخصا في تلك الآنسة « فتاة الحقل » وقد اشرق بهاء جمالها الطبيعي فلم يكن ليصدق ان هذه العصا من تلك العصية لان بينها وبين دربوكوف في الملامح بونا بعيدا

وكان دربوكوف يطلع ضيفه على ما في ذلك المكان من الترتيب والعناية بتربية المواشي على قوانين الصحة اما صاحبنا فكان ذاهلا عن كل ذلك ولا يفكر الا في كياسة تلك الفتاة التي خلبت فؤاده وقد انتهز الفرصة لامتداح مهارتها في الفروسية فلم تبد كلمة على ان وجهها صبغ بالحمرة وكان قلبها فرحا بتديج هذا الشاب الغريب لها

ولما عادوا انطلقوا الى المائدة توًّا لان الجوع كان قد اضناهم فجلس الشاب بازاء الفتاة فتحقق بالمقابلة شدة الاختلاف بينها وبين ابيها بالملامح والاطباع والاعمال فكان ذاك يلتهم الطعام كالوحش في حين ان الفتاة كانت تنقده نقدة العصفور

وبعد العشاء انشد الشاب بعض الاغاني الرخيمة موقعة على القانون ولما رأى الاميركي انه نام دون ان يخابره بالحساب نام هو ايضاً

وعند الصباح تخابر دربوكوف مع هوبر في مسألة الخلاف ولم يلبثا ان اتفقا على تسوية موافقة للمصرف وقال لهُ دربوكوف:

يجب ان تعلم اني رضيت بهذه التسوية اكراماً لخاطرك واني من الان فصاعداً لا اعرف احداً سواك وساقول لمدير المصرف انه لو ارسل لي غيرك لما كنت قبلت الاتفاق على الاطلاق

فصل ثالث وعشرون
في الرجوع الى الوطن

لما تأخر رجوع هوبر الى نيويرك بسبب تعريجه الى اركنساس اخذ القلق من والدته كل مأخذ وطفقت تشتم دربوكوف الذي كان علة لتلك العاقة وكان قد مضى على تغيب هوبر خمسة اشهر لم يسكن في اثنائها بلبالها رغماً عن مواصلته اياهــا برسائله في كل اسبوع وكانت تظن ان الاسفار تكون قد انهكته والاتعاب قد هزلته لكن ما اشد ما كان ابتهاجها لما قابلته برجوعه غضاً متجلبباً جلباب العافية متورد الوجه رشيق الحركة

وكان هوبر قد قام باعباء المهمة المنتدب اليها احسن قيام فاكرمهُ المدير غاية الاكرام وجعلهُ رئيساً لكل شعب المصرف وزاد راتبهُ حتى صار ثلاثة الاف ريال سنوياً ولما رافى والدته بهذه البشرى قال لها اما قلت لكِ اني ساكون يوماً مديراً فها انا اذا بلغت السبيل المؤدي الى تلك الادارة ان شاء الله

فعظم شأن هوبر وتحسنت احوالهُ واثث بيتاً جميلًا وصار من الشبان المشار اليهم بالبنان يعاشر الكبراء والاغنياء وكان مدير المصرف يكره حضور الاعياد

والاحتفالات فكان ينيب عنـه هوبر في المراقص والسهرات ومآدب الوزراء فيقوم مقـامهُ على غاية ما يرام وصارت الجرائد تنوه بذكره وتعرض عليه احياناً رئاسة بعض الاجتماعات والاكتتابات الخـيرية الا انهُ رغماً عن هذا التقدم السريع كان وديعـاً مطيعاً لين العريكة لطيفاً حتى حبب اليـه كل من عرفه وعشقـهُ كل من عاشره وتاقت اليـه نفوس كثير من الاوانس الكريمات وبذلنَ لديه الوسائل في التزوج بهن فكان يستحسنهن كلهن الا ان قلبهُ لم يكن ليميل الى واحدة منهن البتة

وقد شهد عدة مجتمعات ورقص مع مئات من اجمل الفتيات فلم يكن فؤاده لينبسط انبساطهُ في تلك الرقصة التي رقصها مع فتاة الحقل بنت دربوكوف التي حلت في حبة لبه حلولاً متيناً ورسخت فيه رسوخاً مكيناً ولم يكن يعلم اية عاطفة تجذبهُ اليها وقد كتم في صدره سرَّ هذا الغرام الطاهر ولم يبده لاحد ولا لامه عينها التي اخبرها عن تفاصيل . . . ره وذكر لها ضيافتهُ عند دربوكوف كسائر الاخبار .

وبينما كان ذات يوم في مكتبه اذ رنَّ في اذنه صوت قروي اشبه بصوت دربوكوف فتحفز للقيام الى الباب واذا بدربوكوف نفسه داخلاً عليه . . . اً بصوت عالٍ سمعه كل الكتاب وصافحه باليد مصافحة اعز الاصدقاء وقال لهُ لقد انجزت وعدي واتيت لزيارتك فرحب به الشاب احسن ترحيب وسألهُ عن ليلي فاجابه انهُ جاء بها الى نيويورك لتكتحل عينها النجـلاء بتاحف هذه المدينة الحسناء وقصورها الشاهقة وجناتها الغناء

فخفق قلب هوبر سروراً وانجز ما عليه من المهام بلمحة طرفٍ وقام مع ضيفه الى النزل الذي استـأجره لاجل فتاته فاذا هو من اجمـل القصور مزداناً بالرياش الفاخر ومزخرفاً زخرفه انيقة لائقاً بنزول الامراء والملوك فاندهش الشاب واي اندهاش وصغرت نفسهُ اذ ادرك مقام هـذا الرجل من الغنى وواسع الثروة وانقبض صدره انقباضاً لم يدر لهُ سبباً مع انهُ ما كان ليحسد نعمة احدٍ من قبـل وقد رأى نفسهُ دونه بطبقات وكان يود لو لم يكن عرف تلك الفتاة عـلى انه تشجع ودخل معهُ الى النزل وما كاد يصل الى باب الدار الداخلية الا استقبلتهُ الآنسة ليـلي تتهادى ببرد من الحرير القرمزي وصافحتهُ باليد مصافحة الاخوان ووجهها احمر قانٍ وكلمته باللغة الفرنسيا

بعبارة فصيحة وعاتبتهُ لعدم استئناف زيارتهلهاواخبرتهُ بانها اكبت على تعلم هذه اللغة لكي تنطلق الى فرنسا

فلما سمع هوبر اسم وطنه اضطرب لانهُ لم يكن يحب ابتعادها الى العالم القديم الا ان دربوكوف قدطيب خاطره بقوله لهُ ان هذاالسفر لا يكون الا بعد سنة او سنتين

وكان دربوكوف لابساً ثياباً ضخمةلايلبسها الا اهل القرى وكانت ليلي ترجوه ان يغيرها باثواب مدنيــة فلم يطاوعهافاستعانت عليهِ بهوبر الذي سألتهُ ان يصحبهُ الى خياط يفصل لهُ ثوباً على الزي الاخير فلم يسعهُ حينئذٍ الا الرضوخ فاخذ بيــده هوبر واشترى لهُ ثوباً مخيطاً من عند احد تجار الملابس وفصل لهُ عنــد احد الخياطين الماهرين ثوباً رسمياً لائقاً بالزيارات وشهودملاعب التمثيل وعاد به متشحاً بالثوب الجديد فعانقتهُ الفتاة وقلبها طافح فرحاً وقالت لهوبر هيا بنا الآن لنزور والدتك فارتبك الفتى وكان يود انلا ترى ليلي بيتهُ الحقير نسبةالى غنى والدها صاحب الملايين الكثيرة الا انهُ رضي بقبول الزيارة تأدباً فانبأ بها والدتهُ بالتلفون ثم ركب معهما في العجــلة الخاصة التي كان دربكوف قد استأجرها من افخر عجلات نيويرك لتكون في خدمتهِ ماشاء طوع اشارته

فلما وصلوا استقبلتهم البارونة اجمــل استقبال وما وقع بصرها على الآنسة ليلي الا انشرح صدرها وذكرت عند مرآها اخت الرحومة هنريت امرأة سنتره ون فخفق قلبها كما خفق قلب ليلي عند مشاهدة ام هوبر فتعانقتا كانهما متصاحبتان من زمن طويل وتبادلتا بعض العبارات التجمليه اســاساً للمحبة التي ربطت قلبيهما

ثم قدم هوبر لامه ضيفه دربوكوف الذي كان متلبكاً بثوبه الجــديد ولا يعرف كيف يسلم عــلى الزي المدني الا ان المرأة اخذتهُ بيده وخاطبتهُ بالطف الكلام ذاكرة له ما اخبرها ولدها مما لقي لديه من كرم الضيافة فابتهج الاب والفتاة من هاته الزيارة التي طالت حتى الغروب فقال لابنته داهمنا الوقت فان زمان العشــاء قد دنا فاجابتهُ بسذاجة لا اعلم لمــاذا انا مسرورة هنا كأني في بيتي

فبادرت البارونة لدعوتهما الى العشاء ففرحت ليلي وقالت انا قبلت الدعوة ياأبتِ

افلا تقبلها انت فاجابها ماذا تقول عنا البارونة اذا رضينا بدعوتها وهي غير مستعدة فقالت البارونة احسبني سعيدة بتشريفكم

اما هوبر فامتعض من ذلك لانهُ خجل ورأى نفسه فقيرًا بالنسبة لثروة ضيفيهِ وخاف ان تنقص كرامتهُ من عينهما عند مشاهدة مائدته الصغيرة الحقيرة

ولكن ما اشد ما كان سروره لما رأى المائدة مزدانة باشكال الازهار والرياحين والمآكل طيبة من افخر ما يصنعهُ طاهة باريس حتى ان ليلي التي اعتادت في بيتها ان تنتقد الطعام تقد العصافير قد اكلت بشهوة نظير ابيها الذي عجب منها غاية العجب وابتهجا بذلك العشاء ابتهاجهما باعظم المآدب

ولما قاموا عن المائدة اخذ هوبر ليلي بذراعها الى صاعة الاستقبال فاتكأت على ذراعه وقالت لهُ بعاطفة الحنو : سقياً لك لان لك اماً

وقبل الانصراف اتفقوا على ان الانسة ليلي تأتي في صباح اليوم التالي لتجول مع البارونة في شوارع نيويرك وتشتري بعض الحوائج في حين يذهب ابوها لتفقد المسالخ وبيوت عملائه اما بعد الظهر فيجتمع بهما هوبر ليتنزه معهما في بعض الحدائق النضرة

ففي صباح اليوم التالي انطلق الى المصرف باكرًا وانجز كل مهامه بسرعة غريبة وكان عقلهُ يردد بالرغم عنهُ ذكر تلك الفتاة البديعة الصفات وكان يفكر في طريقة للاستئذان بعض ساعات في النهار ليخدمها بعض الخدم واذا بالمدير قد استدعاه واوصاه قائلًا : بما ان دربوكوف نزيل نيويرك حالاً فاغتنم الفرصة في النهار لتؤانسه وتلاطفهُ ثم قال لهُ مازحاً : يجب ان تعلم انه اذا افلت من يدنا ليشتغل مع مصرف اخر فتكون انت بذلك مسؤولاً

فسر هوبر كل السرور وجعل يؤانس ضيفيه عدة ساعات يومياً حتى مرّت ثلثة اسابيع مرور السحاب فعولًا على الرجوع ولكن على غير رضى الفتاة التي ساءها هذا الاسراع ولاسيما عندما شهدت ملاعب التمثيل وحضرت بعض المراقص وذاقت لذة الالفة فعسر عليها فراق تلك المدينة الزاهرة لتنطلق الى بيتها في فلاة قفرة لا ترى فيها

الا وجه ابيها والخدم

فلما حان وقت الفراق ذهب هوبر وامه لوداعهما الى المحطة فبكوا جميعاً كانهم من الاقارب الادنين وتبادلوا ارق العبارات التوددية وتواعدوا بمواصلة الكتابة

ومن ذلك اليوم قلل هوبر الزيارات وامتنع عن السهرات ولم يكن يلبي الا الدعوات الرسمية وكان يختلس اوقات الفراغ للتضلع من العلوم التجارية والفنون المالية واكب على تعلم اللغة الالمانية فعجبت امهُ وسألتهُ في ذلك فاجابها « من طلب الاعالي سهر الليالي » فان شئت ان ارتقي منزلة رفيعة فلا بد من الكد لبلوغ الغاية ومن الواجب على مديري شعبات المصارف الكبرى ان يعرفوا كل اللغات الاوربية

وانجزت ليلي وعدها فاخذت تكاتب امَّ هوبر وتقص لها خبر عيشتها في تلك الحقول الفسيحة معربة لها عن حب حميم فكانت البارونة تجيبها بالطف الكلام وكان تبادل الرسائل بينهما متواصلاً حتى حال الحول فكتبت ليلي تبشرها بانها اقنعت اباها باخذها الى باريس

فلما اطلع هوبر على كتاب ليلي المنبيء بالسفر امتقع وجههُ واخذ منهُ الكدر كل مأخذ ولم يستطع ذلك اليوم عملاً لانهُ طفق يقول : ياضيعة التعب فعبثاً اسعى الى العلى وليلي تسافر الى باريس وانا اعلم ما يكون نصيبها هناك فان فريقاً من شبان الامراء وحفدة الملوك الذين قعدت بهم الايام وعضهم ناب الفقر يترقبون قدوم اغنياء الاميركان الى اوربا لمصاهرتهم فلا يبعد ان تطمع ليلي كما طمعت غيرها من قبل من فتيات اغنياء اميركا بالشرف الاثيل وتتوق نفسها الى لبس تاج الامارة فترضى بشاب من الامراء قد يكون كسلان سيء السيرة قبيح العوائد فتضيع عمرها في شقاء دائم فيالهفي عليك ياليلي . . .

اما البارونة فكانت تسلي ولدها الحبيب وهو لا يريد ان يتعزى حتى مضى شهر وقلبهُ مشرب كآبة لم تنجلِ الا بمشاهدة ليلي التي مرّت بنيويرك مع ابيها قبل سفرهما الى اوربا وقد جددا عهود الصداقة مع الشاب وامه مدة عشرين يوماً كانت ليلي في خلالها تزداد بهما تعلقاً حتى قالت يوماً « حبذا لو نقل مركز هوبر الى باريس »

فقال دربوكوف ان هوبر على جانب من الحذاقة والدراية اللتين تؤهلانه ليكون مديرًا لشعبة المصرف في باريس فتأوّه الشاب وقال: لقد عللت الامل بان ارتقي يومًا الى رئاسة شعبة في داخلية اميركا اما الرئاسة في حواضر اوربا فامر عسير ولا يمكن البلوغ اليه دون بذل مبلغ كبير من المال

وكان قلب هوبر تتنازعهُ تارة عوامل السرور بقرب الفتاة وطورًا عوامل الكدر لدى التفكر بدنو اجل السفر الى ان حان ميعاد الفراق فما اشد ما كانت مرارة الوداع . ولما اقلعت السفينة الماخرة الى اوربا اقلع فؤاده معها وبكى وقد شعر بشوق شديد الى وطنه لم يشعر بمثله من قبل ثم عاد الى البيت حزينًا

ثم مضت اربعة اسابيع وذكر ليلي لا يذهب من فكر هوبر ولكن دون ان يقصر في شيء من واجباتهِ فاستدعاه المدير ذات يوم وقال لهُ : اني مرتبك بامرك يا عزيزي ولا تظن اني اريد لك شرًّا فاجلس لاكلمك .

فجلس هوبر مرتعشًا فقال لهُ المدير اني محتار في شأنك ولا ادري كيف احل هذه المشكلة ولا اجهل انك تحب نيويرك وتؤثرها على سائر المدن وقد انشأت لنفسك فيها سمعةً حسنة ومركزًا شريفًا في الالفة ولكن يسوءني ان اخبرك ان مركزك يضايقني لان في نيتي ان اسلمهُ لابن اخي الذي لم اجد لهُ محلًا اوفق منهُ وكنت قد رغبت في ان ارقيك الى منصب اعلى في مدينة نيويرك فلم استطع الى ذلك سبيلًا فاضطررت ان امالك الى مكان آخر

فاكمد وجه الفتى واسف لبعاده عن تلك المدينة الزاهرة اقرب مدن اميركا الى وطنه لكنهُ لم ينبس ببنت شفة في حين ان المدير كان يتبسم كأنه مسرور بهذا الانتقال فقال لهُ : فرغ مركزهم في الخارج في بلد تحسن التكلم بلغتهِ احسانك للغة الانكليزيه ويسرني ان ابشرك ان مجلس ادارة المصرف في الجلسة الخصوصية المنعقدة هذا النهار قد قرر تعيينك رغمًا عن حداثه سنك مديرًا لشعبة باريس

فتهلل هوبر ولم يكد يصدق ما سمع ثم قال : من العادة ان مديري الشعب يؤدون مالاً جزيلًا الى صندوق المصرف حين تعيينهم لهذه المراكز وانا لا املك الان

اكثر من خمسين الف فرنك

دع عنك هذا الفكر فهو امر لا يعنيك لان مجلس الادارة قد استحسن ان يشذ عن قاعدته المرعية لاجل شاب نبيه نشيط حاذق مثلك فستدبر بشأن المال اللازم دفعهُ الى الصندوق ويكفي لحل هذه العقدة ان تخطب فتاة من اكابر الاغنياء الذين يتمنون مصاهرتك فقد عُينت الان مديرًا لشعبة المصرف في باريس براتب خمسة وعشرين الف فرنك في اول الامر ثم يزاد الراتب رويدًا رويدًا حتى يبلغ الخمسين والاثنين الفًا فاهنئك ياعزيزي فيها لتبشير والدتك الفاضلة

فخرج هوبر من غرفة المدير وهو لا يرى بعينيه من شدة الفرح وانطلق بريعامس الات عابرًا شوارع نيويورك كمختل الشعور لا يعي شيئًا بل لم يفتكر في استئجار عجلة تسرع بهِ الى البيت فانطلق راجلًا ولما وصل دخل من ساعتهِ الى غرفة امهِ التي كانت تسطر رسالة للانسة ليلي معانقهـا وانبأها بالبشرى فامتعضت امه من ذكر اسم باريس وقالت لهُ مقطبة لا شك بانك رفضت هذا المركز

ـــ كيف ارفضهُ واني اعده اعظم سعادة . . مالي اراكِ قد تكدرت من هذه البشرى ولماذا تكرهين باريس اجمل مدن العالم

فتظاهرت البارونة بغير ما في ضميرها من مقت تلك المدينة لان اسمها اهاج في صدرها ذكر اسم زوجها المأسوف عليه وقد خشيت ان يعلم ابنها بما آل اليه احوال ابيه قبل وفاتهِ فقالت لهوبر تموهة عليه الحقيقة : نحن مسرورون هنا فلماذا الانتقال .

ـــ ولماذا لا نكون هناك ايضًا منشرحين صدرًا لان منصبي صار رفيعًا ويمكننا ان نعيش عيشة الامراء في فرنسا وطننا العزيز

فلما رات البـارونة ان من العبث العدول بابنها عن قبول هذا المنصب الخطير جاهرت بالرضى وفي قلبهـا من حوادث الدهر غصة

﴿ فصل رابع وعشرون ﴾

مدير المصرف الجديد

ما اجمل الوطن وما احلى العود اليه بعد الغربة الطويلة وما كان احب هذا الرجوع الى قلب ام هوبر لو لم ينغصها ذكر زوجها وعزه السابق ثم انحطاطه السريع بعد تلك التهمة المشؤومة على انها عزمت ان تحيا في تلك الحاضرة حياة جديدة اشبه بحياتها في نيويرك بعيدة عن الآل والاصدقاء منقطعة الى خدمة بيتها ووحيدها مستغنية بذلك عن شر السنة الناس من قيل وقال

وكان وصولهما الى باريس نهار الاحد فما ابثا ان اقاما في النزل موقتاً حتى طلب هوبر الى والدته ان ترافقه الى منتزه الجسان الميحاء مرافقتها له ايام كان صبيا وكان في ودها لو لم تخرج ذلك اليوم لتهتم في استئجار منزل مناسب وتدبيره لكنها لم تشأ ان تحرم فلذة كبدها من هذا التنزه الذي يذكره بايام صبوته الحلوة فانطلقا راجلين لان النهار كان صاحيا والجو صافياً فما اشد ما كان انذهال الشاب لما رأى ازدحام الخلق الخارجين الى الشوارع زرافات ووحداناً ذاهبين في الارض وعليهم ملابس الاعياد وعلى وجوههم الصبيحة سيماء الافراح فظن ان في ذلك النهار عيداً عظيماً لكن امه اخبرته ان كل ايام باريس اعياد وهكذا يكون في كل الاحاد

فسر الفتى سروراً لم يشعر بمثله في امير كا لكن الشوارع الفسيحة كانت على سعتها تضيق دون المشاة لما فيها من العجلات المتواصلة حتى كان يصعب على المرء ان يعبر من رصيف الى اخر لاتصال خط العجلات المتلاصقة فانتهز انقطاعها لحظة لعبور الجادة واذا بعجلة تنهب الارض نهباً كادت تدوسه مع والدته لو لم ينتهرهما الحوذي انتهار ازدراء فرفع هوبر رأسه ليجاوبه على تلك القحة واذا في العجلة صاحبه دربوكوف وابنته ليلي فابتعد خجلاً كيلا يراه ما شاء منهما لو لحظاه لكانا قد اوقفا العجلة واخذاه مع امه برفقتهما

وكان هوبر قد اعلم مدير شعبة البنك الذي خلفه في باريس بوصوله مصرب

للمواجهة ضحى الاثنين موعداً فلما جاءت الساعة انطلق هوبر لابساً احسن الثياب ودخل المصرف عبوساً رزيناً فاستقبلهُ المدير الذي كان شيخاً جليلاً لكنهُ شك اولاً في ان يكون هذا الشاب هوبر عينهُ المرسل خلفاً لهُ الا انه لما تحقق من الاوراق التي بيده صدق بعض التصديق واخذ يطلعهُ على اسرار الشغل ويسلمهُ مهام الادارة فاعرب هوبر عن نباهة ونشاط حملا سلفه على ان يقدره حق قدره فقال لهُ الان عرفتك انك رجل عظيم فاهنئك بهذا المنصب الرفيع ثم استدعى المدير السابق كتاب الشعبة الخمسة عشر واكثرهم متقدمون في السن وقدمهم للمدير الجديد الذي استصغروه كلهم وظنوه كسائر الشبان الجهلة الذين لم يرتقوا ذلك المنصب الا من فضل اموالهم او تواصي الكبراء بهم ولما انصرفوا قام المديران للغذاء واستأنف المدير السابق على المائدة سرد سائر الاعلامات اللازمة بشأن الادارة ثم ودع هوبر وقال لهُ : موعد اجتماعنا الساعة الثالثة بعد الظهر حيث تجتمع باعضاء مجلس ادارة الشعبة وهم من كبار المتمولين واصحاب الاسهم في المصرف نزلاء باريس ولا يجتمعون الا مرة في كل اسبوعين وهم ثقلاء مزعجون ولكن لا بد من تحمل غلاظتهم رعاية للعوائد فضلاً عن كونهم من الاغنياء المقتدرين

ثم دخل هوبر الى ردهة المصرف لاستلام مهام مأموريته فاقبل عليه الكتاب يهنئونه بالمنصب الجديد فلاطفهم وبش بوجوههم ولما عادوا الى غرفهم قام الى الشرفة يسرح النظر في شوارع باريس النضرة حتى ازف الوعد لاجتماع مجلس الادارة واستدعي لاستقباله ولما دنا من الباب سمع المدير السابق يقول لهم : « نعم عمره من خمس وعشرين سنة الى ثلاثين سنة فقط ولكنهُ بالعقل ابن اربعين الى خمسين كما سترون »

فدخل هوبر وسلم عليهم وكان المدير السابق يعرفه عن كل باسمه حتى وصل الى الشفاليه ذي منترفيو فلما طرق اذنهُ هذا الاسم اضطرب في نفسه ولكن دون ان يبدي من الاضطراب اثراً على ان منترفيو قد اعرب لهُ عن تودد زائد وقد دنا منهُ وجعل يسائلهُ عن عدة امور بشأن اقامته في نيويرك حتى انتهت الجلسة وذهب كل في سبيله الا منترفيو فقد بقي مع المدير السابق الذي اوصى به هوبر واخبره انه

قد اتى للمصرف بارباح طائلة بمساعيه الحسنة ولذا يمكنه الاعتماد عليه في عدة امور فازداد هوبر منهُ نفوراً

وكان منترفيو في اثناء الاجتماع حين اطلاع الاعضاء على سجلات المصرف وخلاصة اعماله شاخص البصر في هوبر الذي داخله الريب في امره ولم يدرِ ما غرضه ولا سبب نفوره منه اما منترفيو فكان يحدق به لانه ظنّ اولاً انه ابن البارون لوران ديرت ولكن اشكل عليه خلو وجه الشبه بينهما ولم يكن هوبر ديرت ليشبه اباه البتة بل كان شبه جده تماماً فقال في نفسه هو ولا شك من اسرة ديرت التي منها البارون لوران فلا بدّ ان اتذرع به سلاحاً للانتقام ولذا لازمه ملازمة الظل للجسم واوعز الى مدير المصرف السابق ان يمتدحه لدى المدير الجديد حتى يتمكن من ادراك الارب

وقبل الوداع سأل المدير السابق هوبر هل تعرف في باريس احداً فقال لا فهمس في اذنه ان اعتمد على هذا الاميركي الجنوبي فهو آية في الدهاء والذكاء وقد اقنع كثيرين من موسري الاميركان ان يشتغلوا مع هذا المصرف واخص لك بالذكر الاميرة زامركو الغنية الشهيرة ·

ثم انصرف المدير السابق وطلب الى منترفيو ان يصحبه فأبى بحجة ان له شغلاً مع المدير الجديد فاضطرب هذا ولكن لم يسعه الا التلطف بهذا الرجل الثقيل الذي ابدى له غاية التجمل وعرض عليه خدمته مرارا فاحتار في هذا التزلف احتياراً

وبينا كان هوبر يوقع الرسائل التي سطرها الكتاب واذا بوقع اقدام ضخمة في الدهليز وصوت غليظ يسأل عن المدير فانبأه الخادم بخروجه فاندهل وقال لا اظن ان المسيو هوبر قد خرج فاجابه الخادم عفواً ياسيدي فأنت تطلب المدير الجديد

آجل فادخلني عليه سريعاً

— لا اظنهُ يقبل الآن احداً لانه يشتغل في توقيع الرسائل الواجب ارسالها بالبريد

— انبئهُ بقدومي فلا يلبث ان يواجهني سريعاً

وفيما كان يدفع له الرقعة المطبوع عليها اسمه قرع المدير الجرس فبادر اليه الخادم فامره بادخال هذا الزائر عليه حالاً لانه عرفه من صياحه انه صاحبهُ دربوكوف ابو ليلي

فاحسن استقباله وتبادلا ارق عبارات التحية

ثم سأل هوبر عن ليلي فانبأه بحسن صحتها وانشراح صدرها في باريس واعرب له عن شدة فرحها بقدومه مديرًا لشعبة المصرف الاميركي في تلك المدينة الزهراء لكنها استاءت لعدم تمكنها من الاجتماع بك مساء ذلك النهار لانها وعدت بتناول العشاء عند الاميرة زامركو فموعدنا الغد ان شاء الله

فلما سمع الشاب بكلمة (الاميرة زاركو) نفر قلبه وصمت متفكرًا في امر هذه الفتاة التي خلبت جنانه وقد طارت من يده لتوغلها في العشرة الباريسية ومخالطة الكبراء والامراء فصار الحصول عليها اعز من بيض الانوق

فقال له دربوكوف لماذا انت ساكت اجبني هل تأتي للعشاء عندنا غدًا انتظرك ام لا — آتي ان شاءت والدتي

— لا شك انها تريد فاليك عنوان اقامتي

ودفع اليه رقعة اسمه وعنوان منزله وودعه وخرج مهرولاً كدخوله دون ان يرى وجه م ترفير الذي كان قاعدًا على كرسي وراءه وقد تأمله مليًا في مرآة امامه ولبث يتفرس فيه كانه يذكر فيه صورة شاهدها منذ امد طويل فلما خرج قام منترفيو الى المنضدة وقرأ في الرقعة اسم هذا الضيف« غريغوري دربوكوف » وقال ما هذا الاسم الغريب اني لم اسمع به من قبل لكن صورته راسخة في مخيلتي فمن يكون ياترى

فلما عاد هوبر قال لمنترفيو ارجوك ان لا تؤاخذني لاستقبال هذا الرجل الاميركي فهو صديقي الحميم

— وهل هو غني كبير — صاحب عشرة ملايين

— وهل عنده فتاة بالغة سن الزواج نعم وهي بارعة الجمال

— لا شك انه قد جاء بها الى باريس اسوة بامثاله لطلب زوج لها من الامراء المفلسين — هذا ممكن وغير بعيد

— ما اخف عقل هؤلاء المتمولين الذين نرى منهم كثيرين يأتون سنويًا لهذه الغاية فلا يعدمون اميرًا خطيرًا قد اخنى عليه الدهر وعضه ناب الفقر فيشركونه باموالهم

الطائلة واظن ان هذا دربوكوف الذي يتردد الى بيت الاميرة زامركو سينجح في مصاهرة احد الامراء — وهل تعرف هذه الاميرة

— اعرفها وهي من اعز اصدقائي لكن عفواً يا عزيزي هوبر هذا احتلمت الث ومنا غبنا فسبي الآن وارجوك ان تتعشى معي هذا المساء

اشكرك من صميم الفواد ولكن لا اعلم ان كان يمكنني ان اترك والدتي

لابأس فان والدتك تكون مشتغلة هذه الايام بتدبير منزلها . اتمم عملك الآن وعند المساء نتعشى ثم نذهب معاً الى ملعب الاوبرا او ميدان الخيل

فصل خامس وعشرون

سهرة باريسية

بعد ان اتم هوبر ما لديه من المهام انطلق الى النزل حيث أعلم امه بدعوة منترفيو له ولبس افخر الملابس السوداء وذهب الى المطعم الذي عينهُ له ضافته فوجده مكتظاً بالخلق لما له من الشهرة الطائرة بطيب مآكله وكان منترفيو قد سبقهُ واعد له مائدة منفردة مزدانة باجمل الازهار وأمر فأُتي بالذ الالوان ونفيس الشراب واذكى الاثمار

وفي اثناء السهرة اخذا يتجاذبان الطف الحديث حتى افتتن الشاب بصداقة منترفيو الذي قال له من جملة الكلام : لعلك تتعجب من شدة محبتي لك من اول نظرة في هذا النهار خلافاً لسائر رفاقي الاميركان الذين . يحسن في عينهم تسمية شاب فرنسي لادارة المصرف

— يحق لهم التعجب من حيث شبابي واما من حيث جنسيتي فلماذا عجبوا

— لان جميع الاميركان نظير جدودهم الانكليز يعتبرون سائر من سواهم من الامم احط فهماً وادراكاً منهم . اجل يقرون بلطف الفرنسيس وظرفهم وتأنقهم في الاعمال ولكن يرون انهم دونهم في الصناعة والمالية

— وكيف انت لست من رأيهم — اني من اميركا الجنوبية اسباني المحتد فانا وانت اخوان من اصل لاتيني واحد وهذا ما امال قلبي اليك . وحباً بك

ابذل كل ما في وسعي لتدرك الفلاح في المهمة المنتدب اليها فاعتمد عليّ كعلى والدٍ محب تو كل صلاح ونجاح

فاغتر هوبر بهذا التودد وايقن باخلاص صاحبه رغماً عن نفور قلبه منهُ لاول وهلة فاخذ يقص عليهِ كيف توصل بكده وجده الى منصبه الرفيع وكيف خرج مع امه من فرنسا فقيراً ابن عشر سنين بعد موت والده الغني

فلما سمع منترفيو قصة الفتى قال في نفسه هو ولا شك ابن البارون لوران ولكن لا يحقق لي الامر الا الكنت سنترمون زوج عمته

ثم انتقل منترفيو الى ذكر حوادث ونكات لطيفة انبسط لها هوبر حتى كانت الساعة الثامنة مساء فانطلقا الى ميدان الخيل حيث تجري العاب مدهشة وبين اللاعبات فتاة بارعة بالفروسية اسمها ايريني دومنسكي كانت بهجة الملعب

ولما دخل هوبر الى الملعب انشرح صدراً بفساحته وجمال زخرفه ورأى الناس الوفاً ينتظرون ابتداء اللعب فلم يعرف احداً منهم الا انه وقع بصره على شاب ابن واحد وعشرين سنة جميل الصورة حسن الهندام فارتعش من مجرد مرآه فناداه منترفيو باسمه ارثور وساله عن صحة امه ليونيدة وابيه الكنت سنترمون

ثم عرفه بهوبر فتصافحا بالايدي ولم يعرفا انهما نسيبان الا ان هو بر قد شعر في نفسه بنفور بديهي من ارثور ولو كانت امهُ قد اخبرته بان الكنت سنترمون تزوج بعد وفاة عمته بامراة اخرى لكان حزر لا محالة ان هذا الفتى من ذلك الرجل

وكان ازدحام الناس في الملعب تلك الليلة عظيماً لان فارساً جديداً واسمه زفيريو كنتستينو من اشهر مهرجي لندن كان قد غشي باريس من يومين مع ابنته ماينا التي كانت من امهر فوارس عصرها واخذ كلاهما يبديان من الرشاقة في اللعب على الخيل ما ادهش الابصار وابهج جميع الحضار فكانت تصديات الاستحسان تقصف كهزيم الرعد وكان من زفيريو انه لما برز الى ساحة الملعب ووقعت عينه على عين منترفيو شخص بصره فيه مبهوتاً كما ان منترفيو احدق بهِ كانه يرى فيه شخصاً يعرفه منذ امد مديد على انه ظن انه قد يكون رآه في ملعب آخر

في احدى حواضر اوربا التي يطوفها اللاعبون سنوياً

وكانت ايريني قد حنقت على اللاعبين الجديدين اي حنق لانهما استلفتا اليهما جميع الانظار فلم يكترث اليها احد بعد ان كانت هي بهجة الملعب كل ليلة واشتد غضبها على الفارس فرنسيس مدير الالعاب الذي كان قد جاء بها الى ذلك الملعب وابرم معها عهداً الى اجل مسمى فعزاها منترفيو بهذا المصاب ووعدها بالمساعدة وقال لهوبر هيا بنا الى ملعب الاوبرا فقد حانت الان ساعة التمثيل

ثم خرج الرجلان مهرولين في الشوارع وكانا يتبادلان ارق الحديث الى ان افضى الكلام بهما الى سوء اداب الناس في باريس من حيث انكبابهم على الملاهي فاعلن منترفيو ان اكثر الرجال فيها ارقاء لسلطان الهوى وسترى بعينك في الملعب الذي نحن منطلقون اليه ان راقصة اسمها سلفرتي يتنازعها اثنان من كبار الاعيان البارون كنديا والكنت سنترمون ولا نعلم لاي منهما تكون

فقال هوبر : ألعل الكنت سنترمون هو ابو الشاب ارثور الذي سلمنا عليه من هنيهة

— هو بعينه وعنده غادة حسناء من اجمل النساء ساريكها عما قليل

فلما وصلا اتخذا لهما حجرة خاصة في اعلى الملهى يشرف الى سائر الحجر وما كادا يقعدان حتى اشار منترفيو الى حجرة قريبة فيها الكنت سنترمون وامرأته ليونمدة فاضطرب هوبر لمشاهدة زوج عمته لاول مرة واراد ان يخفي اضطرابه الا ان منترفيو الذي كان يرقب كل حركاته تحقق من تكوُّن وجهه انه ابن البارون لوران

ثم اخذ هوبر يتطلع الى الحجر المخصوصة المعلقة على جوانب الملهى وكانت مكتظة بالخلق وبينا هو يسرح النظر فيها قال لرفيقه اظن ان هذه المرأة المسنة هي الاميرة زامركو — استغفر الله عن هذا الخطإ الفظيع فلو سمعتك تقول عنها (مسنة) لكرهتك كل عمرها . واظن ان الفتاة التي بجانبها هي الانسة ليلي فتوردت وجنتا هوبر فقال « نعم هي بعينها »

فلم يخف اضطراب الفتى عن منترفيو الذي قال : لله درها ما اجمل

هذا الوجه الصبيح فلا شك انها ستحوز بين حسان باريس مقاماً علياً

ثم شرع اللاعبون يرقصون ويمثلون رواية تلك الليلة ويوقعون اطيب الالحان

اما هوبر فكان حاضراً بالجسم لكنهُ غائب بالعقل وفكره كلهُ عند ليلي

فلما خرجت الاميرة زاركو نزلت السلم وهي متكئة على ذراع ليلي فقال منترفيو لهوبر هل تريد ان اعرفك بالاميرة وقبل ان ينتظر جوابهُ جذبهُ بيده وقدمهُ لها فصافحها باليد وصافح الفتاة بسرور ماعليهِ مزيد وبعد كلام يسير اعتذرت الاميرة بدنو مركبتها التي صعدت اليها مع ليلي فلبث الشاب شاخص النظر بالعجلة حتى غابت عن الابصار

ثم مرَّا بالكنت سنترمون وامرأته ليونيدة فاراد منترفيو ان يعرف صاحبهُ بهما فنفر واعتذر بعدم موافقة الفرصة فازداد تأثيره بصلة الرحم التي بين الفريقين واكتفى بالتسليم على ليونيده اياه فاحمر وجهها واجابتهُ مضطربة لمشاهدة نسيبها بين يدي عدوها فادركت ان وراء ذلك لداهية كأنَّ دودة ضميرها اخذت تصور لها سابق اثمها وتتوعدها بعقاب قريب

فصل سادس وعشرون

في التصادف الغير المنتظر

ولما عاد سنترمون وامرأتهُ الى قصرهما تناولا شيئاً من الطعام ثم دخلت ليونيدة الى غرفتها وقلبها منقبض كمداً فذرفت عبرات حرَّى واخذت تتأمل تعاسة حياتها مع زوجها الذي لم يفتأ منذ اقترانها به مدة عشرين سنة مستسلماً الى داعي الهوى والتردد الى الملاهي وركوب المنكرات وجعلت تخاطب نفسها وتقول يحسدني الناس على عزي وجاهي وغناي ولكن ليتهم يعرفون ما يلتهب في الصدر من جمرات الهم والكدر آه اني ارى السماء سوداء وكأني بعينيَّ تنظران سيف الانتقام معلقاً فوق رأسي

ثم ركعت تصلي وتتنهد وتستغفر الله عما اقترفتهُ بتسبيبها اختفاء الابنتين وكانت تقول ماذا جرى بهما يا ترى والى متى يخفيهما منترفيو وهل يقصد ان ينغص كل عمري بذكراهما . آه تبًا لهُ من منافق اثيم وشيطان رجيم ليتني اطعنهُ يوماً على غرة طعنة قاضية

ولكن ما الفائدة وقد انبأني ان بعد موته يظهر كل شيء . فاتلك الله ما اقسى قلبهُ فهو يعذبني منذ عشرين حولاً والى الان لم يشف مني غليلاً . اوَّاه يا الهي رحماك ياربي اغثني ولكن انى لي الرحمة ولست لها مستحقة

وقضت السواد الاكبر من الليل وعوامل الهواجس تتنازعها حتى اطارت الكرى من اجفانها وكانت تارة تبكي وطورًا تصلي وحينًا تخوض بحار الافكار ثم خرجت من الغرفة تسلية لهمها ولما وصلت الى حجرة ابنها دخلتها لتاثم وجهة الوضاح ولكن ما اشد ما كان اندهاشها لما رأت سريره فارغًا وفراشهُ لم يمس منذ ثلثة ايام فزاد ذلك في طين غمها بلة ولم تكن لترتاب في شرود ابنها في فلوات المعاصي على منهاج والده ولكن تجاوز الحد في قضاء الليالي برمتها ساعيًا وراء اللهو مستترًا تحت جنح الظلام فعادت الى غرفتها كئيبة وكان قد اضناها الغم فارتمت على السرير ونامت الى الصباح

وعند الضحى اطلت ليونيدة من النافذة فوجدت ولدها ارثور مشتغلًا في تمرين فرس كريم في باحة الحديقة فعزمت على توبيخه بما هو اهلهُ ولكن لما دخل عليها باسمًا صباحًا وقدم لها طاقة من الازهار وقبل يدها انحلت عزائمها من شدة محبتها وخافت ان تنغص عيشة في سائر النهار ولاسيما انهُ دعاها للتنزه على الخيل في الغابة الغناء

وكان ذلك اليوم اجمل ايام السنة فاسرجت الخيول المطهمة وركب سنترمون وامرأتهُ وابنه الى غابة بولون الشهيرة بظاهر باريس فصادفوا منترفيو يركض جواده خببًا فسلموا عليه ورافقوه وبينما كانوا يتبادلون الحديث واذا بامرأة برزت على حصانها من اقصى الاجمة يتبعها فتى من ساسة الخيل فاحمرت وجنتا ارثور عند وقوع عينه عليها فسألت امهُ منترفيو عنها فقال هي ايديني دومنسكي التي كانت اية الرشاقة في ملعب الخيل لكن انكسف نورها بقدوم الفارس فرنسيس

— ومن هو هذا الفارس الجديد

— اسألي ارثور فهو اعلم به مني وكان امس مشدوهًا بمشاهد الملعب

— كنت اذًا امس يا ابني في ذلك الملعب وقضيت الليل كلهُ ولم تخبرني

— نعم قتلت الليل الطويل للتسلية

ثم صمت الجميع وساروا قليلاً فشاهدوا من بعيد ثلثة فرسان بينهم فتاة بارعة الجمال فقال ارثور لابيه الا ترى هذه الغادة الحسناء ماينا كنتستينا بالحقيقة انها لاجمل من عرفت من النساء

فاضطرب سنترمون لاول وهلــة ولم يكن رآها من قبل لكن قلقهُ ازداد لما تفرس فيها وذكر ان صورتها لم تكن عنهُ غريبة على انهُ لم يتمكن من معرفتهـا فسأل منترفيو عنها فقــال عليك بابنك ارثور فهو الخبير بدواخل ذلك الملعب وخوارجه

فسرَّ ارثور من تفخيم منترفيو له فانشأ يقول :

ان الشاب فرنسيس هــو من امهر فرسان عصره لانهُ يقفز من فوق اثني عشر حصاناً قفزة واحدة والرجل الكهل الذي معهُ هو المهرج المشهور زفيريو الذي يدور على رجليه كحجر الرحى مدة طويلة وهو ابو الفتاة مايــا التي بجانبه ولا يخفى ان الحسد بين اصحاب الحرفة شهير فلما جاء هولاء الثلثة الى الملعب امتعضت ايريني وطفقت تطعن عليهم وتشتمهم سرًّا وعلانية وما اتمَّ كلامهُ حتى مرَّ الثلثة مرَّ السحاب واقبل من جانب الغابة الايمن فتاة كاعب بديعة الخَلق والخُلق وتحتها فرس اخف من النعامة فسألت ليونيدة منترفيو عن هؤلاء ايضاً

ــ الا تذكرين انك رأيت الفتاة ليلة امس في حجرة الاميرة زامركوفي الملهى واسمها ايلي ددبوكوف الاميركية ــ لاشك بانها غنية جداً

ــ نعم ان اباها صاحب ثروة طائلة تقدر بملايين

ــ ومن اين تعرفها

ــ شاهدتها عند الاميرة مرارًا وكنت قد عرفت اباها عند المسيو هوبر ديرب الذي عين من عهــد قريب مديرًا للمصرف الاميركي

فلما سمع الكنت سنترمون هذا الاسم ارتجف قلقًا وسأله متحققًا : هل تأكـدت ان اسمهُ هوبر فابن من هو ياترى فاجاب منترفيو بهدوء وقد شعر باضطراب صاحبه : لا اعلم لاني لم اسأله ثم قال لليونيدة : بما انهُ صرافك ساعرفك به متى شئت

فتجلدت ليونيدة وقد شزرت مخاطبها شزرة وفكرت بان تعيين ابن البــارون

لوران شفيق صرتها لم يأت عوا بل توهمت انه نتيجة سعي مترميو الحاقد عليها فاخذت تتوقع منهُ الانتقام

اما سنترمون فثاب اليه رشده وذكر ايامهُ الاولى وزوجتهُ هنريت وابنتيه المفقودتين وغاص في لجة الحزن والهم وقضى سائر وقت النزهة مع امرأته صامتين كئيبين في حين ان ابنهما ارثور كان يلعب ويضحك وان عدوهما مترفيو كان يتبسم تبسم اشتفاء

فصل سابع وعشرون

نزهة صباحية

مضى زفيريو وابنتهُ مابنا نحو شهر في باريس ولم يخرجا ولا يوماً واحداً الى ظاهرها للنزهة بل كان دأبهما المكث في نزلهما من الصباح الى الظهر ثم كانا يذهبان بعد الظهر الى الميدان للتمرن بالالعاب استعداداً لتمثيلها ليلاً

وكانت مابنا رغماً عما في الملعب من بنات الهوى والشبان الاغرار ملازمة جانب الحياد عن كل عشرة رديئة حافظة واجبات الادب على منوال الشاب فرنسيس الذي كان لها ولابيها من اخلص الاصدقاء وكان عفيفاً يكره المسكرات ولم يتردد قط الى الحانات ولا يشتغل الا في تحسين سياسة خيله وتمرينها حتى طارت شهرة براعته في الافاق وتسابقت الملاعب الى ادخاله في خدمتها

فاتفق يوماً ان معلمه مدير المضمار الجديد قد ارتبك في امره من هرب احد كبار اللاعبين عنده ولم يجد في تلك المدينة من يقوم مقامهُ فسأل فرنسيس لعلهُ يعرف احداً فدلهُ على زفيريو وابنته وكانا يومئذٍ في لندن فطلب اليه ان يستحضرهما فكتب الى زفيريو اولاً وثانياً وثالثاً فلم يقبل حتى اجزل لهُ الاجرة اربعة اضعاف

وكان فرنسيس يعرفهما ايام كان يشتغل في ملاعب لندن وقد جاورهما سنة كاملة فسرَّه حسن سلوكهما ولاسيما رصانة مابنا وقد تمنى لو تكون شريكة عمره فلما جاء باريس فطن اليها فسعى باستقدامها مع ابيها لعلهُ يبلغ ما تمنى

الا ان زفيريو لم يرضَ بالاتيان الى باريس الا مرضاة لخاطر ابنته مابنا التي

تجولت في اكثر حواضر اوربا ما خلا حاضرة فرنسا فلما سنحت هذه الفرصة الحت عليهِ فرضي ولكن اشترط عليها بانهمـا يبتعدان عن عشرة الناس ما امكن فلما جاء باريس لزما جانب الحياد واتخذا مقـامهما في نزل قريب من الملعب وكثيرًا ما كان فرنسيس يرجوهما ان يصحباه للتنزه في ظاهر باريس فكانت الفتاة ترضى خلاف ابيهـا على ان زفيريو لشدة الحاح فرنسيس عليهِ واكراماً لخاطر ابنته رضي اخـيرًا ان يذهب الى تلك النزهة الصباحية فركبوا احسن الجياد وبينا كانوا في اول الغابة صادفوا منترفيو مقبلًا فمر من امامهم ولم يعرف منهم احدًا رغمًا عن اشتباهه بمعرفة زفيريو فلما ابتعـد عنهم قهقه زفيريو حتى كاد يستلقي وطفق يهرّج ويلفظ النكات اللطيفة حسب عادته يوم كان في لندن فاندهل فرنسيس ومايناًمعـاً من هـذا التغير البـديه لانهُ في كل ايام الشهر الذي قضاه في باريس كان كئيباً مقطب الوجه كأنهُ مكره على القعود فيها ومما شرح صدريهما ان زفيريو قد ابدى استحسانه لهذه النزهة الصباحية واعلن انها تفيده وانهُ يحب اعادتها تكرارا فقضوا هنيهة من الزمان بين لعب وضحك وتهريج وفيما هم على هذه الحال من الانبساط اذ اقبل فرس يجري كالسيل وعليهِ فتاة من ربات الجمال تستحثهُ فلما دنت من زفيريو كادت تصدم فرسهُ فشزرتهُ وأنبتهُ بكلمة لطيفة ثم مرت وكان ابوها دربوكوف على قيد عشرة امتار فاقبل مغضباً واستعد زفيريو لاستقباله بنكتة مناسبـة للمقام فلما التقيا نالعثم لسان دربوكوف فاجتاز دون ان ينبس ببنت شفة واضطرب زفيريو ولم يبدِ حراكاً وعاد من نشوة السرور الى ما كان عليه من الغم والتقطيب

فتنغص فرنسيس ومايـنا من هذا الانقلاب السريع مع انهما كانا قد تأملا بقرب انفراج الكربة واعتياد الثـلاثة على سكنى باريس وعللا الرجاء بتوثيق عرى الاتحاد باقتران المحبين اللذين كانا تتفـاهمان باشارات الحب للمحبوب ولو لم يبح الواحد للاخر بما طي القلوب

﴿ فصل ثامن وعشرون ﴾

لمة من ترجمة زفيريو مع ابنته

لمـــا اشكل على فرنسيس سر تقلب زفيريو من حال الى حال عهد الى مايا في استجلاء الامر وتركهما منفردين فجعلت الفتاة تعانقه وتبدي من مظاهر الغنج والدلال ما فتن قلبهُ وسلب جنانهُ لكنها لم تستفد منهُ الا زيادة حب لها وانعطاف اليهـــا على نحو معاملته لهـــا كل عمرها ولاسيما منذ وفاة امهـــا

ولم تتنص الا لذكري تلك الام الحنون وكانت تظن في مخيلتها ان لها ابوين الواحد كان رقيقاً لطيفاً لكنهُ لم يكن يلتفت اليهـــا قبل وفاة امها وانها في تلك الاثناء كانت ساكنـــة في قصر فسيح مكتنف بالاشجار والازهار تحت سماء نقيـــة تتلألأ فيها الشمس الباهرة الابصار فلما ماتت امهـــا انتقلت حالاً الى ارض قاتمة لا تنقطع منها الامطار ولا يفارقها الضباب وان اباها الاول تحول فجأة الى ذلك الرجل الضخم الجثة الغليظ الملامح لكنهُ انقطع من ذلك الحين لخدمتها وقضاء كل مطالبها

الى هذا الحد كان موقف ذكرى الفتاة ولم تكن تستطيع ان تتعداه الى ما وراء مما كانت تظنه أضغـــاث احلام على انها كانت مؤكدة ان اول كلمة سمعتها من ابيهـــا هذا الجديد كانت « ياسيدتي الصغيرة » وكثيراً ما كانت تبسط لابيهـــا هذه الافكار وتعرض له هـــذا الاذكار فكان يموه عليها الحقيقة ويلهيهـــا ببعض الالعاب والقصص دون ان يدعها تأبه لمـــا يخامره من الاضطراب حتى لا يداخلها بعض الارتياب ثم كانت تذكر امامهُ احياناً اختهـــا الصغرى التي كانت غاية في اللطف والجمال فكان يخبرها بانها ماتت ايضاً وهي تشبه امها وكثيراً ما كانت تفاجئه بمثـــل هذه الاسئلة فكان يحتـــار اولاً في الجواب ثم تتبادر الى ذهنه بعض القصص فيلفقها لها تلفيقاً

وكان زفيريو منذ صبوتها قد اجتهد في تهذيبها على شاكلة بنات الكبراء وكان يكد ويسعى فوق طاقته ليكسب ما به يقـــوم باودها لكن جميع المعلمات الانكليزيات اللاتي

عهد اليهنّ في تربيتها كن رديئات فكانت ترفض البقاء في المدارس الداخلية واعلنت له انها تفضل ان لا تفترق عنهُ البتة فلم يسعهُ الاّ مجاراتها خوفاً من تكديرها وكان قد حلف انهُ لا ينغص لها عيشاً ما طال العمر

وكان زفيريو في اوائل دخوله في الملاعب يربح قليلاً فكان يقتصد غاية الاقتصاد ممتنعاً عن كل الملاذ حتى تعاطي الشراب كي يقوم بارضاء الفتاة ثم برع في هذا الفن وازداد راتبهُ حتى اصبح في عيش هنيء فاتفق انها رافقته يوماً الى الملعب فسرّ بها المدير وكل الحاضرين ومال قلبها كل الميل الى ركوب الخيل الذي كانت تهواه في عهد ابيها الاول

ولم يكن زفيريو ليحب ان تجري ابنتهُ في الشغل مجراه ولا ان تتعلم الفروسية لتلعب مثلهُ امام الناس بل كان في نيته ان يتمم تهذيبها وتثقيفها في العلوم كما لو كانت في حضن ابويها فلم يمضِ عليها بضع سنوات حتى اتقنت اكثر العلوم اللازمة ولما صارت ابنة اثنتي عشرة سنة اخذها معهُ الى ليفربول حيث طلب للتمثيل في احد الملاعب وفي هذه الاثناء طلبت ان تتعلم قواعد دينها وتستعد لتناول القربان كسائر لداتها

فسر زفيريو مما بدا منها من روح التقوى ودفعها الى كاهن الرعية ليعلمها ما يلزم ولكن لم يكن ليفتكر في ما وراء ذلك من طلب الاوراق المثبتة كونها مسيحية والمثبتة بتاريخ عمادها فاحتار اولاً فيما يصنع وماذا يقول لكنهُ لاذ بالحيلة واسر الى الكاهن ان الفتاة ولدت له من امرأتهِ التي تزوجها في اسبانيا دون واسطة الكهنة فاهمل تعميدها وتقييد اسمها في سجلات نفوس الحكومة

فصدق الكاهن تلك القصة وبعد تهذيبها اياها يلزم عمدها ثم ناولها القربان ودفع الى الى ابيها اوراقاً رسمية مثبتة باسمها (مابنا كنتستينا) بنت زفيريو كنتستينو ومحل مولدها في اسبانيا ويوم اعتمادها في كنيسة ليفربول

فما اشد ما كان فرح زفيريو لما رأى ثبوت ابوّته للفتاة بصورة رسمية فاكرم الكاهن صلة جزيلة واحسن الى الكنيسة بالفي فرنك واشتغل في مدة السنتين اللتين قضاهما في ليفربول بتهذيب الفتاة على احسن المبادىء وانارة ذهنها بالعلوم والمعارف

ثم لما اشتهرت حذاقة زفيريو طلبه مدير الملعب الكبير في لندن باجرة موافقة فقدم الى تلك الحاضرة وعول على استئجار بيت حسن في ارباضها فتيم فيه ومايا معتنية بتدبيره وهو يشتغل في الملعب في اوقات معلومة ثم ياتي الى بيته ليقضي سائر الوقت بعيش رغيد لكن مايا بعد عودها الى لندن اعربت لابيها عن عزمها بان تتعلم ركب الخيل وتمثيل الالعاب في الميادين العمومية لكي تكون معه ليل نهـار فابى زفيريو اجابتها الى طلبها وافهمها انهُ يريد جعلها كاحسن السيدات المخدرات فاصرَّت على وجوب مرافقتها لهُ اسوةً به

وبعد ان قاومها زفيريو ثمانية ايام اضطر الى مجاراتها اعتقاد ان ذلك من اجمل اسباب سروره لان قلبهُ كان يود ان لا تفارقه البتة

وكانت مايا في اول ايام تمثيلها في الملاعب بنت خمس عشرة سنة بارعة الجمال هيفـاء القوام رشيقة الحركة بوجه صبوح وعينين نجلاوين وشعر مسترسل على الاكتاف كسلاسل الذهب فكانت اذا برزت الى الميدان فتنت الجنان وسترت طاعتها البهية ما كانت تأتي من الخلل في الالعـاب الرياضية فطارت شهرتها في كل المدينة حتى كانت مقاعد الملاعب تكتظ بالـناس المقبلين افواجاً مما دعا المدير الى زيادة اجرتها مع اجرة ابيها اضعافاً

فاقاما في لندن على هذه الحال حولين كاملين جمعا فيهما شيئاً كثيرًا من المال ثم لـما شاع ذكرهما في الافاق توارد عليهما الطلب من كل الجهات فانطلقا الى اسبانيا وايطاليا واميركا وغيرها ولكن لم يقبلا السفر الى فرنسا البتة

وكانت مايا تشتهي زيارة باريس لما كانت تسمع عن جمالها وحسن انتظامهـا وتتذهل كيف كان ابوها يرفض كل طلب اليها بحجة ان اللعب في باريس يحتـاج الى براعة فريدة هما بعيدان عنها فكان يتمهل وما زال يمتنع عن غشيـان باريس حتى اجتذبه صديقه فرنسيس الى الملعب الجديد

وكانت مايا تثق في نجاحها في تلك الحاضرة فبذلت قصارى براعتها حتى ادهشت كل من سمع ورأى وكانت تظن ان اباها سيسرّ والحالة هذه من المكث في باريس

فرأت الخلاف ولم تشهد منهُ في كل تلك المدة الا وجهاً مقطباً وصدراً منقبضاً ما خلا تلك الساعة التي انشرح فيها اثناء النزهة الصباحية على انهُ ما لبث ان عاد الى كآبته فبذلت كل ما في وسعها لاستجلاء سريرته ولكن ذهب سعيها طلقاً

وكانت تراه احياناً يلتفت ذات اليمين وذات الشمال كأنهُ خائف من عين رقيب او غدر عدوّ فأمنهُ فرنسيس واعلن انهُ يخلص لهُ الصداقة والولاء ما طال المدى فانتعش زفيريو كأنهُ وجد لهُ عضداً يمكن ان يقوم مقامه في الذود عن ماينا اذا ترات به بعض المصائب .

❁ فصل تاسع وعشرون ❁

لما شخص دربوكوف الى باريس كان في نيتهِ ان لا يلبث فيها الا اياماً معدودة لكن ليلي راقتها سكنى تلك الحاضرة وتعلق قلبها بملاهيها وكانت تزداد بها شغفاً يوماً فيوماً حتى انها رغبةً في رسوخ قدمها فيها استمالت اباها الى مشترى قصر فسيح في إجمل احيائها وقد اضطرتهُ الى مشتراه بحيلة لطيفة اقتنصتهُ بها ساعة كانت تداعبهُ اذ سألتهُ : يا أَبتِ ان رجوتك ان تشتري لي قطعاً من الحلى بعشرة الاف ليرة فهل تأبى فاجابها : لا ولو كان ثمنها ضعفين لما بخلت بها عليك فقالت لهُ : بالقرب من الشارع الكبير قصر جميل مباع بتسعة الاف وخمسمائة ليرة فقط فما أكثر ما احبك لو اشتريتهُ فننبسط فيه ما دمنا في باريس

وما كان دربوكوف لينتظر من فتاته الجميلة ان تأخذه بهذه الحيلة فاضطر الى مجاراتها بالرغم عنهُ واشترى القصر وباشر بتأثيثه بافخر الرياش على نسق بيوت الامراء وعيون الوجهاء وكانت ليلي تشتغل في ذلك اكثر ساعات النهار وتتجوَّل بنفسها في اعظم المخازن والمتاحف لتزيين القصر بكل انواع الزخارف وكانت عند المساء تعرض مشترياتها على والدها فكان ينشرح لها صدراً لكنها لاحظت انهُ في مساء اليوم الذي خرجا فيه الى النزهة الصباحية كان عابساً تائهاً في دياجي الافكار وكانت كلما عرضت عليهِ شيئاً من نفائس مشترياتها لا يكترث اليه ولا يجاوبها حتى اخذ منها القلق كل مأخذ فانطرحت على صدره وجعلت تستفهم عن سبب كدره فموَّه عليها بقوله انه تشاءم من

ذلك الصباح من حين صدم جوادها ذلك الفارس الغايظ

فقهقهت ليـلي حتى كادت تستلقي وقالت له : ما هذا الا عارض قد زال فما لنا والاشتغال بذلك ثم عادت الى عرض تخفها عليه فتظاهر بالانبساط كعادته ولكن عوامـل الخوف والاضطراب ما برحت تتنازعه

وفي اليوم التالي قصدت ليلي ان تزور ام هوبر وتدعوها مع ابنهـا للعشاء وكان قلبها يتوق الى مرأى حبيبهـا الاول الذي لاجله عولت ان تطيل مكثها في باريس

فلما وصلت الى النزل خفق قلبهـا اضطراباً وصعدت الى الطابق الثالث وابوها وراءها فشـاهدت ام هوبر امام منضدة تكتب حسـاب ذلك اليوم فرحبت بها ترحيباً وقامت لمعانقتها ولكن توسمت في ذا الاستقبال تكلفاً لم ترَ مثله في نيويرك حيث كانت تبدي لها من الوداد اخلصهُ فاندهلت من هذا التغير ولم تدر له سبباً

ثم زاد عجبها لما دعتها للعشاء مع ابنها في ذلك المساء فاعتذرت عن نفسها باشتغالها في تدبير منزلها وعن ابنها بانهماكه في اعمال المصرف وحسـاباته في الايام الاولى من استلامها فامتعضت من هذا الرفض الغير المنتظر وقالت في نفسها « عذر غير مقبول العلها تعني بتدبير منزلها في الليل أوَ يشتغل ابنها في مصرفه ليلًا او ليس عندهما ساعة فراغ للاكل مساء . ليس هذا العذر صحيحاً وانما وراء ذلك اسباب غامضة»

فخرجت الفتاة حزينة منقبضة الصدر قلقـة الفكر وانزوت في العجلة تتنازع نفسها عوامل الهم والغم ثم قالت لابيها ماذا جرى على ام هوبر ياترى اين محبتها القـلبية ومودتها الوالدية التي عاملتني بهما في اميركا فاجابها اباها وقد حزن لتكدرها : لعلهـا خجلت من زيارتنـا لها في حين ان منزلها لايزال غير مرتب وبدون ان نعلمها

— كلا بل لابد لهذا الجفاء من علة اخرى . ومع ذلـك ألم يحسن هوبر مقابلتك بالامس — بلى هو لطيف ابيس دائماً

ثم سارت العجلة بهما الى الغابة فجعلت الفتاة تفكر في تلك الاسباب ضاربة اخماساً باسداس حتى لاح لهـا بارق ظن تخيلت انه الباعث لهذا الجفاء الا وهو افتخـارها وتكبرها بارتقاء ابنهـا الى ذلك المنصب الرفيع حتى توهمت انها صارت اجلّ من ان

تخالط فتاة الحقل الخاملة النسب ولو كانت اغنى الاغنياء

على ان هذا الفكر اغضبها ودفعها الى نوع من العجرفة فقالت في نفسها : لماذا تفاخرني ام هوبر وانما الفخر اليوم للنسب فوق الحسب الا ترى كيف انفتحت في وجهي ابواب الامراء والكبراء في باريس ولم ينظروا الى حسبي وصبغتي بل الى مالي وثروتي او ليست الاميرة زامركو تحسبني كأعز صديقاتها وتناديني كاحدى بناتها

وما زالت هذه الافكار تناجيها حتى دنت من بيت الاميرة فصعدت اليه مع ابيها لتناول الشاي بعد العصر فوجدت عندها بعض الاوانس والشبان يتناولون الحلواء بين هرج ومرج فقاموا جميعا لاستقبالها فاذهلها هذا الاكرام عما خالجها من ذلك الاغتمام وقالت اين عين ام هوبر لترى مكانتي لدى هولاء الاعيان الكرام

ولما دخل دربوكوف اضحكتهم هيئتهُ القروية واذهلتهم خشونتهُ بالنسبة الى لطف ابنته فجعلوا يتغامزون عليه واخذت الاميرة تعرفهُ بكل منهم على حدة فلم ينتبه الى احد الا الى رجل كهل فى صدر الصاعة قد استلفت بصره اليهِ لاول وهلة وقد شام منهُ سوءا حتى اذا وصلت اليهِ الاميرة قالت لدربوكوف هوذا الشفاليه منترفيو من اخلص اصدقائنا ولاشك انهُ سيكون لك من احسن الاصحاب لانكما ابناء وطن يكاد يكون واحداً

فلما سمع دربوكوف اسم منترفيو نابتهُ البرداء وتغيرت سحنتهُ فتجلد كي يخفي اضطرابهُ وجلس ولم تعد اليهِ روحهُ الا لما رأى منترفيو يخاطبهُ خطاب غريب يجهلهُ فنشط وجعل يلاطفهُ لكنهُ داخلهُ الريب في ما القى عليهِ من الاسئلة بشان تربية المواشي كمثل الزمان الذي باشر فيه هذه المهمة ورأس المال الذي استعان به وقد لحظ انهُ لم يصدقهُ لما قال لهُ انهُ بعرق جبينه بلغ الى تلك الثروة رويداً رويداً بعد نيف وعشرين سنة

فانقطع عند هذا الحد حديثهما وانتبها الى حديث الجماعة وكانت ليلي تسترعي اسماع الجميع وبينما كانت مسرورة بنجاحها في استمالة الالفة الباريسية عاودها الفكر فى ام هوبر وقالت ايضاً « اين عينها الان فترى »على انها توسمت فى وجه منترفيو شوماً

لانهُ لما جاء بذكر هوبر فوّق اليهـا الحاظاً احد من السنـان فذعرت واستشعت من وراء ذلك الاحداق انهُ يريد لهـا ولحبيبها هوبر شرّاً فتشاءمت منهُ وكرهتهُ واوعزت الى ابيها بالانصراف فقام يودع الاصحاب ولما وصل الى منترفيو صافحه باليد متلطفاً وسألهُ ان يزور قصره متشرفاً

فاستاءت ليلي من دعوة هذا الرجل المكروه ولما خلت بابيها قالت لهُ : ان جاء هذا الرجل فلا اخرج لمقابلته لان قلبي يمقتهُ مقتاً . لكن ظهر لهـا ان اباها قد ارتجف قالت لهُ : هل تكدرت مني يا ابت فقال لها كلا وانما لا يوافق احتجـابك عن رجل اكرمني ولاطفني طويلاً فمن اللياقة ان تحسني مقابلتهُ كسائر الناس . . . ولا ينبغي ان تكدريه بشيء بل لاطفيه كعادتك . كي لا يصنع بنا شرّاً هذا ما اريده منك ياعزيزتي ليلي

قـال دربوكوف هذا وهو يختلج من شدة الجزع وابنتهُ شاخصه فيه مندهشة من تغير اطباعه فانه بعـد ان كان الى ذلك اليوم لا يكترث الى دواعي اللياقة ولا يهمه رضى الناس او غضبهم ولا يلتفت لاخلاله بالعوائد الباريسية وجدته اليوم منقاداً الى هذه القوانين صاغراً بعدان كان يحتقرها مكابراً وطفقت تفكر في مـا عسى ان يكون هذا الرجل منترفيو الذي سطا على قلب ابيهـا وهو كالاسد الضرغام فاصبح جبـاناً كانهُ يقوده بزمام فانفردت وفي فؤادها غصة من حوادث الايام

﴿ فصل ثلثون ﴾

في ظهور الابنتين

خرج منترفيو من بيت الاميرة وقلبه طافح فرحاً لمصادفته دربوكوف الذي تذكر فيه صورة خادمه بوك الذي كلمه بنقـل الفتاة الصغرى الى اميركا فدخل غرفتـهُ واخذ يرقص طرباً ويقول ها قد عثرت على ضـالتي المنشودة فاستعدي ياليونيدة

ثم اخرج من خزانتـه صورة النوتي بوك وتأملها فاذا هي طبق دربوكوف تماماً فلم يشك حينئذٍ انهُ هو نفسـه وقد قدّر انهُ اشتغل بالخمسة والعشرين الف فرنك التي اعطاه اياها فربح وافلح وصار ذا ملايين ولعل ليلي التي يدعي انها ابنتـهُ هي احدى

الفتاتين التي سلمتهُ اياها يوم خطفهما

فتمثل منترفيو من فرط السرور وقال في نفسه سقياً لي ما اعظم حظي فان الايام قد مهدت لي الان سبل الانتقام بعد انتظار عشرين من الاعوام وقد حان وقت الانتقام فلك يا ليونيدة جزاء فعلك الذميم فبشري نفسك بعذاب اليم

لكن منترفيو اراد ان يتحقق بطريقة قانونية انهُ اصاب المرمى بمعرفة دربوكوف واحتار في كيف الوصول الى المرام لان صاحبهُ كان اوفر منهُ مالاً واقدر على خذله وابطال مساعيه ولعلهُ يطرده من قصره ولا يمكنهُ من مواجهة ليلي ولا مس قلامة ظفرها لان المال اليوم هو اساس القوة وبه يستطيع المرء كل الاعمال فلم يرَ من وسيلة اقرب لادراك الارب من رسالة يكتبها لصديقه مدير المصرف العام في نيويرك فاخذ قرطاساً وقلماً وكتب لهُ

" عزيزي

« جرَّتني الصدفة في باريس الى الارتباط بعلائق الصداقة مع المسيو دربوكوف احد اصحابكم لكن قبل الدخول معهُ في اشغال هامة رغبت ان اعرف بالتدقيق حالة ثروته ومنشأها واصل اسرته واسرة امرأته وبما انهُ يتوقف على هذه الاعلامات امر عقد زفاف ابنته الانسة ليلي الى شاب من اشرف الاسرات الباريسية ارجوكم ان تكرموا عليَّ بالجواب المدقق باسرع ما يمكن ولا حاجة لاعرب لكم عن استعدادي لحفظ جوابكم طي الكتمان كما ارجوكم ان تبقوا سؤالي في سركم وسلفاً اشكر لطفكم »

وحسب منترفيو لوصول الكتاب ثمانية ايام وثمانية اخرى لورود الجواب فرغب في الابتعاد عن باريس كي لا يضطره الاجتماع ببعض الاصحاب الى ابداء ما يتنازع نفسه من عوامل الفرح او الاضطراب وانطلق الى بلجكا قتلاً للزمان وقد طالت في عينيه تلك الايام حتى خالها عشرة اعوام على انهُ تمويهاً على سنترمون وليونيدة كتب لهما من هناك يشرح لهما ما لاقى من الانبساط والحبور في تلك النزهة

ولم يرجع الى باريس الا في اليوم الخامس عشر وهو ميعاد ورود البريد من اميركا فلم

يتردد مدير المصرف في نيويرك ان يبعث على الفور بالجواب الاتي :

« سيدي العزيز

« لا استطيع الان ان انبئك لسوء الحظ الا ببعض افادات مبهمة لكن اظنك لا تطيق صبرًا طويلًا على معرفتهـا بالتدقيق فلذا اوافيتك بجل ما اعلم عن المستر غريكوري دربوكوف الذي هو رجل اديب فاضـل لكن اصلهُ على ما اظن مجهول خامل نظير كثير من اغنياء بلادنا ولم اسمع قط شيئاً عن امرأته ولا عن اسرتها ولعلهـا تكون احدى القرويات او العاملات الحقيرات اما ثروته فلم تظهر لا من نحو اثنتي عشرة سنة ولم يكن يشتغل من قبل الا باشغال طفيفة حتى جمع نحو ثلثـين الف دولار فاشترى حقولاً فسيحة واستثمرها فاصبح بعد ثلث سنين غنياً صاحب ملايين

« وبالجملة فان المستر دربوكوف قد ادرك الثروة بعرق جبينه وكد يمينه وحاز في نيويرك مكانة معتـبرة وهو صادق في معاملاته وقد عرفت ابنتهُ يوم رافقت اباها الى نيويرك فاذا هي من الطف الاوانس التي تستحق اجل نصيب هذا واقبل مني خالص التحية والسلام »

فاكتفى منترفيو بهـذا الجواب الذي اوضح لهُ ان دربوكوف قد كذب عليه لمـا قال انهُ حصل على ثروته من عشرين سنة فما قبل وخاطب نفسـهُ يقول « ان التوني غريك بولك كان من عشرين سنـة خادماً في بيتي . هو نفسه الذي حرّف اسمـهُ فجاء غريكوري دربوكوف هو هو بعينه ووجهه ولحيته وقد عرفني هو من اول لحظـة فاضطرب امّا انا فما اشد بلاهتي اذ ترددت في معرفته اما الانسة ليلي فلم تُعرف امها فهي اذاً احدى الابنتـين . . . اه يا ليونيدة هوذا سيف الانتقام في يدي . . . نعم صبرت عشرين سنة ولكن لم يذهب الصبر سدًى »

وبينما هو ثمل بنجـاحه تنغص لفكر فاجأه وقد وخزه ضميره وخزه لهُ لما اقترف آثامهُ الاولى اذ قال في نفســه : لا ابلغ المرام الا بتضحية هذه الفتاة البريئة فما ذنبها حتى اسومها التعذيب من غضاضة عمرها . ولكن ما العمل تبّاً لها . . . فلا يمكن الانتقام ان لم يضحّ ببعض ابرياء الانام

وخرج منـــترفيو ذلك اليوم نشيطاً بشوشاً يمازح اصحابه ويسايرهم على غير عادته مما اذهلهم عموماً ولاسيا الكنت سنترمون الذي عهد به رجلاً رصيناً متحرزاً في كلامه غير مكترث الى شيء من امور العالم فقال له متعجباً : يبين انك كففت الهم والرصانة في بلجكا وهذه اول مرة رأيتك فيها بعد تشرفي بمعرفتك منذ عشرين سنة انك تكترث الى بعض امور العالم

فقال له منترفيو وهو محدد به البصر « اني اكترث الى اشياء كثيرة مما لا يخطر لك على بال أوَ لا ترى ياعزيزي ان لكل في ما يهوى مذهباً » فلم يأبه احد من السامعين ولا سنترمون نفسه الى ما طيّ كلام منترفيو من الهزء والرقاعة

وعند العصر انطلق الى قصر دربوكوف للاشتغال بعد شرك الاقتناص لكنه لم يجد فيه احداً فابقى رقعة الزيارة ومضى قبيل الغروب الى بيت الانسة ديمونسكي التي كان هو وارثور سنترمون يتعاقبان في مخادنتها وهواها فوجد رصيفهُ عندها مدعواً للعشاء وكان ارثور في اثناء غيابه قد لزمها ليل نهار واشترى لها من الحلى بقيمة عشرة الاف ليرة ا.تدانها من منترفيو الذي اراد ان يجرّه الى هذه النفقات الفاحشة والديون الباهظة رغبة في انتزاف ثروة ابويه سنترمون وليونيدة حتى يصبحا فقيرين ويتمكن حينئذ كل التمكن من الانتقام منهما

فقضى منترفيو نحو ساعتـين بين لهو وانشراح حتى ازفت ساعة التمثيل في المضمار فاستأذنت الانسة بالانصراف فرافقاها اليه ولما دخلا سمعا ضجيج القوم واصوات التصدية والابتهاج استحساناً لما كانت الانسة مايناوابوها زفيريو يأتيانه من غرائب الالعاب والنكات فلما دخل منترفيو الى المشهد وجد زفيريو متسلقاً على حبـل واصل بالسقف تسلق القرود فما كان كلمح البصر الا وصل الى حلقـة السقف المرتفع عشرين متراً والتفت الى الحضار المدهوشين بخفته فوقعت عينه على منترفيو فارتجف وتلعثم لسـانهُ وكاد يسقـط من الخوف الآ ان منترفيو الذي اضطرب لمشاهدته ايضاً قد تمكن من كظم قلقـه ولم يلتفت الى السقف فتوهم زفيريو ان صاحبهُ لم يعرفهُ فعادت اليهِ روحه ورجع الى مـا كان قد بدأ به من اللعب والتهريج حتى تزل وكل الاعين شاخصة فيه

والأيدي مصدية له

ولم يلبث منترفيو ان عاد الى منزله لانهُ لم يتمالك من شدة الفرح فدخل غرفتهُ واخذ يرقص كالمعتوه وهو يقول ياما اسعدني وياما اكبر حظي فقد سخر لي الدهر كل عزيز لادراك التمني . ها هوذا الخادمان قد اجتمعا في نفس المكان ورجعت الابنتان فما اعدل تصاريف الزمان وتهيأ لي الانتقام من شر الاوغاد اللئام فما احسن عناية الرحمن بل ذلك من توفيقات الشيطان

﴿ فصل حادٍ وثلثون ﴾

ليلة العيد

طبع منترفيو على حب الامهال والتأني في الاعمال فلما ايقن بقرب نيل المرام لاجتماع وسائل الانتقام اخذ يدبر في الخفاء ما يمكنه من اذلال رقاب الاعداء على مرأى ومسمع من عموم الاصحاب والانسباء فلم ينفك مبديًا لسنترمون واهله مظاهر التحبب والولاء سترًا لما ابطن من الحقد والبغضاء فانتهز ليلة اعد فيها ملعب الخيل ذكرًا لتأسيسه ما لا يوصف من المشاهد البديعة واستأجر فيه مخدعين دعا الى احداهما الاميرة زاءركو مع دروكوف وفتاته ليلي وابقى الثاني له ولآل سنترمون

فلما كان المساء امتلأ المشهد بالباريسيين متسابقين اليه افواجًا حتى طُلب الكرسي بثمنة فرنك فلم يوجد لان ليلة ذلك العيد كانت مظنة البهجة تضرب لها المواعيد وبينا الناس مشتغلة الابصار بما ازدان به الملعب من ساطع الانوار واصناف الرياحين والازهار اذ اقبل المهرج زفيريو متشحًا بالاطمار المرقعة بزي يضحك الثكلى المتفجعة طاليًا سحنتهُ بادهان مختلفة الالوان بهيئة اشبه بالمسوخ او بالجان وما كاد يلفظ اول كلمة الا ضج الحاضرون ضجة ضحك اهتزت لدويها الارض اهتزازًا فانطلق لسانهُ بلطائف الهزل والنكات يتخللها من رشيق الحركات ما شرح القلوب وكشف عنها غيابة الكروب

ثم اقبلت الاميرة مايزا قابضة على عنان فرس كريم والنور يسطع من وجهها

لوسيم فصدى لها القوم واستقبلوها بالترحيب والتكريم وقد فتنت بقوامها الميـاس عقول جميع الناس واذهلتهم طلعتهـا البهية عن نفحات ابيها الذكية ثم ما لبثت ان وثبت الى ظهر الجواد فجاءت عليه واقفة وضربته فركض ينهب الارض نهباً وهي ترقص عليه تارة وتجثم طوراً وتركع حيناً وتأتي غير ذلك من اساليب الخفة والبراعة ما زاد الافئدة بها شغفاً

ثم انقطعت مايتا عن اللعب قليـلاً وجعلت تدور على ظهر فرسها الهوينا امام المخادع حتى اذا وصلت قدام الامـيرة زامركو رأت مبهوتة بالفتاة ليلي دربوكوف وهي لا تعلم اي جاذب عطفها اليهـا ثم التفتت الى الكنت سنترمون في المخـدع الاخر فورد الى مخيلتها ذكر ذلك الوجه الذي لم يظهر لها غريباً وكانت قد صادفت ليلي وسنترمون في الغابة مراراً فلم تكترث اليهما ولم تدرِ الان ما عطفها اليهما لكنها حسبت ذلك اوهاماً وظنت انها ترى احلاما ففركت عينيها وعادت الى وسط المشهد واستانفت العابها فابدعت وادهشت ثم انصرفت الى خارج لتنال نصيبا من الراحة فتبادر اليها بعض لطفاء الشبان وطارحوها السـلام وقد ذاب فؤاد كل منهم من الوجد والهيام فامتدحوها واطروا جمالها ومهارتهـا فتقبلت ذلك بالابتسام

وكان ممن هرع لتهنئتها منترفيو حبيب ايريني فقال لها « لقد فتنتِ باريس باسرها» فاجابته : « حذار من هذا الثنـاء كي لا تجرّ عليك بعض الملام » وقد اشارت بذلك الى ايريني فقال لها لست اخشى لومة لائم بل افوه بالحق ولا اريد ان يمسـك احد بسوء . ثم التفت الى زفيريو وصافحهُ باليد وهنأه فاضطرب هذا واجابهُ بالشكر متلعثماً ثم اشار الى ابنتـه فاستأذنت وانصرفت وكان فرنسيس قد اقبـل فهنأها في دوره فحل كلامه اقصى محل في قلبها وكان احلى من العسل ولاسيما لما قال لها لقد افلحتِ في باريس فما عليك الا اقناع والدكِ بالرسوخ فيها طويلا . وكان هذا جل مرامها ولكن انى لها ان تستميل اباها

ثم تهيأت مايتا للانطلاق واذا بمنترفيو قد استوقفها وعرّفها بالكنت سنترمون الذي فيما كان يكلمها شعرت بنفس الاضطراب الذي خامرها في الملعب على انها تناسّت الم

بالجواب وشكرت لهُ على ذلك الخطـاب وكان حديثها معهُ كأنها تحدث رجلًا عرفتهُ منذ امد بعيد ولما انحنى لتوديعها مدت لهُ يدها لتصافحهُ مدفوعة بجـاذب داخلي مع انها لم تمدها لاحد دونهُ من قبل

وفي هذه الاثناء اقبلت ايريني ديمونسكي تتبختر بافخر الثياب وهي تردهي كبرًا وخيلاء وكان من عادة الشبان انهم اذا وفدت تسارعوا الى التسليم عليها فلم يكترث اليهـا حينئذ احد حتى ان عاشقها منترفيو تظاهر انهُ لم يرَها فازداد حنقها على ماينا وتهبت غيرة منها وحسدًا فدخلت الى المحفـل والشرر من عينيهـا يتطاير ولعبت بعض الادوار كعادتها فلم تصادف من الجمهور اقبالاً ولم يصدِ لها احد استحسانًا

اما زفيريو فأخذ بيد فتاتهِ وانطلق الى الغرفة فاشار اليهِ مدير الملعب بان لهُ كلامًا يقولهُ لهُ فما عتم ان عاد فوجد المدير يتداول مع منترفيو وفرنسيس فقال لهُ المدير اراك مسرورًا هاته الليلة واحب ان تكون باريس قد استمالت اليها فؤادك فاصبحت مستعدًا للبقاء فيهـا مديرًا وكنت قد وعدتك بان اؤدي لك في كل شهر مائة دينار فدونك الان صك اتفاق الى سنة فوقعـهُ فارفع راتبك الى مئة وخمسين دينارًا

وكان منترفيو يابى توقيع اية معاهدة كانت ويود ان يبقى حرًّا يذهب الى اين اراد متى شاء فاحتال المدير عليـهِ بزيادة الاجرة مغرًى من فرنسيس الراغب في توثيق عرى الحب مع ماينا ومدفوعًا من منترفيو الذي لا يتمكن من ادراك اربه الا بتقييد زفيريو وماينا الى امد بعيد

لكن ذهب سعي الثلثة ادراج الرياح لان زفيريو ابى الا البقاء حرًّا مكتفيًا بالوعد انه لايذهب الى ملعب اخر ما دام في باريس مقيمًا وطلب لقـاء ذلك الوعد ان ينقد راتبه ثلثة الاف فرنك شهريًا ثم مضى

وما كاد يبتعـد حتى وفدت ايريني ووجههـا يتدفق غيظًا وغضبًا وهي تلعن وتشتم فدخلت الى وسط الغرفـة وضربت على منضدة المدير ضربة شديدة اطارت ما عليهـا من الاوراق وقالت وهي ترغي وتربد حسبي اليوم حسبي صبرًا فما انا باقية هنا ولا ساعة فإما انا واما ماينا

فنظر المدير الى منترفيو وخاطبهُ باشارة خفية وقام الى الباب فاقفلهُ ولم تكن ايريني قد لحت منترفيو لاول وهلة فلما شاهدتهُ حملقت فيه وقالت لهُ : ما انت صانع هنا اما كان من الواجب ان تستقبلني حين خروجي من الملعب فضحك منترفيو واراد ان يطيب خاطرها فأبت والتفتت الى المدير وقالت : لم تبقَ لك فيَّ حاجة فيكفيك ماينا وابوها فدعني انطلق اينما شئت واضرب لي موعدًا لعمل الحساب

فطفق المدير يلاطفها وهي لا تزداد الا نفورًا فقال لهُ منترفيو عليَّ بها فها انا ذاهب معها الى منزلها وهناك اعنى بكشف الغم عن صدرها فتبقى لك اطوع من بنانك

﴿ فصل ثانٍ وثلثون ﴾

ايريني ديونسكي

هي التي اتخذها منترفيو معاونة لهُ في ادراك الوطر وكانت في اول امرها فتاة حقيرة بنت رجل نوتي يكد الليل والنهار للقيام باود عائلته فكانت تضطر ان تعاون امها في الخدمة منذ صبوتها ولكن رغمًا عنها لان نفسها كانت تائقة الى الجاه والغنى والكبرياء

فكانت في بيت ابيها تتحمل شظف تلك المعيشة حتى بلغت السادسة عشرة من عمرها فاشتهرت في القرية بجمالها الرائع وأنفت من الخدمة وتقدم لخطبتها بعض النوتية فأبت لانها كانت تفكر في جمع المال التزوج برجل ارفع مقامًا ففي احدى الليالي خرجت تحت جنح الظلام الدامس ولم يوقف لها على اثر

وكان قد اغراها احد البحرية الانكليز بيسير من المال والحلى فتبعتهُ الى انكلترة حيث بذل قصارى جهده في ارضائها وتوسل ان يقترن بها اقترانًا شرعيًا فترددت الى ان صادفت لها عشًا اخر فدرجت اليهِ وجاء صاحبها الى بيته فوجده خاليًا خاويًا

ولما كانت رغبة الغنى والعظمة تتزايد في صدرها ووجدت ان صناعة التمثيل تكسب البارعات فيهِ ارباحًا فاحشة مالت الى هذا الفن واقتبستهُ بالاجتهاد فكانت فتنة الملاعب ثم تاقت نفسها الى ركوب الخيل فبرعت فيهِ وما لبثت ان تعلمت افانين الالعاب فادهشت وفاقت الاتراب وطارت لها شهرة في الافاق

وكانت ايثا دخلت سبباً للنفرة والتحاسد بين الممثلات في ملعب واحد فلا تستطيع الثبوت في مكان لا تكون فيه السائدة الممتازة حتى جاءت باريس فخلبت قلوب شبانها فتهافتوا على مرضاتها الا ان منترفيو قد فاز في هذا الميدان فصاحب الفتاة وساير طمعها فاستاجر لها نزلاً جميلاً واثثهُ بافخر الرياش وحظر عليها معاشرة سواه فكان يتردد اليها اكثر ايام الاسبوع ويأدب المآدب الطيبة عندها لبعض خلانه فتقوم بواجب الضيافة والترحيب

وكانت ايريني قد حافظت على الامانة لصديقها مدة مديدة وظنت انهُ سيكون لها بعلاً لكنها فهمت انهُ لم يمسكها الا لأرب وقتي فكرهتهُ بعض الكره ومالت عينها الى غيره فكان يغض عنها الطرف كأنهُ لا يرى احداً

وكان ممن علق بهواها الفتى ارثود ابن الكنت سنترمون صديق منترفيو الذي عرّفهُ بها وكان يتردد اليها بحضوره وغيابه فلا يبدي لهُ نفوراً ولاسيما لان الشاب كان يتلف عليها كل امواله ويستدين بالربا ليشتري لها الحلى النفيسة

وكانت ايريني على هذه الحال لما جاءت ماينا كنتستينا ونالت قصب السبق عليها في الملعب فامتلأ قلبها حنقاً عليها وكرهت الدنيا بما فيها ولما عادت تلك الليلة مع منترفيو الى نزلها جعلت تبدي لهُ ألمها عرارة فلم يكلمها بشيء على الطريق ولكن لما وصلت الى البيت انتهرها انتهار سيد مطلق لاسيرة مسكينة فارتجفت واحتشمت ولم تحر جواباً وظنت انهُ قد هوي ماينا فرغب في هجرها فاعلنت لهُ انها لا تنفك عن بغض ماينا ولا تبالي بهجرانه ولو كلفها ذلك الهجر خسارة خمسين الف فرنك سنوياً

لكن شد ما كان اندهاشها لما اعلن لها انهُ لا يبغي قطع وصالها البتة بل يريد معاونتها للانتقام من ماينا التي يبغضها هو ايضاً اضعاف بغضها لها

فانفرجت كربة ايريني لكن بقي في صدرها من كلامه بعض الريب فقالت لهُ: ان كنت تكرهها حقاً فلماذا تتظاهر بحمايتها ولمَ لا تطردها من باريس وانت اقدر الناس على ذلك

كيف اطردها ولي غاية في بقائها في باريس واني اسعى في اسقاطها من حالق

مجدها وادبر لها احبولة اذا وقعت فيها فلاتقوم لهـا قائمة وتمسي احقر فتاة في الارض فلا يقبل على الاقتران بهـا ولا رجل من اراذل القوم فتشفي حينئذٍ غليـل حسدك منها. أفلا يسرّكِ هذا التدبير

— بلى بلى هو غاية المرام. آه حبـذا ساعة سقوطها فادوسها دوساً لانها حرمتني لذة العيش باستمالة جميع القلوب اليهـا ... فمتى ياعزيزي يتم هذا قل لي بحياتك فينشرح صدري

— من تأنى نال ما تمنى فعلينا ان نسعى من الان وعليك ان لا تخالفي لي امرًا

— مر بما تشاء فتطاع بلا مراء — اول ما آمرك به ان تكفي عن التظاهر بالعـداء لها وتبدي لها عين الحب شيئاً فشيئاً

— حسن وماذا بعد — متى ايقنت انك صرت لها صديقةً حميمة فلا تمنع عنك الدخول فى زوايا قلبها واكتشاف خفايا دواخلها

— اظن هذا صعباً اذ لم يتمكن احد حتى الان من مصاحبتها ولا معرفة بيتهـا

— ان صعب على غيرك فـلا يصعب عليك انت ولا سيا انها ترغب ان تكافئك على انقلاب بغضك لها حباً فلعلهـا لا تخفي عنك شيئاً ومتى بلغت الى ذلك الحد من الصداقة المخلصة فسوف اعلمك ماذا يجب ان تصنعي كي تغريهـا للوقوع في الاحبولة المدبرة لها وهذا منتهى المرام

وكانت ايريني ترتعش فرائصهـا عندذكر هذه التعاليم الشيطانية التي كان يوسوس اليها بها منترفيو متخذًا اياها كآلة يلعب بها للفوز بمآربه الشريرة دافعاً اياها الى سلوك سبيل الغش والخداع والمداهنـة والرياء والكذب والاغراء على الفحشاء وكانت تود لو تركت هذه السبل المعوجة وقاومت عدوتها وجهاً الى وجه وفقاً لطبعها الحر ولكن شدة حنقها على ماتيا وتلظيها للانتقام منها وخوفها من معاندة منترفيو ذلك كله دفعها الى اتبـاع هواه مساعدة لهُ على ادراك مبتغاه

﴿ فصل ثالث وثلثون ﴾

﴿ الفارس فرنسيس ﴾

لما عاد فرنسيس الى بيته تلك الليلة التي اجتهد فيها مع مدير الملعب ماقناع زفيريو للبقاء في باريس طويلاً اخذ يتبصر في طريقة يتذرَّع بها لبلوغ الوطر واوصى خادمهُ ان يأتيه عند الصباح بجميع الجرائدالباريسية التي يرد فيها ذكر تمثيل تلك الليلة

وكان فرنسيس مقيماً في ضواحي تلك الحاضرة في منزل مشتمل على اربع غرف تتصل بها حديقة فسيحة اتخذهامضماراً لخيل السباق التي كان يروضها في النهار فلما كان الصباح اقبل الخادم وبيدهاضبارة ضخمة تضم ثمانياً وثلثين جريدة فتلقفها واخذ يتصفحها واحدة واحدة فوجد انها اجمعت كلها على استحسان العاب زفيريو وابنته ونصحت لمدير الملعب ان يجتهد في ابقائهما عنده كل ذلك الفصل نظراً لما يرجى من دوام اقبال الناس عليه وقداطرأت كلها الفتاة مارينا واصفة براعة جمالها مادحة تفنن العابها مثنية على حسن ادابها فازداد به فرنسيس هياماً وعزم ان يضاعف السعي وراء اقامتها مقام ايريني التي تكرهها

وبينما هو مشتغل في هاته الافكارلم دخول امرأة الى الدار فانتهر الخادم قائلاً ألم امنعك عن ادخال اية امرأة كانت الى بيتي

— عفواً ياسيدي ليست الداخلة بامرأة — ومن هي اذن

— هي احدى الممثلات في الملعب — اف لك من غبي ابله أليست الممثلة عندك بامرأة — مهلاً سيدي اريد ان اقول انها ليست بامرأة غريبة فهي السيدة ايريني ديمونسكي

فاضطرب فرنسيس عند ما رنَّ في اذنه اسم ايريني وقال يخاطب نفسه : ما قصد هذه المرأة الخبيثة في المجيء اليَّ هذا الصباح ياترى ألعل وراءها شركاً تنصبه والعياذ بالله من مكرها . وكان يحب الاَّ يواجهها لكن اللياقة اقتضت ان يسايرها فاستقبلها متجملاً

وكانت ايديني قد نفر قلبها من كلام منترفيو في البارحة واستشفت من ورائه مكيدة ينصبها بواسطتها لمآرب خبيث فلم يطاوعها فؤادها الحر ان تكون إمعةً لهذا المحتال ولاسيما انها سبرت غوره طويلاً فوجدته متملقاً خبيثاً خداعاً ناكث العهود يظهر لها الحب ويبطن البغضاء مع انها كانت قد محضته الحب واباحت له نفسها عن رضىً دون التفات الى احد سواه رجاء ان يعيش معها مدى العمر فساء فألها وخابت امالها فانقلب حبها له كرهاً ثم ازداد بغضها لما رأته معولاً على استخدامها لغرضه آلة شيطانية بالمكر والمخاتلة خلاف طبعها

وكانت قد حشدت شيئاً كثيراً من المال يكاد يبلغ المليون من الفرنكات ففكرت في الاستغناء عن منترفيو وترتيب عيشتها مع رجل تصطاده بمالها فتكون هي السيدة المطاعة على نحو ما صنع غيرها من نساء العصر وكانت تحب فرنسيس رغماً عن حسدها له وابدائها له عين العدوان لانهُ كان شهماً اديباً كريم النفس لطيف المحاضرة طلق المحيا غض الشباب فقالت في نفسها اتضمخ بالاطياب والبس افخر الثياب واقرع ذلك الباب واراوده عن نفسه بما لديَّ من سعة المال وبراعة الجمال لعلي احظى بجواب يكون من شأنه ضم شمل الاحباب فاعود بحسن المآب

فلما دخلت بيتهُ اخذها الوجل لاول وهلة خوف ان يصدها صداً لكنها تجلدت واشتد قلبها لما احسن استقبالها خلافا لعادته في الملعب وقال لها :

لقد اسعدني الحظ بتشريفك ذا المنزل ياسيدتي فهل من خدمة تقتضيها فاقضيها على الرأس والعين

فتبسمت تبسم ربات الغنج والدلال وقالت : شكراً لك ياسيدي لكن ان كان احدنا محتاجاً خدمة الآخر فلا اكون انا

فاشمأزَّ من هذا الجواب الشديد وقد توسم فيه افتتاح مداعاة او تهديد وبما انه كان يحب الصراحة والجلاء استفسرها بلا امراء

فاجابتهُ باحسن اسلوب : لقد تلطفت بعرض خدمتك عليَّ وانا ابادلك عرض هذه الخدمة لكن بما اني مقيمة في باريس امداً طويلاً قبلك ولي خبرة اكثر منك اظن اني

استطيع ان افيدك اكثر من افادتك لي ولو لم انفعك الا في وضع حد للاموال التي تتلفها بسخاء على الناس كما فعلت مع رفيقك حنا بالامس باعطائه عشرين ليرة لكفى ذلك خدمة

— انا اعطيتهُ ذلك على سبيل الاسعاف لان امرأتهُ مريضة ونفقات تطبيبها جزيلة

— انك على غرور فان مرض امرأته ليس الا زكاماً يداوى ببعض المدبرات ولم يأخذ منك المال الا لينفقهُ على عاشقة لهُ في ظاهر المدينة وعندها يتلف دريهماتك التي ربحتها بعرق الجبين وكن على يقين انهُ لا يرد لك منها ولا درهماً

— أوَ لا استطيع ان اتصرف بمالي كما اشاء

— أجل ولكن هل يوافق ان تضعهُ في جيوب قوم يضحكون منك ويأخذونك خدعة وها اني ارى على منضدتك ورقتين كتبت على احداهما مئة فرنك وعلى الاخرى مئة وخمسين اظنها اسعافاً لرجلين مثل حنا — أوَ ليس من العدل ان نغيث بعض الاخوان ممن اخنى عليهم الدهر وعضهم ناب الفقر

— نعم ولكن متى كانوا في الحقيقة فقراء فلقد يسوءُني وايم الله ان ارى دراهمك توزع على اولئك المحتالين واني اؤكد ان ليس في جيبك الان خمسون ليرة تبقيها لحين الحاجة في حين لا ينفعك اخ ولا صديق وان اولئك الذين اسعفتهم يغضون عنك ولا يلتفتون اليك التفاتاً ... ففي هذا اقدر ان انفعك بخبرتي فلا يجدر ان تغيث الا المرزوئين بالمصائب الاكيدة لا المحتالين والكسالى

فاندهل فرنسيس من خطاب الحزيني ولم يدرِ ما عسى ان تكون غايتها في التعرض لما لا يعنيها فقال لها بلهجة كبر وترفع : امحضكِ الشكر لغيرتك على صالحي على اني اجيبك الان اولاً اني حرٌّ بتبديد اموالي على هواي ولو بذلتها في سبيل من ليس لها اهلاً وثانياً ان كان احد يغار على مصلحتي ويحب نصحي فلا تكونين انتِ

— تريد ان تقول : فلا تكون تلك المرأة التي اساءت اليَّ احياناً لكن ألا تعلم ياعزيزي ان العواطف تتبدل والافكار تتغير (ثم ادنت منهُ كرسيها وقالت) لقد صدقت باني قد ابغضتك قبل ان عرفتك من يوم كنت في الملعب الاول لان المناظرة

صفة متبادلة بين الرصفاء

ـ عفواً ياسيدتي فاني لم يخطر فكر مناظرتك قط على بالي

ـ صدقت فاني انا كنت وحدي سبب هذه المناظرة بل اريد ان اقول ذلك الحسد . . . أجل قد حسدتك على ما نلت من النجاح وما حفك به القوم من الثناء حتى اني من اول يوم دخلت معنا الى الملعب الجديد حسبت ان عدواً لدوداً دخل بيننا

ـ اما انا فلم احسد احداً طول عمري ولم اكن عدواً لمخلوق قط

ـ كيف لا وقد كنت عدواً لراحتي فاني من اول يوم نظرتك قاتلتني جيوش الافكار ولم اقتر ان اهدأ بك ليل نهار قالت هذا وتوردت وجنتاها خجلاً وتفرست في فرنسيس لترى ما يكون منه لقاء هذا التلميح الذي يكاد يكون افصح من التصريح فوجدته لم يأبه الى كنه غايتها بل لبث مبهوتاً مفكراً في ما عسى يكون من وراء هذا الكلام فاستأنفت الحديث وقالت : كم من مرة اشتهيت ان يجفل بك الجواد فيصرعك على الحضيض لكن لما رأيتك تعاملني باللطف عوض الجفاء وشاهدت الجميع يثنون على رقة اخلاقك وكرم اروماتك اخذ البغض يزول من قلبي رويداً رويداً وحل محله الحب النقي فانقلبت ارثي لحالك مشفقة ناصحة

فضحك فرنسيس مقهقهاً حتى استلقى فقالت : تاخذ الامور بالهزل مستهزئاً لكنك لن تضحك دائماً وسيأتي يوم تعرف فيه اني لم آتك الان الا بمشورات ونصائح كلها حكمة . . . اجل اني راثية لحالك فما انت صانع لو نابتك رزيئة كما ناب رفيقك كافور

ـ لي بك اسوة فنحن كلانا معرضان للاخطار

ـ صحيح اما انا فلدي من المال الذي جمعته ما اقوى به على رد غارات الزمان وتحمل مصائب الحدثان واما انت . . . ثم نظرت نظرة عاطفة اليه ولطفت صوتها كأنها مشفقة عليه لانه ارتجف قليلاً وقد تحقق صدق مقالها الاخير لانه كان جواداً سبط البنان يتلف من الاموال اكثر مما يربح ولم يكن يصل الى اخر الشهر

حتى يكون قد انفق كل راتبه واستدان فوقه فعادت الى الكلام بصوت نشتم منهُ رائحة التوبيخ اللطيف من الحب المخلص وقالت : انك بالحقيقة اميركيّ لا غش فيه لا تحسب المال بشيء ولا ترى الدراهم صالحة الا للانفاق فكل ما تربح تصرف ولا تفكر بما يكون في المستقبل بل اظن انك لم تضمن حياتك ايضاً

— ولفائدة من اضمن حياتي وليس لي اهل ولا ولد

— لفائدتك انت نفسك اذا نزلت بك رزيئة فعجزت عن العمل واكتساب الرزق

— واية شركة تقبل ان تضمنني وحياتي معرضة للخطر في كل ليلة

— ان لديّ ضمانة لم تفكر فيها بعد وهي التي لاجلها جئت اليوم ضناً بك ايها العزيز

فاصاخ لها فرنسيس سمعاً منجذباً من قوة كلامها الذي لم تظهر لهُ غايتهُ بعد في حين كانت ايديني آخذة بايضاحه شيئاً فشيئاً باسلوب من الفصاحة لم ينسج على منواله وكانت في اثناء حديثها تنثني كغصن البان ووجهها الوردي يبعث نوراً وسهام الحاظها تصمي الجنان وكان لسانها الذلق يزداد فصاحة لما خامر نفسها من الامل الفلاح اما فرنسيس فلم يلتفت الى شيء من ذلك لان حيل الحسان قلما كانت تؤثر فيه الا انهُ ظن انها تريد بذلك ان تعرض عليه شغلاً جديداً فسألها : اذن ما وراءكِ يا عصام

— اريد ان اسعى في خلاصك من هذه المعيشة المرة وان اراك حراً لا تنقاد صاغراً لامر اي مدير كان بل مستقلاً آمراً مطاعاً واني اعرف لك امرأة . . .

فانتبه فرنسيس اخيراً الى مغزى كلامها وفهم بعض الشيء واصغى الى النهاية فنظر اليها محدداً بصره في حين انها اضطربت وخفق قلبها من هذا الموقف الحرج الا انها تجلدت وقالت : اني اعرف لك امرأة بارعة الجمال لا يزيد سنها على سنك الا اعواما قليلة فهي لا تزال شابة قوية نشيطة الجسم والعقل وقد بليت بحبك ولكن لا كحب سائر الفتيات بل هو حب قلبي ثابت اشبه بحب الزوج لبعلها او الاخت لشقيقها . وهي بكلمة واحدة منك تقف نفسها لك كل حياتها وترضى ان تكون بقربك على ما تشاء إما عروساً واما مسيكة وتقبل منك قبول عبدة رقيقة من مولاها الخطة التي تنهجها لها في سائر عمرها فسواء لديها ان تبقى فارساً في الملاعب او تعيش

على بساط الرغد والهناء في المدينة او في القرى او في اية بلدة من العالم شئت او ان اردت ان تنشىء حقولاً لتربية المواشي فهي لك طوع بنانك ما طال المدى

— لا شك ان هذه المرأة غنية مثرية

— نعم ياعزيزي تملك على نحو مليون من الفرنكات

— اذن ارجوكِ ايتها السيدة ان تقولي لها ان الفارس فرنسيس لا يشترى بالمال . .
فانا رجل فقير حقير ولكن حسبي غنىً اني شريف النفس اترفع عن الدنايا التي تحط الانسان الى الحضيض واما الزواج فمذهبي فيه مذهب سائر اخواني الاميركان ان المرء لا يجب ان يتزوج بامرأة الا عن حبه لها وبغية ان تكون رفيقة عمره وما المال الا عارض آئل الى الزوال

— ما احسن ما قلت ياعزيزي والمرأة الراغبة فيك لا تقصد الا ما انت قاصد

— زه زه غنية ومسنة تسعى بشترى بعل من الشباب أفلم يقع اختيارها الا عليَّ انا الفقير المفلس لتملكني بمالها كلا كلا ما انا ممن يشترى بالمال واعلمي ان مثلي اذا عوَّل على الزواج فلا يقترن الا بفتاة ادبية من حرفته

— على الخبير بها سقطت فالمرأة التي اكلمك عنها هي من حرفتك على وفق ما تشتهي

— لله درها أهي من لاعبات المضمار وفي جيبها مليون . حاشى . الله اعلم كيف جمعت ذلك المال فلو انقطعت النساء من الارض لما تزوجت بها وانما أوثر عليها فتاة ساذجة لا مهر لها سوى كمال ادابها وذكاء جنانها هكذا يجب على الفارس ان يتزوج وبمثل هاته الفتاة سأتزوج

فتوسمت ايريني من كلامه انه يكرهها ويزدريها كاحقر النساء في حين انه يجل عدوتها مارينا ويحترمها كاحسن المخدرات فازداد حقدها اضطراماً وقامت وقد اخذ منها القلق كل مأخذ وقالت له . اسفي عليك فانك من الخاسرين فقد عهدتك رحب الصدر شهير الاداب فلماذا تكدرت وتولاك الغضب

— لكن اظن ان هذا لم يمسك بسوء — كلا فلا ناقة لي في الامر ولاجمل وانما وافيتك هذا الصباح حباً بخيرك لاعرض عليك الاقتران بصديقة لي لا تستحق منك الأكل اكرام فما كان عليك الا ان تجاوبني سلباً فنقطع الحديث بهذا الشان والسلام

فصل رابع وثلثون

في صدق فرنسيس وامانته

لم يكن فرنسيس ليكره ايديني جزافاً بل كان ينتقد سلوكها ويشمئز من كبريائها ويرى انها لا تربح من تمثيلها الا عشرة الاف فرنك في السنة في حين تنفق في بيتها وعلى حلاها خمسين الفاً فسقطت من عينه وعدها كسائر النساء المبتذلات ولم يلتفت قط الى جمالها ولا الى عواطف غنجها ودلالها وكثيرًا ما كانت تراوده عن نفسه فلم يعرها اذناً صاغية لانهُ كان رصيناً طاهر الذيل مغلق القلب في سبيل النساء ضناً بكرامته وحرصاً على صحته ورعاية لمصلحته التي تقتضي منهُ حفظ كل قوته

على انهُ كان يفتكر في وجوب الزواج بفتاة صالحة تكون رفيقة لهُ مدى العمر في السراء والضراء فجعل يترقب الفرصة صابرًا حتى شاهد ماريا في لندن ففتنت قلبهُ بادابها وعوَّل على ان لا يتخذ من دونها زوجاً وكان مفطورًا على الحياء فخجل ان يطارحها حديث الهوى فلما جاء باريس ووقف على رغبتها في غشيان باريس ايضاً لم يدخر وسعاً حتى اقنع والدها فقدما تلك الحاضرة وحينئذٍ طفق يختبر اطباعها ويتقرب منها ما امكن ويؤاكلها مع ابيها فازداد يقينهُ بطهارتها كما انها رمقتهُ ايضاً بعين الميل والحب النقي فكان يغار عليها ويدافع عنها ويسهر على كل حركاتها وسكناتها

فانّى للمسكينة ايديني والحالة هذه ان ترى من الشاب عليها اقبالاً وعنده تلك الحمامة النقية الغضة الشباب الصادقة الوداد السالبة منه الفؤاد وقد فهم صاحبنا ان المرأة التي زعمت انها موفدة منها ليست الا هي بعينها وانما اتخذت هذه الحيلة خوف الفشل فلما انطلقت ضحك منها وقال اتحسبني ولداً تنطلي عليه الحيلة او يغتر بالمال

ثم قام فرنسيس الى اصطبله ليتفقد صحة خيله حسب عادته في كل صباح وامر

الساسة باعداد ما يلزم للترويض واذا بالباب يقرع فظن ان ايديني قد رجعت فتعوَّذ من الشيطان وعزم على ان لا يقابلهـا لكن ما لبث ان شاهد رجلًا كامـل السن بلحية شقراء اشتعل شعرها شيبًا فشعر بنفسه بميل غريزي اليه وهرع لاستقباله واذا هو غريغوري دربوكوف فوجد فيه من الانعطاف اليهِ مالم يعهده في غيره فتصافحا واخذ يتبـادلان اطراف الحديث الذي كان مشربًا اخلاصًا وتوددًا وكان في نية دربوكوف ان يعرض على فرنسيس امرًا آملًا لحسن مستقبله بان يكل اليه ادارة حقولهِ الفسيحة في اميركا لانهُ آنس من ابنته ليلي ميلًا شديدًا الى الاقامة في باريس ولم يحب ان يعارضهـا ولا يفارقها فاصبح مضطرًا الى رجل امين يعتمد عليهِ فلم يجـد اوفق من فرنسيس الذي مال قلبه اليه من اول نظرة فصرَّح لهُ في غضون الحديث عن مراده عارضـًا عليهِ ثلثين الف فرنك راتبًا سنويًا اي ثلثة اضعاف ما كان يربح من التمثيل

وكان كثيرون من اكابر اصحـاب الاملاك والمواشي قد عرضوا على فرنسيس مثل هذه المهمة فكان يرفضها لاول وهلة لانهُ لم يحب ان يترك باريس ولا يدع حرفته التي تمكنهُ من نوال اربه بالاقتران بماينـا لكن لما سمع عرض دربوكوف تنـازعهُ عاملان عامل القبول بذلك المنصب الذي يجعلهُ في ارغد عيش واحسن حال وعـامل الرفض حبًا بمن سلبت فؤاده لكن العامل الثاني كان اشد عليهِ ضغطًا فشكر لدربوكوف حسن ظنه به واعتذر بانهُ مرتبط الى اجل معلوم مع مدير الملعب

فضحك دربوكوف وقال لهُ عليَّ بالمدير فاني ارضيه بالمال فلا يعارضك البتة فاعتذر فرنسيس ايضـًا بان لهُ علائق تشغلهُ عدة اشهر فاعطاه الرجل المهلة التي يشـاؤها فضاق فرنسيس ذرعًا ولم يجد لهُ محيصًا فقال لهُ : عندي اسبـاب اخرى تضطرني الى رفض طلبك الان رغمـًا عني لكني اعدك اني اذا خرجت من هذا الملعب فلا اقبل الا خدمتك فقـال لهُ دربوكوف : هذا حسبي واني اعتمـد على شرفك وصدقك ودعنـا الان من هذا الحديث الى خدمة اخرى جئت لاجلها ارضاء لابنتي التي ولعت بجواد تحب ان تشتريه وقد رأيتهُ غير موافق ولما اختلفنا اعتمدنا ان نجعلك حكمًا في فض الخلاف سندًا الى خبرتك الطويلة بالخيل   فاجاب فرنسيس على الرأس والعين

الف خدمة مثل هذه الخدمة ياسيدي دُربوكوف فاين الحصان الان

— هو في ميدان المدينة فمتى تحب ان تصحبني لامتحانه

— في هذه الساعة ان شئت

فاركبه دربوكوف في عجلته ولما وصلا الى الميدان شاهدا الفتاة ليلي قد سبقتهما بعجلة الاميرة زامركو فسلم فرنسيس عليها ثم ذهب الى الاسطبل فلحقتهُ لتهمس في اذنه ان يقنع اباها بمشترى الجواد لانها تحبه فلم تصل اليه الا وقد دخل الاسطبل فوقفت على الباب تتنصت واذا بصاحب الجواد يقول: اهلًا وسهلًا بالصديق الحبيب فرنسيس ما اسعد حظي برآك هذا الصباح ثم خفض صوتهُ وكلمهُ بالانكليزية قائلًا: روحي فداك ياشقيق الروح ارجوك ان تثني علي الجواد وتشير بمشتراه فان ابتاعه دربوكوف وهبتك خمسين ليرة

فارتعشت ليلي لانها كانت تكره الكذب والخيانة وقد زاد اضطرابها جواب فرنسيس لهُ بطلبه مشاهدة الجواد في الحال مما يدل على استعداده لقضاء تلك الخدمة لاخذ الجعالة فعادت وهي منذهلة كيف الشاب فرنسيس الذي اعتمد عليهِ ابوها لينصحهُ بامتحان الحصان والذي اشتهر بالصدق وحرية الضمير والاستقامة يبيع ذمتهُ وشرفه بخمسين ليرة واخذت تفكر بان في الجواد عيبًا كبيرًا ولولا ذلك لما تبرع صاحبهُ بخمسين ليرة رشوة . فقالت كلا لن آخذ الحصان البتة

وبعد ان ركب فرنسيس الحصان وامتحنهُ في الميدان جاء الى دربوكوف وقال انهُ جواد كريم من احسن الخيل لكنهُ لسوء الحظ شرس لا يقوى على ضبط لجامه الا بطل صنديد فلا اراه موافقًا لابنتك اللطيفة فبهتت ليلي واحدقت فيهِ وهي لم تصدق ما سمعت اذناها

اما دربوكوف فخاف ان تعانده ابنته ابضًا ولا تقبل من دونه جوادًا لكن ما اشد ما كان تعجبه لما رآها مسرورة من حكم فرنسيس وقد تقدمت اليهِ فصافحتهُ باليد وشكرت لنصيحته كل الشكر وقالت بالحقيقة انك صادق امين وقد زادت ثقتنا بك اضعافًا فسر ابوها غاية السرور واثنى على نزاهة الشاب اطيب الثناء وشغف بمحبته كل الشغف

﴿ فصل خامس وثلثون ﴾

اشواق ليلي

عاد دربوكوف مع فتاته الى البيت وفي قلبه مجال فسيح لحب فرنسيس الذي اعرب عن شهامة غريبة لا يأتيها في هذا الزمان الا كل كريم الاصل طيب الارومة كامل الاخلاق لانهُ آثر حب الاستقامة واخلاص الخدمة على وجه الخصوصي وبذلك نجى الفتاة ليلي من خطر قريب

وقد توفرت للانسة ليلي في باريس جميع اسباب السرور وكان منزلها من اعظم القصور ولديها من الحلى والتحف ما تتنافس به اشرف ربات الخدور وعندها من الاموال الطائلة ما لا تفنى على ممر الاعوام والعصور حتى حسدتها العقائل والكرائم وحسبنها في سعادة فريدة ونعيم دائم ولكن ذهل الحاسدون ان السعادة لا تقوم بالرغد والرفاه والنعيم لا يقوم بالمال والجاه بل قوام سعادة الانسان قناعة القلب ونعيمهُ راحة الضمير

اجل لم تكن ليلي في حجر ابيها لينقصها شيء لتكون راضية قانعة لكنها كانت ترى ان كل هذه الامور لا تملأ قلبها الذي كان يشتهي شيئاً اخر لم تكن تدري ما هو وكان هذا الشيء المجهول شاغلاً افكارها ليل نهار ولم تعلم كيف الاهتداء اليهِ وكانت تحب ان تسلوه بشهود تمثيلات الملاعب وتفقد متاحف المدينة والتنزه في رياضها النضيرة وتبادل زيارات الاكابر من وجهاء وامراء فكانت في تلك الاثناء تسلوهما موقتاً وعند رجوعها الى القصر تعود الى هواجسها السابقة

وكان دربوكوف اكثر منها خبرة وقد ادرك شيئاً من ذلك السرّ لكن لم يكن باليد حيلة للوصول الى غاية كريمته فكان يبذل كل الوسائل في سبيل ادخال المسرة على قلبها اللطيف وكانت كلما خلت به اعربت لهُ عن انذهالها من جفاء هوبر وامه اللذين نظرا اليها بعين الصد والجفاء من حين وصولها الى باريس مع ان هوبر لم يرقَ ذلك المنصب الرفيع وهو ادارة شعبة المصرف النيويركي العام الا بسعي ابيها لدى مديره الاكبر في نيويرك وكانت تقول : ان محبته لي كانت طاهرة نقية وقد حللت في قلبه

ارفع محل من اول نظرة في بيت الحقـل فماذا اتى عليهِ من صروف الزمان ولمـاذا انقلب هذا الانقلاب فياليتنـا بقينا في نيويورك حيث عاملتني امهُ معاملة ابنة خاصة واحبتني محبة خالصة فهل لم تعد تكترث الي الان يا ترى لما رأت ارتقاء ابنها او ان لها سبباً اخر مجهولاً لعلهُ يكون عذراً مقبولاً

وكان ابوها يتنغص لكآبتها ويجتهد في تسليتها وكشف كربتها واذهالها ما امكن عن ذكر هوبر معرضاً لهـا بذكر مئات من شبـان الاكابر الراغبين في رضاها عنهم المتمنين نوال شرف الاقتران بهـا اما هي فقلما كانت تلتفت الى مثـل هذه الامور ولم يدخل قلبهـا حب احد مع حب ذاك الذي كان اول شاب مالت اليـه منذ خاصرها في قصر الحقـل وعلمها رقصة الميدان ثم رقصة الحجلان

اما هوبر فكان اشد شغفاً بهـا من شغفها به لكنهُ يئس من ادراك بغيته لما وجد بينها وبينهُ من البون البعيد في الثروة التي لها اليوم المقام الاول في الالفة ومما دفعهُ الى القنوط ان دربوكوف قد خالط اعيـان باريس واشتهر فيها بوفرة المال حتى صار يشار اليهِ بالبنان وان ليلي كانت قد توغلت في معاشرة الوجوه والكبراء فظن ان قلبها قد مال عنـهُ الى احد الامراء فاختار البعاد وآثر الحياد كي لا يزداد شوقاً الى من سلبت منـهُ حبة الفؤاد وقد زين لهُ الوهم ان الامل منهـا زال فلا سبيل الى الوصال

وكان هوبر قد اسرَّ الى امـه هذه الافكار فنصحتهُ بالصبر على الاقدار وترك الامر لله القدير ولي الفرج والتدبير

ومما اثار الشجون في صدر الحبيبين ان هوبر وفـد لزيارة دربوكوف في قصره فلم يصادف احداً فابقى رقعة الزيارة وانصرف كئيبـاً لسوء حظه لكن اسف ليلي كان اعظم واشد لما عادت عند المساء وداخلها الريب ظانة ان هوبر انمـا ترقب فرصة غيابها عمداً حتى لا يجتمع بهـا ولا يؤدي الحديث الى العتاب واكدت حينئذٍ توهمها السابق بان قلب الحبيب قد انقلب وهي لا تدري لذلك من سبب

ثم تأملت ان ينجلي الامر عند قدوم ام هوبر رداً للزيارة واخذت ترقب تلك الساعة السعيدة ترقب هلال العيـد حتى مضى خمسة عشر يوماً فنفد صبرها وتقرر

لديها ان صلات الوداد الرابطة بين الاسرتين قد ارتخت ولكن في اليوم التالي بينما ليلي ملتهية بمسايرة بعض زائراتها من الاميركيات الغنيات وبعض الامهات الراغبات في تزويج اولادهن ومعهن الاميرة زامركو واذا بام هوبر قد اقبلت بثوب ساذج كسائر النساء الكاملات فرحبت بها ليلي غاية الترحيب وعادتنا هنيهة وقد تبين لها من الزائرة مزيد البشاشة واللطف لكنها لم ترَ فيهـا تلك العاطفة القلبية التي عهدتها فيها في نيويرك فاشعرت بوجود سبب ارخى تلك العلائق المتينة وما اشد ما كان تنغصها لعدم تمكنها من استطـلاع ذلك السرّ امام جمهور الزائرات فودعتها وفي قلبها حسرة من تلك النظرة وودت لو بقيت الى المساء لتجتمع بها في خلوة اجتماعها بها في نيويرك الا انها استأذنت بعد نصف ساعة وودعتها احسن وداع

فلما خرجت ام هوبر طفقت النسـاء المجتمعات يضحكن منها شان كثيرات من سيـدات عصرنا اللاتي قلما يفلت زائر او زائرة من لسانهن فجعلت الواحدة تنتقـد حركاتها والاخرى كلامهـا وغيرها ثيابها فاستاءت ليلي واخذت تدافع عنها وتمتدح من كرم اخلاقها وطيب سيرتهـا فاجابت احداهن : لا ننكر عليها ذلك وانمـا ننتقد ملابسها التي تقادم عهد زيهـا من ثلاث سنوات ثم اندفعن في الضحك والقهقهـة وحولنا الكلام الى هوبر فاثنين عليه ومدحن حذاقته التي اهلته رغماً عن حداثته لذلك المنصب الرفيـع فتوردت وجنتا ليلي وقد تسعرت في فؤادها نار الجوى. وبينما هنَّ كذلك واذا بمترفيو قد اقبـل فاخبرهنّ وهنَّ في الحديث انهُ دعا هوبر لشهود التمثيل في ملعب الخيل الجديد في تلك الليلة

ولما عادت ليلي الى قصرها اطلعت اباها عما طي صدرها من عوامـل الشوق والانعطـاف الى ذلك العصفور الذي كان في وسعها ان تقتنصهُ في اميركا لكنهُ افلت من يدها لما عبر البحر المحيط وصار في فرنسا وحسبت ذلك ضرباً من الكنود فقـالت لوالدها : لعل هوبر يجهـل تعيينهُ مديراً لشعبة باريز بواسطتنا فلماذا لا نطلعهُ على ذلك فيضطر الى مقابلة النعمة بالجميل

لا يابنيـة ان ذلك سرٌ بيني وبين المدير العام فيجب ان لا افشيه لهوبر

— ما العمل اذن ليعرف ان لنا عليه فضلاً

— ليس المنُّ من اللياقة فالاولى ان ندع الامور تجري في مجاريها وعليكِ ان تبعدي ذكره من فكركِ ما امكن

فعولت ليلي ان تنصاع لرأي ابيها واجتهدت ان تسلو الحبيب لكنها لما كانت تشهد العاب الخيل برفقة الاميرة زامركو قدم هوبر في اواخر التمثيل الى مخدع منترفيو الحاذي فلما وقعت عينهُ عليها حولت وجهها عنه قصاصاً لجفائه لانها لحظت احمرار وجهه وقد بدت عليهِ امارات الحب والاضطراب وقالت لا شك ان محبتي لا تبرح في قلبه كامنة

وعادت ليلي تلك الليلة منشرحة الصدر ونامت نوماً لذيذاً لم تألف عينها مثالهُ منذ امدٍ طويل لكنها عادت في اليوم التالي الى التنغص وقالت في نفسها لله يا ربي لماذا كان بالقرب مني ولم يكلمني . لِمَ توارى عني ولم يسلم عليَّ . . هل هو باقٍ على محبتي يا ترى . . . بلى بلى . . . ولكن ماذا ينتظر وماذا يريد . . . ما الذي يحول بيننا داعياً الى الانفصال وما الذي يصده عن الوصال ربي استجب طلبتي واصلح هذه الحال

فصل سادس وثلثون

معرفة الاميرة زامركو لجميل هوبر

كانت الاميرة زامركو على جانب كبير من الثروة وقد اودعت اكثرها في المصرف الاميركي في باريس واوصت هوبر ان يفطن بها عند اول فرصة تتسنى للارباح فقدم لها خدمة جليلة بان كسب لها بوقت قصير اثنين وثلثين الف فرنك فابتهجت به اي ابتهاج وعزمت ان تأدب لهُ مأدبة نظيفة اعراباً عن معرفتها لجميله

وبينما كانت الاميرة تسأل عن معدات المادبة وتأمر الخدمة باتقانها كان ربح الثلثين الف فرنك شاغلاً عقلها وهي تقول في نفسها لله در هذا الشاب ما احذقهُ لقد صدق . . . فيو اذ قال انهُ سينال مقاماً علياً وانها لفي هذا الافتكار واذا بمنترفيو قادم فرحبت به ترحيباً لانهُ كان مسافراً ودعتهُ الى المأدبة بعد ان اخبرتهُ عن سبب اعدادها

اكراماً للشاب هوبر الذي نصحها بشتري اسهم معادن ذهبية بسعر ثلثين فرنكاً كل سهم فارتفعت بثلثة ايام الى مائة وخمسين فرنكاً فربحت بذلك اثنين وثلثين الف فرنك

فسألها متعجباً كيف وعدكِ بقبول الدعوة وهو قد لازم الى الان جانب العزلة عن الناس ولم يقبل دعوة احد

فاجابته بسذاجة اني خدعتهُ باني دعوتهُ الى عشاء عادي على مائدتي ولم يعلم اني دعوت الى المأدبة ثمانية عشر شخصاً بينهم الكنت سنترمون وامرأتهُ وابنهُ وودربوكوف وفتاته

فاضطرب منترفيو ونهض من فوره ولم يطل الزيارة كعادته معتذراً ببعض المهام وواعداً بالقدوم الى المأدبة في الساعة المضروبة

وعند الساعة السابعة مساء وفد الى بيت الاميرة ولما لم يجد هوبر انشرح صدراً وكانت الاميرة تقرأ كتاباً وصلها حينئذٍ مع طاقة ازهار بديعة وقد قطبت حاجبها وقالت بلهجة تشفق : يا للغرابة ان هذا الشاب يقتل نفسهُ بكثرة الشغل ثم قرأت الكتاب بصوت مسموع وهذا نصهُ :

« سيدتي الاميرة

« بمزيد الخجل جئت استعفي هذه الساعة من دعوة كنت اراني سعيداً بقبولها فقد انتهت اليَّ اخبارٌ هامة من اميركا اضطرتني ان اشتغل سحابة النهار برمته دون ان اذوق راحة وكنت اؤمل ان انجز الشغل قبل الساعة المعينة ولكن لسوء الحظ ساقضي هزيعاً من الليل لاتمامه حتى اتمكن من ارسال النتيجة على لسان البرق الى نيويرك . فارجوكِ سيدتي ان تتنازلي وتعذريني وسانتهز فرصة اخرى اتشرف فيها بتقديم عذري شفاهاً وامحضكِ في الختام خالص الشكر والسلام »

هوبر ديرت

فلما اتمت قراءته سلم عليها منترفيو وقال لها : شاهدتهُ منذ هنيهة وكان يؤمل انهُ ينجز شغلهُ هذه الساعة لكن وردت اليه رسائل برقية من نيويرك بشان هبوط اسعار الفضة تضطره ان ينبئ الادارة الكبرى في نيويرك بكمية الفضة المضروبة نقوداً او

المودعة سيـاتك في جميع بلادٌ اوربا فهو ولاشك معذور

وكان كلام منترفيو قريباً للاقنـاع فصدقهُ الحـاضرون وقالت لهم الاميرة : أدبت هذه المـأدبة اكراماً لهوبر فلم يأتِ مما لنا ولهُ قوموا بنا الى المائدة

فلما سمع الكنت سنـترمون وامرأتهُ تغيرت الوانهما اما باقي المدعوين فلم يهمهم حضوره او غيابه الا ليلي التي كانت تضحك وتلاعب فاندهلت مبهوتة وتحول فرحهـا كدرًا ولم تصدق تلك الحكاية فقـالت لمنترفيو كأنها تستنطقهُ : لم يأتِ هوبر امرًا حسنًا فهو من طبعه جافٍ لا يحب المعاشرة فاجابها منترفيو بصوت خافت : ليس ملومًا وانما اللوم كل اللوم على الاميرة التي دعتهُ الى عشاء عاديّ

— فاذًا لما عرف ان المدعوين ثمانية عشر عدل عن الحضور فحسنًا صنعت باطلاعه على الحقيقة — لم اصنع ذاك عمـدًا بل بطريق العرض اخـبرتهُ انكِ من المدعوين مع سنترمون وامرأتهِ

— وهل كفى ذلك سبباً لمنعـه عن المجيء

— لا ولكن تحقق ان المأدبة تضطره ان يبقى الى نصف الليل مع ان العشاء العادي، ما كان ليبقيهُ اكثر من ساعتين — أ الى هذا الحد اوقاتهُ ثمينة واشغالهُ كثيرة

قالت هذا وابدت برأسهـا اشارة استهجان ثم عادت الى ما كانت عليه من الضحك واللعب اما منترفيو فقال في نفسه « لقد اصبت المرمى فها هي قد ا تهجنتهُ الان وساجعلها تكرههُ بقـدر ما شغفت به فتتخلص منهُ . . . » ثم التفت الى دريوكوف واخذ يحادثهُ بمسألة الفضة الشـاغلة عقول الاميركان عمومًا

فلما قام المدعوون الى المـائدة جلس الشبان والشـابات منهم الى جانب واحد وفي وسطهم ليلي وارثور بن سنترمون الذي جعل يقص بعض ما وقع لهُ من الحوادث مع البنات على شاكلة ما يصنع شبان هذا العصر من التباهي والافتخـار بما يأتون من المنكرات وكثيرًا ما يغـالون في الكلام او يلفقون مختلقين ما لا اصل لهُ ثلبًا لاعراض الكرام وكانت حلقة ضحكهم من تلك القصص مالئة الغرفة

وفي هذه الغضون قالت احدى المدعوات لامه ليويدة : ما اوفق ليلي لارثور فاجابت

ليونيدة متأسفة : لا اجد في ولدي بعد ميلًا الى الزواج لانهُ حدث ومع ذلك اراه اليوم منعطفًا الى ليلي خلاف عادته فحذار يا مسيو دربوكوف

فلم يكترث دريوكوف الى هذا الهزل بل اجاب عليه بمثله قال: لا علاقة لي بهذا الامر البتة فانت تعلمين ياسيدتي ان عندنا في اميركا كل فتاة حبلها على عنقها فتفعل ١٠ تشاء

فلما قاموا عن المائدة طلبت الاميرة الى ليونيدة ان تطرب الجماعة بصوتها الرخيم فتدللت وتجاهلت الى ان ترجتها ليلي فانصاعت لها وشرعت تغني وابنها يوقع الالحان على القيثار فتشنفت الاذان بتلك الانغام الشجية ·

وكانت ليلي رغمًا عن تظاهرها باللعب والضحك مقبوضة الصدر لان ذكر هوبر كان منطبعًا في مخيلتها فلدى استماعها ذلك الغناء كانت نفسها تنبسط له وتسلو كل هم ولذا كانت كلما فرغت ليونيدة من اغنية ترجوها بتلحين أُخرى حتى سكرت من هزة الطرب وأشربت حب ليونيدة التي شعرت بانعطاف نفسها اليها

وكان الكنت سنترمون لا يشبع من النظر الى ليلي التي فتنت فؤاده فانتهز هذه الفرصة ليعرض عليها ان تتلقى شيئًا من فن الموسيقى على امرأته ليونيدة فشكرت ليلي هذه التلطف ورضيت ان تتعلم تلك الانغام المطربة في ايام معلومة

﴿ فصل سابع وثلثون ﴾

كما الوالد يكون الولد

لما شب ارثور وترعرع سلك مسلك ابناء الاكابر الذين تبطرهم البطالة ووفرة الثروة فيسعون وراء الملاذ ويبددون الاموال في الفسق واللهو وقد عين لهُ والده ستين ليرة راتبًا شهريًا فكانت لا تكفيه الا اياماً قليلة فيستدين ضعفيها في سائر ايام الشهر من المرابين بفوائض فاحشة دون علم والديه

وكان سنترمون يسمع شيئًا عن شرود عين ولده وتبذيره فلم يستهجن ذلك لعلمهِ انهُ كان وهو في سنهِ يجري المجرى نفسهُ وقد اتلف ميراث والديهِ بسنين يسيرة بل كان

فيذلك العمر نفسه ينقاد الى الهوى ويصرف المــال بلا حساب حتى تتراكم الديون عليهِ فيصفيها في آخر كل سنة يبيع بعض املاكهِ ورغماً عن تقهقر ثروتهِ كان لاينفك يمشي مشية الاكابر اصحاب الملايين ففي قصره سبعة من الخدم وفي اسطبله خمسة من الجياد وكان يأدب المآدب الفاخرة لكنهُ كان يماطل بدفع المطلوب منهُ للخياط والجوهري والغسالة وصانع الاحذية الخ

اما ارثور فكان يؤدي المطلوب منهُ لارباب الصنائع نقداً ولم يكن مديوناً لاحد منهم بشيء وكلما احتاج الى الدراهم كان يسعى لدى المرابين فيمدونهُ بما يشاء ومتى اجتمع عليهِ مئتان وخمسون الف فرنك كتب لقاءها تمسكات باربعمائة الف وكان يرجوهم كتم السر فلم يفشوه حباً بصالحهم

وكان الكنت سنترمون مغرماً بالفتاة ماينا فكان يرشقها كل ليلة في اثناء اللعب بطاقة بديعة من الورد وقد اوصى الخادم المكلف بانتقائها ان لا يطلع احداً على عمله وان يراقب حركات ماينا عند هبوط تلك الطاقة يومياً وكانت ماينا في حرزٍ حريز ولم يرَ الى مواصلتها سبيلاً فاراد ان يشتري لها نوطاً للصدر مرصعاً بالجواهر النفيسة ليضعهُ في طاقة الورد كهدية نفيسة في رأس السنة الجديدة

فمرَّ بجوهري من اصحابهِ فوجد عنده حليةً فريدة في بابها من ابدع التحف تبلغ قيمتها عشرة آلاف فرنك فقر رأيهُ على اخذها وقال للجوهري قيدها عليَّ بالحساب فعارضهُ الرجل بدين لهُ عليه يبلغ ضعفي هذه القيمة وطلب اليهِ ان يصفي الحساب الاول ليعطيهُ النوط فغضب الكنت وتركهُ ومضى يدمدم ويرغي مزبداً وقصد مشترى مثلهِ من عند غيره لكنهُ خجــل ان يرفضهُ عليهِ لانهُ مديون لهُ ايضاً فعول على استدانة القيمة بالرباء

وكان سنترمون يعرف كثيرين من المرابين الذين كان يستدين منهم الاموال الطائلة في صبوته ثم تركهم بعــد زيجته فانطلق الى احدهم بوريك والتمس منهُ عشرة الاف فرنك فاجــابه المرابي يسوءني ان ارفض طلبك لان الدراهم التي استدانها ابنك ارثور على اسمك هي اكثر مما تظن فاندهش سنترمون ولم يصدق ما سمعت

اذناه بل سألهُ متحققاً هل ولدي ارثور استدان منك مالاً »

— نعم وقد بدأ اولاً باستقراض عشرين ليرة ثم خمسين ثم مئة فلم احب ان اكسر خاطره وهو في مقتبل الشباب — لا باس من ذلك ولكن مئة ليرة انما هي قيمة يسيرة — لم يقف عندها بل تجاوزها الى اضعاف اضعافها حتى اجتمع عليه ثلثة الاف ليرة

— هذا مستحيل هل ابني مديون بثلثة الاف ليرة

— نعم وليس مديوناً لي فقط بل عليه سفاتج لسائر الصيارف بما يبلغ مجموعه ٢٠ الف ليرة — هذا غير ممكن البتة لان ابني غير مديون ولا بپارة واحدة لاحد الخزن في كل المدينة

— هذا صحيح وقد صنعه ارثور عن تروٍ وحكمة حتى لا يشعر ابوه ولا امهُ بالنفقات الفاحشة التي يبذلها في النزهات والمعاصي ولذا ارجوك ياسيدي الكنت بان تعذرني بامتناعي عن اسلافك عشرة الاف فرنك

فنهض سنترمون مغضباً وانطلق مدمدماً لاعناً نفسه لتراخيهِ في تهذيب ابنه الذي سلك في سبيل التبذير والاسراف مسلكه وعوَّل على تأديبه وتشديد عقابه ولكن قال في نفسه « ايها الطبيب طبب نفسك لقد نهجت لهُ الطريق فانتهجها واي لوم عليه ومن يشابه أبه فما ظلم . بل ما زلت انا حتى الساعة سائرًا فيها وها انا ساعٍ بمشترى نوط من الالماس بعشرة الاف فرنك لاهديه الى حبيبتي ايتا لعلها تنعطف اليَّ

وكان سنترمون سائرًا في الشارع على غير هدًى مستغرقاً في تيار هذه الافكار وقد ذكر انهُ لما كان في مثل سن ارثور كان قد اتلف كل ما خلف لهُ والده من الاموال الجزيلة واصبح يتقلب على جمر الصبر ترقباً لعروس موسرة

وما كان هذا الذكر ليطفيء لهيب غضبه لانهُ لم يستصوب ان يتساهل لغيره بما تساهل به لنفسه بل طفق يردد العبارة الاتية : أهو مديون بعشرين الف ليرة وهو في الثانية والعشرين من عمره فلافعلن به كيتَ وكيتَ . ولما دخل البيت نادى ارثور فاجابت امهُ وقالت : ذهب الى نادي الاكابر ليتسلى ولا يلبث ان يعود عند

المساء فهل انت في حاجة اليه فاستدعيه بالحال

— لا بل افضل ان يكون غائباً لان لي كلاماً اداولك فيه بشانه

فتوسمت ليونيدة في سنترمون انهُ ناقم على ابنها فقالت له من فورها : لا استصوب استياءك منهُ في حين انا راضية عنهُ الا ترى كيف اصلح سلوكه في هذا الشهر وامتنع عن قضاء الليالي خارج القصر وهو يتفانى في محبتي كلا لا اطيق ان اراك متكدراً عليه — آه ياليونيدة لو عرفتِ سبب تظاهر هذا الولد الخبيث بحسن السلوك وتقربه منكِ متملقاً لكنتِ تشتعلين مثلي غضباً عليه

— ما ذلك التقرب الا عن حب خالص ووداد صادق

— بل عن دهاء ومدالسة ورياء لارب يسعى اليهِ بلا مراء

— واي ارب ياترى — يتزلف اليكِ لتفي عنهُ ديناً باهظاً اثقل عاتقهُ — وهل لاجل يسير من المال تغضب على ولدك وفلذة كبدك الم تكن في عمره مثقلاً بالديون مثلهُ فلماذا لا تعذره وقد اقتدى بابيه . . . لماذا صرت الان بخيلاً خسيساً

— لست بخيلاً ولا خسيساً ولكن رأيت بعين التروي اننا تمادينا في الاسراف وان لم نتلافَ الامر اصبحنا افقر الفقراء

وكانت ليونيدة تكره البحث في المال وتصرفهُ بلا حساب وكان سنترمون موافقاً لها بهذا المشرب ولم يكلمها من قبل بهذا الشان

فامتعضت من كلامه وقالت لهُ بازدراء : عندنا ما يكفينا فلا حاجة الى التقتير

— لا شك انك ياعزيزتي في غرور فاعلمي اني لما تزوجتكِ لم اكُ املك شيئاً لاني بددت كل ميراث والدي في اللهو والملاذ ولم اكُ اتناول الا ريع الثلثة الملايين المحفوظة في صندوق الحكومة وقفاً على ابنتيَّ المفقودتين وكانت ثروتكِ خمسة ملايين فرنك فشرعنا ننفق منها حتى اتلفنا الى الان ثلثة ملايين ونحن اليوم مديونون بنحو سبعمائة الف فرنك فاذا اضفتِ اليها دين ولدنا ارثور لم يبق لنا الا اقل من مليون فاندهشت من هذا التصريح وقالت

لهُ : من المستحيل ان يكون ارثور مديونًا بمبالغ فاحشة فلا ريب انك في خطإٍ بيّن

ـــ تأكدي ياعزيزتي ان عليهِ للصيارف ما ينيف على اربعمائة الف فرنك

ـــ هذا مستحيـــل قد كذب الذي اخبرك

ـــ بل هو صحيح وقد تلقيتهُ من مصدر ثقة

فانقبض صدر ليونيدة غمًا حتى اوشكت ان يُغمى عليها فاخذ سنترمون يدها وقبلها وجعل يطيب خاطرها ويقول لها ما مضى لا يعود فعلينا ان نتذرَّع بمــا يرتق الخرق ونتخير افعل الوسائل لمنع ارثور عن ذلك التبذير

ـــ اسهر في البيت هذه الليلة فنتعاون على هذا التدبير

ـــ حبـــذا لو لم اعد بعض الاصدقاء بالملتقى في نادي الكبراء

قال هذا وقد اضطرم قلبهُ شوقًا الى مانيا اذ تخيلت لهُ صورتهـــا مطبوعة على صفحات فكره وهي راكبة الجواد في وسط الميدان فما عتم ان اخذ كساءه ومضى

اما ليونيدة فلبثت ساعة بقلب اسيف لا على المال المبدد جزافًا بل استيـــاء من مخاتلة ابنها وتملقه لها لغرض ذميم وانها لفي هذه الحال واذا بارثور مقبلًا متبخترًا وفي يده طاقة من زهر البنفسج فقدمهـــا لامه وضمها الى صدره فغلب حبه على غضبها فقبلتهُ متبسمة كعادتها وارتخت عزائمها ولم تتمالك ان توءنبه بكلمة فارادت الاستخلاص منهُ برقة فقالت لهُ بعد هنيهة: يظهر انك خسرت اليوم بالقمار

فتنهد الفتى وقال « لو كانت الخسارة من القمار فقط ياما كان اسهلها ولكن . . . » ثم ضم والدتهُ الى صدره ثانية وكاد يبكي فذاب قلبها حنانًا عليهِ وقالت لهُ « ءالك ياحبيبي ماذا اصابك ياولدي قل ولا تخف»

ـــ اه يا اماه الى متى يعيرني النـــاس حتى سئمت الحيـــاة لانهم يسومونني اشنع الذل منذ شهر وانا اتقلى على جمر الصبر

ـــ خسىء عداك يابني قـــل لي ما جرى لك

ـــ دعيني يا امي قد رغبت ان اجاري ابناء الاكابر في الجود والندى فلم يكن راتبي ليكفيني اسبوعًا فكنت اضطرّ ان استدين من المرابين الذي اذا اعطوا الف

فرنك اخذوا منهُ تمسكاً بخمسة الاف وبعد ان يعدوا بالتساهل يشددون على المديون الطلب ويتهددونهُ بافشاء اسمه والشكاية عليهِ الى والديه فياما اقبح هذه العيشة الذليلة بالحقيقة اني كرهتها والان تعلمت فلن اعود البتة . فالى من التجيء لوفاء دين يزيد على عشرين الف ليرة وهل لي من نصير غير امي لله ياماه ارحميني

وطفق ارثور يبكي بكاء مرًّا فعانقتهُ ووعدتهُ بوفاء دينه على شرط ان يدوم على حبها فانكشفت الغمة عن فؤاده وقد ادرك غاية مراده

فصل ثامن وثلاثون

في تدبير ليونيدة

بينا كان سنترمون صباح اليوم التالي يقلب على منضدته اوراق الديون المطلوبة منهُ واذا بليونيدة قد دخلت عليه باشة الوجه فظن ان ارثور انكر ديونه فقال لها « لا شك ان ولدنا قد كذب عليك واخفى عنك الحقيقة ولكن اؤكد لكِ الان اني عرفت امس من مصادر ثقة ان الدين المثقل به لا يقل عن اربعمائة الف فرنك

— لا حاجة ان تستفهم عن ذلك احدا فان ارثور اطلعني على التصحيح كله

فانذهل سنترمون من سكون امرأته بعد تلك الخسارة الجسيمة فاخذ يدها وقال لها من المستحيل ان يكون قد اخبركِ بالحقيقة كلها

— اجل وان عليهِ اكثر من عشرين الف ليرة

— وهل تلقيت هذا الخبر عنهُ بتمام الرضى

— ماذا كنت تحب ان اصنع به هل يجب ان اكسر خاطره وهو في زهرة عمره ونضارة شبابه او لم تصنع مثلهُ لما كنت في سنه

— فاذاً لم تؤنبيه ايضاً (ما شاء الله) هكذا تكون الوالدات والا فلا . . . اظن انهُ اخذ يتدلل على قلبك حتى صفحتِ عنهُ ووعدتهِ بوفاء دينه

— وعدني انهُ يتوب ويصلح احواله — نعما التوبة توبة الي الحصين ثوبة سائر الشبان قال هذا واخذ يقلب اوراق الديون

ثم قال لها : اتعرفين كم يطلب منا من الديون — قل لي بالمجار

— سبعمائة الف فرنك وان شئت التفصيل يكفي ان تعرفي انك اشتريت في غضون العام الفائت سبعة وخمسين برطلة (برنيطة) ثمن كل منها مئة فرنك

— مالي ولهذا التفصيل قل لي بكلمة واحدة كم علينا وكم لنا

— عندنا الان مليونا فرنك وعلينا سبعمائة الف فرنك وعلى ولدنا اربعمائة الف فرنك واذا وفينا الناس اموالهم تماماً لم يبقَ لنا الا زهاء المليون فنكون قد اكلنا مع ولدنا في مدة عشرين سنة اربعة ملايين فرنك

— اذا اضفنا هذا المليون الى ثلاثة ملايين ابنتيك المخطوفتين كانت اربعة ملايين تكفينا لسائر عمرنا اذا انفقناها بالحكمة والاقتصاد

— حياكِ الله وبياكِ الان انعشتِ قلبي بهذا الكلام فها انا عازم على تصفية جميع الديون وانتهاج عيشة جديدة مرتبة ولكن ما العمل بولدنا الذي لا يعرف الترتيب ولا الاقتصاد فلا ارى من وسيلة لمنعه عن الاسراف الا حجره باثبات قصوره بالحكمة حتى لا يقدم احد على اعارته بارة واحدة فيكتفي براتبه الشهري

— ليس هذا بصواب فماذا كنت تصنع لو عاملك والداك هكذا

— اذا لم نمنعهُ عن الاسراف فلا تمضي سنون قليلة الا ونحن على الحصير لا نملك شروى نقير فان لم تستحسني حجرهُ بقوة الحكومة فاني اوصي جميع الصيارف والمرابين بان ابني لا يملك شيئاً من المال

— بل عندي راي اصوب وهو ان ازوج ارثور عن قريب

— اتزوجين هذا الفتى الغرّ الذي لا يعرف بعد الكوع من البوع ما اغرب هذا الفكر . . . أمن جد تتكلمين فتكوني بعد قليل حماةً واصير انا جداً

— واي شيء يحول دون زواجه ياترى

— حداثة سنه وهو في الثانية والعشرين من عمره

— أوَلا يمكن ان يتخذ له الان صواحب ويتردد الى البغايا اللاتي يتلفن صحتهُ وامواله فلماذا لا تكون له امرأة يحبها وتحبهُ وتساعدهُ ان نصونهُ عن المحارم وقد جرت العادة اليوم

عند اكابرنا ان يزوجوا فتيانهم صغارًا الا ترى ابن فلان وفلان ...

وكان سنترمون قد استهجن لاول وهلة زواج فتاه خوف ان يصير جداً فيخجل ان ياتي ما ياتيهِ الشبان لكن ما اشدما كان فرحهُ لما رأى انهُ بزواجه تلتهي ليونيدة بكنتها واولادها فيخلو لهُ الجو فينطلق في سبيل الهوى كيف شاء بلا رقيب ولا عتاب فانقلب يقول لامرأته بالحقيقة ان فكرك هو عين الصواب ولكن هل عندكِ فتاة يليق لها ان تكون لهُ اهلًا

١٠ اكثر البنات المتقدمات للزواج ولكن ما اقل العاقلات اللانعات لراحه الازواج فلا ارى الطف من الآنسة البديعة التي مال قلبها اليَّ في ذلك الليلة الساهرة فهي كاملة الخلق والخلق واني انتظر قدومها هذا النهار عينهُ حسب الميعاد

— لعلها الانسة ليلي دربوكوف — هي نفسها اوَ لم تستحسنها

— نعم ولكن يزيد سنها على عمر ارثور سنتين او ثلاث سنين

— واي باس من ذلك وهي تزيدنا ايضًا بسبعة او ثمانية ملايين فرنك

— لكن اباها جافٍ غليظ ..

— ما حاجتنا اليهِ بعد اعطائنا ملايينهُ فسنعيده الى حقول اميركا من حيث اتى

— يعود لكي يجمع لنا ملايين اخرى

— انت قلت فمن واجباته ان يبذل نفسهُ ومالهُ في سبيل فتاته

— لله دركِ ياحشاشة الروح من مدبرة ماهرة ولكن اتظنين انكِ مالكة زمام دربوكوف وابنتهِ وزمام ارثور الذي تظنين انهُ يسهل عليك تزويجهُ وهو كالفرس الشموس — دع ولدي فانا لهُ كافلة ولكن اي اعتراض تأتيه مما يحول دون هذه الامنية — لديَّ اعتراضان : الاول التفاوت في العمر — لا يظهر على ليلي ان عمرها اكثر من عشرين اما ارثور فيبين انهُ تجاوز الخامسة والعشرين

— والثاني اننَّا لا نعرف لدربوكوف هذا لا اصلًا ولا فصلًا ولا كيف كسب هذه الثروة

ـــ ألعلك لما تزوجت بي سألت كيف اكتسبت ثروتي وهل يسأل عن اميركي كيف ادرك الغنى

ـــ يبين انك تسددين كل اعتراض فهل نعرف ياترى مقدار ثروته بالتدقيق

ـــ أوَ لست انت القائل لي بالامس ان ثروتهُ لا تقل عن عشرة ملايين فرنك

ـــ انما قلت لك ذلك نقلاً وما على الناقل من حرج فينبغي قبل ان نباشر امرًا ان ننقب عن هذه المسألة والخبير فيها هو صديقنا منترفيو

ـــ اياكِ ان تطلعهُ على هذا الحديث البتة وحذار منهُ فهو محتال مكار فلماذا لا تسأل عنهُ هوبر ديرت

فاضطرب سنترمون عندما طرق اذنهُ اسم هوبر وامتقع وجههُ فونبتهُ ليونيدة قائلة مالي اراك مضطربًا عند ذكره وهو ابن اخي امرأتك الاولى لماذا لا تسايره وتصادقه وتتعامل معهُ العلك مذنب ان كان ابوه قدمات فقيرًا وان كانت امهُ قد رفضت اسعافك لها بالمال لماذا تتجنب مواجهتهُ ومن حين تولى ادارة المصرف الاميركي لم تدخل اليهِ وكلما ورد ذكره تانف ان تقول انهُ نسيبك ولا اظن انهُ مسيء لك بشيء

ـــ حاشى ولا بد لي يومًا من التعامل معهُ لكن قلبي نافر من ذلك اليوم على انهُ هو نفسهُ يجانبنا أوَ لم تري انهُ بسببنا لم يأت الى مشهد لعب الخيل ولا الى تلك السهرة عند الاميرة فلم تلح عليهِ ليونيدة بل قطعت الحديث بقولها هاءنذا ساعية بعد الحبال والله محقق الامال

فصافحها باليد وهو يقول بابي انت وامي ياسيدة النساء استودعك لعناية السماء ثم تركها وذهب الى غرفته وهو ثمل من نشوة السرور بتعليل آماله بالخلال عنان حريته بعد زواج ابنه وانما وافاها بتلك الاعتراضات تظاهرًا بالاهتمام بخير ولده وتنصلاً من المسؤولية حتى اذا اخفق سعيها او ساءت العاقبة قال لها : « اني براء من كل تبعة وانت كنت اصل السبب »

ولم يخرج سنترمون من البيت بعد الفطور حسب عادته بل جعل يتأنى في لبسه وهندمة ثيابه ولبث نصف ساعة بازاء المرآة كالسيدات حتى اذا وفدت الانسة

ليلي تقدم اولاً لاستقبالها فدخلت مذعورة مرتجفة وجلًا ولاسيما لما رأت اتقان ذلك القصر والتأنق في زخرفته حتى اشبه اجمل قصور الملوك لما فيه من فريد الرياش ونفائس التحف فرحب بالفتاة احسن ترحيب معرباً لها عن حسن حظه باستقبالها ثم انحنى لها ومد لابيها يده فصافحهُ مسلماً عليه باحسن تحية واذا بليونيدة قد اقبلت تتهادى ببرد من الديباج الزاهر فعانقت الفتاة عناق ام لابنتها وشرعتا تتبادلان اخلص عبارات التودد والولاء فجلستا في القاعة الى ناحية وقعد دربوكوف مع سنترمون يتداولان في مسائل شتى وخصوصاً مسألة تربية المواشي ثم استأذنا وخرجا الى غرفة اخرى ولبثت السيدتان وحدهما فقالت ليونيدة اراني اليوم سعيدة بتعليمكِ ما تشائين من الاغاني

— لقد غمرتني بفضلكِ واصبحت لكِ مديونة واخاف ان يكون لك في ذلك بعض ثقل او عناء

— حاشى بل يسرني ان اراكِ بالقرب مني ولا يفارقني لطفك البتة

قالت هذا وطفقت ترنم اغنية جديدة وليلي ترافقها بصوتها الرخيم ولكن مع بعض شذوذ فاصلحتهُ لها وبعد تكرار الاغنيــة ثلاثاً تعلمتها ليلي وانتقلت الى غيرها فما لبثت ان تعلمتها وكانت ليونيدة في هذه الاثناء تتأمل في وجهها المشرق ومحاسنها الطبيعية الفتانة فانشغفت بها حباً وقامت من فورها تعانقها وتقبلها وبينا هي كذلك اذ انفتح الباب ودخل ارثور فاحمر وجه الفتاة خجلًا الا انهُ تقدم واخذ يدها مسلماً واعتذر عن دخوله عليهما بلا استئذان

فتلطفت الانســة بالجواب ثم جاء ابوها مع سنترمون الى القاعة وبعد زمان يسير تبادلوا حديث الوداع وخرج دربوكوف مع ليـلي مسرورين كل السرور من هاته الزيارة الصباحية وكانت ليونيدة قد همست في اذن ليلي انهــا تنشرح صدراً بتواتر زياراتها وهي مستعدة متى شاءت لخدمتها

ثم قالت ليونيدة لارثور كيف رأيت هذه الانسة الغضة البارعة الجمال المتناهية في الظرف والكمال

— رأيتها كسائر الفتيات الباريسيات — اوَ لم ينعطف اليها فؤادك

— ما المعنى هل في نيتكِ ان تدبريها لي عروساً

— لماذا لا وهي الطف من كل من رأت عيني من الاوانس

— زه زه هل في مثل سني يتزوجون . . لا لا انك مازحة فانا الان حرٌ ولماذا تجهزين لي الجام صغيراً

فصل تاسع وثلاثون

في توثق عرى الحب

كان من عادة الاميرة زاركو ان تقضي فصل الشتاء في نيس على ساحل البحر المتوسط وفصل الصيف في باريس وضواحيها فلما قرس البرد في كانون عمدت على السفر الى نيس فدعت ليلي لمرافقتها والحت عليها فابت فودعها في المحطة اكثر اصدقائها وفي جملتهم دربوكوف وابنتهُ وسنترمون وامرأتهُ فاشارت الى ليونيدة ان تلاحظ ليلي وتسليها فما كان احلى تلك التوصية على قلب ليونيدة التي دعت الفتاة لمرافقتها الى القصر في حين ان اباها ذهب مع سنترمون الى الملاهي

فلما اجتمعتا في العجلة وحدهما تعانقتا متبادلتين ارقَّ عواطف الحب حتى توثقت بينهما عراه وكانت ليلي واثقة باخلاص ام ارثور ولم تدرِ ان لها وراء هذا التظاهر مأرباً على ان ليونيدة التي كانت الى الان لاترى في هاته العادة الحسناء الا ملايينها الباهرة قد شعرت بنفسها مفتونة برقتها وطهارتها وصفاء نيتها وكانت تقابلها بسائر فتيات باريس فلا تجد بينهنَّ واحدة على شاكلتها بكمال الخلق والأدب وهنَّ يدعين بالاسم عذارى وليس فيهنَّ بالحقيقة ولا عذراء

اما ارثور فلم يكُ ليقبل الزواج في ذات السن وحمل كلام امهِ يومئذٍ على محمل الهزل والمزاح فلم تكلمه ليونيدة اليه بل اكتفت بان طلبت اليه ان يقدم لها لائحة مفصلة بكل ديونه فاخذتها وتردَّدت عن سدّها ففهم ارثور ان زواجهُ شرط لازم لادائها وكلما ابدى من الزواج نفور وجد امهُ اشدَّ تصمياً على رأيها فيتذمر ويستغيث ولكن ليس من مغيث

واخذت ليونيدة تدبر في ما يجب ان يصنع مانعةً اياه عن معاشرة ليلي ما امكن

ربما تكون قد تملكت فؤادها وعلمتهُ ان يحسن سلوكهُ في الخارج فاراً من جماعة الشبان الاغرار متدخلاً شيئاً فشيئاً في الفة الكبار فقال يوماً : الا تنتظرين ان اتروى في الامر قليلاً حتى اوافقك عليه فاجابتهُ على الفور : لا مراجعة في ما اقول حسبك ان ارضى انا فاني اعلم منك بما يؤول الى خيرك وسعادتك

وكانت ليونيدة تنتهز فرصة الغناء لتأسر قلب ليلي بما تبدي لها من عواطف الحب والاهتمام بتعليمها التفننات العصرية والاعتناء بالباسها حسب الازياء اليومية وتطلعها على آداب السلوك في الالفة الباريسية فكانت ليلي تزداد بهما تعلقاً يوماً فيوماً لكنها لم تسلُ ام هوبر التي ملكت فؤادها قبلاً

وكما ان ليونيدة لم تدخر وسيلة الا تذرعت بها لسبي قلب الفتاة كذلك سنترمون قد التصق بابيها ليل نهار حتى قضيا خمسة عشر يوماً في الفة غريبة كانهما روح واحدة في جسمين وقد سر دربوكوف من هذا الصديق غاية السرور لانهُ كان في النهار يصحبهُ الى المتاحف والمنتزهات واماكن تربية الخيول وترويضها وفي الليل كان كدليل يهديه الى الحانات والملاهي والى زوايا باريس ... فكان يكرع في كؤوس الملاذ التي كان قد فطم نفسهُ عنها منذ امد طويل حباً بفتاته لانهُ لم يكن يفارقها فلما خلا لهُ الجو بقبولها الى عناية ليونيدة ووجد لديه دليلاً محنكاً مالت نفسهُ الى اللهو والطرب وذكر ايام صبوتهِ اذ كان ملاحاً وكان يقضي اكثر الليالي في تلك الملاهي في نابولي ونيس

وكان الرجلان عند رجوعهما في آخر الليل يزعمان انهما قادمان من المراسح او من ملعب الخيل الجديد وكانت ليونيدة ادرى باحوال زوجها فتفهم كيف يقضيان تلك الليالي بخلاف ليلي التي صدقت هذا الزعم وانشرحت صدراً لانشراح والدها على انهما كانا يذهبان غالباً الى الملعب الجديد لا حباً بشهود التمثيل بل لان سنترمون كان مغرماً بجمال مايتا فيحب ان تكتحل عينهُ بمرآها ويرغب ان يرى بعينه كيف تتناول طاقة الورد التي اوصى باعدادها لها في كل ليلة لترشق بها من يد مجهولة في اثناء اللعب

وكان زفيريو لـما تكرر القاء طاقةالورد نفسها عدة ليال متوالية داخلتهُ الريبة منها فاخذ يستفهم ماينا عنهـا لعل تلكالطاقة واردة من عاشق علق بهواها سرًا فانكرت كل الانكار بانهـا تعرف من اين ترد تلك الطاقة البديعة فتظاهر ابوها بعدم تصديق كلامها وقال لها ارتبتِ لماذاكره باريس وابغض الاقامة فيهـا فهي ملأى بالسفهاء الذين لا يخجلون ان يراودوا اطهر النساء فما كان احلى عيشة لندن

ولم يكن هذا السبب هو العلة الوحيدةالتي كانت تقلقـهُ بل كان في اضطراب دائم من وجوده في بلد واحد مع معلمـهِ الاول منترفيو ورفيقه في البخت دربوكوف وكانا كلاهما يلاطفـانه كلما صادفاه فلم يك ليثق بتلك الظواهر بل كان يحسب ان وراءها دخيلة ومكيدة تؤول الى التهلكةولم يسكن بلباله الا حينما بلغهُ ان منترفيو مسافر لبعض اشغال تستغرق غياب خمسةعشر يوماً فحمد الله ولم يلتفت ليلتئذٍ الى طاقة الورد المرسلة الى ماينا حسب العادة

﴿ فصل اربعون ﴾

تقرب ارثور من ليلي

منذ سفر الامـيرة زامركو الى نيس كان دربوكوف وابنتهُ ينطلقـان كل ليلة الى ملعب الاوبرا وكانا مضطرين ان يقبلادعوة سنترمون الى المخدع الخاص به لعدم فراغ مخدع يستأجرانه وكان سنـترمون فياثناء التمثيل ياخذ دربوكوف تارة الى صاعة المرطبات وطورًا الى نادي الممثلات وحينًا الى حجرة الراقصات حيث يقضيـان اكثر الوقت بين لهوٍ ومزاح اما ارثور فكان عندابتداء التمثيل يتوارى عن الابصـار ولا يعود الا عنـد ساعة الانصراف وفي بعض الليالي لا يعود فكانت ليلي تلبث وحدها مع ليونيدة في اغلب الاحيـان على انهالاحظت ان بين الراقصـات غادة مفتونة بحب ارثور او مفتونًا بجمالها لانها كلمابرزت الى الملعب كانت تفوق سهـام لحظها الى مخدع سنترمون لعلها تتمتع بنظرة من حبيبها

وكان ارثور يظن ان ليـلي لا تدري من ذلك شيئًا ويتجنب كل ما يدعو الى

الريبة ثم اخذ يتقرب منها شيئا فشيئاً حتى انهُ امتنع ليلة عن التغيب ولبث في المخدع مع امه وليلي واجتهد في تسليتهمــا وقدقص على الفتاة قصصهُ الغريبة مع الباريسيات المفتونات بمحبتهِ وكان يطعن عليهن ويستهجن سلوكهن ويذم الشبان الساعين وراءهن فقالت له عجباً كيف تتظاهر بكرههن واراك متعلقاً بهن تقتــل اكثر اوقاتك بمعاشرتهن

— اجري مجرى سائر الشبــان فاننا رغبة في التسلي نمازحهن ونسايرهن ونضحك منهن فينخدعن بحبنا ويسقطن سريعاً في اشراكنا

وانهُ لفي هذا الحديث واذا بسريبوكوف قد اقبل مع الكنت سنترمون فقال لارثور ما بالنا نرى الليلة منتهجاً خطة جديدة بالزهد والتعقل لقد اشتاقت اليك صواحبك وقد سألن عنك مراراً

— دعني منهن فقد كرهتهن — اذاً قطعت صلاتك معهن

— بل سئمت نفسي هذه العيشة حيث قضيت اربع سنين منهمكاً في الملاهي والترهات فرأيت كل ذلك باطــلاً بلا ألقاب الا هماً وتنغصاً وصار احب اليَّ ان يتمتع بصري بآنسة طاهرة عفيفــة من ان تقضي الليالي الطوال مع اولئك الحسان

فسرت ليلي من هذا الكلام ولو لم يكن في قلبهــا ذرة حب لارثور وادركت انهُ لاجلها لزم الغرفة ليلتئذٍ وشرع يبادي بالزهد والحكمة

وفي اليوم التــالي لم يخرج ارثور من البيت حسب عادتهِ لان ليلي اقامت فيــه طوال النهار واخذ يضرب على القيثار موقعاً عليه اطيب الالحان فاستدعتهُ امهُ لمشاركتها بالغناء مع الآنسة ليلي فقضوا ساعتين بغاية الانبساط والسرور وقد انتقلوا من الغنــاء الى التهريج وتبــادل النكات وكان ارثور ياتي من الملح والاقاصيص ما يضحك الثكلى

ثم ادى الحــديث بينهم الى تنغص ليلي من انهــا ستترك باريس يوماً هاجرةً ملاذها وافراحهــا فانقطع ارثور عن المزاح اخذ بيد الفتاة وكلمها من جد قال نرجو ان تبقي في باريس زمنــاً طويلاً واعلمي انك ان سافرت فانك ، قلوبنا اثار تحيي ذكر الطفك ما طال المدى

فتوردت وجنتا ليلي لانهـا لم تتعود ان تسمع من ارثور مثل هذا الكلام وكان احب اليهـا ان لا يتخطى حديثهما حدود الهزل على ان ليلي قطعت خطابهما باستئناف الغناء ونقر العود وكثيرًا ما كان ذكر هوبر في هذه الاثناء يتردد الى مخيلتها فتتنغص لكنها كانت تموه عنها الاغتمام اعتبار ان نوال المراد من هذا البـاب ضرب من الاوهام او كاضغاث احلام

فلما رجع سنـترمون مع دربوكوف اندهلا متعجبين من وجود ارثور في البيت في حين لم يكن يقيم فيه الا نادرًا ولم يلبث الامير كي ان شرب الشاي وانطلق مع فتاته الى القصر

وقد توسم دربوكوف ان ارثور قد مال الى ليلي لكنهُ لم يرغب ان يبدي لهـا من ذلك شيئـًا اما هي فلبثت قرب سريرها تتأمل في لباقة هذا الشاب وتلطفه وتحببه اليها وقالت في نفسها لماذا لازمها منذ ليلتين في مخدع التمثيل تاركًا عشرة الراقصات ولمَ اقام في البيت سحابة يوم امس ألعلهُ لاجلي هذا لعلهُ محا سلوكهُ القديم لينهج خطة جديدة اساسها الفطنة والرصانة و بعد ان راعت عباب هذه الافكار ساعة طويلة قامت الى سريرها تتنازعها الهواجس

فصل حادٍ واربعون

تلاقي الشقيقتين

في صباح احد الايام عند بزوغ الشمس وفدت مارينـا وابوها زفيريو على بيت فرنسيس ليصحباه في نزهة صباحية في غابة بولونيا بظاهر باريس وكان قد وعدهما بان يقدم لركوبهما من احسن جياد الخيـل الموكول اليه ترويضها فما لبث ان سلم عليهما حتى جاء الفتاة بفرس كريمـة غراء وبسط كفهُ لتصعد بهـا اللطافة فقفزت الى الفرس برشاقة الحمامة فقال لها امتحني لي هذه الفرس التي اشتريتها لابنة المسيو دربوكوف صديقي

فلما كانوا في الطريق طفقوا يتجاذبون اطراف الحديث وكانت عرى الحب تزداد بين مارينا وفرنسيس توثقًا لكن كلا منهما كان يخجل ان يبيح بهـا للاخر وفيما هم

عند مدخل الغابة اذ صاحت ماينا . هوذا بنت دربوكوف

وكانت ليلي قد خرجت صباحئذٍ الى النزهة في الغابة مع ابيهــا وآل سنتومون جميعاً فاتجــه فرنسيس نحوهم وسلم على دربوكوف فقالت له ليلي : ألعلك نسيت ما اوصيتك به يافرنسيس — حاشى أن انسى خدمة سيــدتي بل جئتها شغلي الشــاغل وها هي الفرس اتينا بها الان للامتحان

— ومن هو فارسها ياترى

— هوذا فارسها الانسة ماينا كتستينا التي امامك

فخفق قلبها سروراً وصاحت ما اظرف هذه الحجر الغراء وما احمل تناسب اعضائها ثم هرعت نحو ماينا وسلمت عليها بلطف وبشاشة فابتهج فؤاد ماينا واي ابتهاج ولم تدرِ بماذا تجيب لان قلبها شغف بليلي حباً وكانت قد رأتها من قبل مراراً فانبسطت لمرآها ولكن لم تتحرك في احشائهــا عاطفة شوق اليها تحركها هاته المرّة على انها قالت لهــا بصوت مرتجف : ان فرنسيس الذي اشترى لك هذا الفرس خاف ان تزعجكِ لعدم تعود ظهرها على سرج النســاء فعهد اليَّ في ترويضها لتألفهُ شيئاً فشيئاً

— شكراً لكِ ياعزيزتي واني ارجو ان لا يسبب لك ترويضها خطراً

— لا خطر البتة بل اراني سعيدة ان اقدم لك هذه الخدمة اليسيرة

— بارك الله بلطفكِ فتقبلي مني خالص الشكر

وقد استغربت ماينا سلوك الفتــاة الاميركية معها واحتفاءها بها احتفاء لم تألفهُ في فضليات الباريسيات اللاتي كنّ يزدرينها ولا يتنازلن لخطابهــا في حين ان اكابر الرجال من امراء واعيــان ووزراء كانوا يترددون اليهــا ويبغون رضاها ولكن في داخل الملعب او اذا كانوا وحدهم اما اذا اتفق ان صادفوها في الطريق او في اراضي الحديقة وكان معهم نساؤهم او اخواتهم و بناتهم فلا يلتفتون اليها واذا وقع بصرهم عليها فجأة تظاهروا بانهم لم يعرفوها

ولم تكن ماينا لتحزن من جراء هاته المعاملة لانها كانت عارفة مقــام نفسها وموقنة بان حرفتها لا تمكنها من نوال اكرام سيدات الباريسات وهذا ما حملها على

الا ندهال لما رأت تلطف ليلي معها ومما زاد اندهاشها اقبال سنترمون وامرأته وابنه نحيتها اقتفاء لأثر رفيقتهما

وكانت ليونيــدة قد امتعضت من تنــازل ليلي الى هذا الحد لكن سنترمون الذي كان هائماً بحب ماينا وقد دفعه الشوق الى مخاطبتها اشار على امرأته وابنــه ان يجاريا الاميركية على ذوقها وتقدم امامهما للتسليم على لفارسة الهيفاء التي خجلت من تجملهم المفرط معهــا وطفقت ليلي تخبرهم مسرورة بان الفرس الكريمة انما هي لها وكانت معجبة بها فعرضت ماينا ان تمتحنها امامهم بالجري والقفز ثم طارت بها تنهب الارض نهبــاً وعادت باسرع من لمح البصر فكاد قلب ليلي يطير فرحاً فقالت لابيها ما اشد سروري بحصولي على هذه الفرس الفريدة فسأل الفارسة كم من الزمان يستغرق هذا الترويض والامتحان فاجابته نحو ثمانيــة او عشرة ايام

ولما افترقوا عن ماينــا تخلف عنهم سنترمون لتوديعها فاخذ يدها وقال لهـا : ما اسعد حظي في هذه الساعة التي مكنتني من تهنئتك خارج الملعب . ثم انحنى لها وسلم عليها تسليمةً على اميرة خطيرة

﴿ فصل ثانٍ واربعون ﴾

استراق الجرائد للاخبار

من ابهج ساعات النهار لدى ام هوبر ساعة الصباح حين كانت تعدُّ له الشــاي وتتملقهُ وتداعبهُ مداعبتها له يوم كان صبياً وكان ينشرح صدرًا بهــذا الدلال متسلياً عن الهم الذي كان يقرضهُ وفيما هو يشرب الشاي كانت امهُ تتصفح الجرائد الصباحية وتقرأ له خلاصة الاخبار وانهــا لفي سياق القراءة يوماً واذا بها قد وقفت بغتة وامتقع وجهها اذ وقع بصرها على عبارة ذكر فيها اسم ليــلي دربوكوف فاضطرب هوبر وقرأ في الجريدة ما يأتي :

« غصت امس غابة بولونيا بالوافدين اليها من كل انحاء باريس وكان بينهم الانسة ليلي دربوكوف الاميركية الفتــانة القلوب بجمالها الرائع مع الكنتة ذات سنترمن وقد

وقفتا تتحدثان مع الانسة مايتــا كنتستينا الممثلة الشهيرة في ملعب الخيل الجديد »

فالقى هوبر الجريدة الى الارض متأسفا وقال متأففــا « أ الى هذا الحد بلغت حتى صارت تعــاشر الممثلات » ثم ارتمى على المقعد وطفق يبكي كالولد فعــانقته امه وجعلت تطيب خاطره ولم تكن لتظن ان حبها متمكن في قلبه وقالت له روحي فداك ياولدي لو اخبرتني انك بها هائم لما كنت اريتها عين الجفــاء ون شئت الان فاني اصلح ما مضى باطلاعها على سبب بعــادنا وتنحينا عنها

ــ لا يا اماه ما هذا العمل بمناسب

ــ بل هو عين الصواب واني على يقين انها لا تزال على عهد الولاء فاوثق معها ما ارتخى من علائق الوداد ونعود الى ما كنا عليه من الصفاء والهناء وهي اليوم في افتقار الى من يسليها بعد سفر الاميرة زامركو الى بيس

ــ لا يا امي لا تفعلي فان لديها سميرة قد خلفت الاميرة الا وهي كنتة سنترمون التي كانت معها امس كمــا روت اجرىدة وهي تلازمها ملازمة الظــل . . اه اني اكره هذه المرأة ولا ادري لماذا امقتها وقد شاهدت منذ اسبوع ليلي في مخدعهــا في ملعب التمثيل كالنعجة بين يديهــا خاضعة لها خضوع البنت لامها ولا تبدي عملاً دون استشارتها وقد تعلمت منهــا الاسراف البــارز ى اشترت من الحلي والتحف ما يقدر بخمسين الف ليرة وقد ساء درتوكوف بخمسين الف ا اخرى من نيويورك وباشر بانفاقهــا ولقد فرحت يوماً بهذا الاسراف وقلت ليت هــاته الاموال تذوب في باريس سريعاً ذوبان الشمع امام النــار فتنخفض ثروة ليلي وحينئذٍ اتجرأ ان ازاحم طلابها فلعل دلوي يحرز ملأه بين الدلاء

ثم عاد الى البكاء واصعــاد الزفرات فضمتــه والدته الى صدرها واخذت تعزيه وتسليه ولكن القلب قريح ولا يشفيــه الا بلسم الحب الصحيح

على انه عاد يخاطب نفسه وهو يقول : تعساً لحظي ومــا اخف عقلي وما ابعد وهمي بقلة ثروتها فمهما بذرت واتلفت من الاموال يبقى عندها كثير بثير وما انا الا فقير حقير فاين الثريا من الثرى . . فلقد احسنت يا امي بابعادي عن التوغل في حبها

ولكن ما العمل وهو في تاصل . . .

. . ثم تجلد الشاب فقام وغسل وجهه ولبس ثيابه وانطلق الى عمله ولبثت امهُ تلوم نفسها لانتهاجها خطة الحياد كل هذه المدة مع انها كان في وسعها ان تتزلف من ليلي وتقرب بين الحبيبين فتعقد بينهما قراناً سعيداً تحسدها عليه كل الامهات لكن حالت دون ابرام ذلك عاطفة شريفة الا وهي عدم رغبتها في مخادعة دربوكوف وفتاته باخفائها عنهما العار الذي لحق بزوجها قبل وفاته من حيث افلاسه وخسارة اصحاب ديونه خمسين الف ليرة وكانت تحب ان يتصل هوبر بكد يمينه الى جمع هذا المال وابفاء الديون استرجاعاً لشرفه الاثيل ومحواً لذلك العار وكانت قد حفظت هذا السرّ مطوياً في صدرها وقد كتمته عن ولدها نفسه الذي كان ايام افلاس ابيه حدثاً وهذا ما كان يحدوها على مجانبة عشرة الناس ولزوم عيشة التنكر وعدم سماحها لهوبر ان يتخذ لقب شرف ابيه البارون

وكانت ليلي تطالع الجرائد ايضاً في كل صباح فعثرت على العبارة المدوحة فيها فداخلها بعض السرور وقالت: لا ريب ان هوبر يقرأ هاته العبارة فماذا عساه يفتكر او يقول يا ترى . . ولكن لا اظنهُ يكترث اليها لان ذكري برح من ذهنه في حين ذكره لا يبرح على صفحات قلبي مسطوراً فما اكفره بالجميل . . اواه ما ضرَّه لو بي على الوداد ونفسي لا تهوى سواه . . . ارى كل يوم عشرات من الشبان يحومون حولي حومة الفراش حول النور ولا يدفعهم اليَّ الا المال وليس لاحد منهم ذرة حب في فؤادي

. . ثم اخذت قلماً وقرطاساً وخطت على سبيل التفكر اسماء الشبان الباريسيين الذين ذكرت انها عرفتهم وهم كلهم طوع امرها تختار منهم ما تشاء فاجتمع منهم لديها اسماء سبعة وستين رجلاً ثم فحصت الاسماء فاسقطت منها اثنين وثلثين وقد وجدت لكل منهم علة هذا لانهُ متقدم في السن وذاك لانهُ قبيح الصورة وذلك لانهُ لا يحسن الرقص وغيره لانهُ ثرثار وهلم جراً ثم امرت النظر على الخمسة والثلثين الباقين منهم فوجدت لكل منهم عيباً حتى محتهم عن آخرهم ولم يبق لها احد مثل هوبر لكنها لم تر

الى الوصول اليهِ سبيلًا

وبعد ان تأملت ساعة تتنازعها عوامل الشوق والكدر اخذت تقول في نفسها اهب ان هوبرت اصر على الجفاء فهل يجب ان ابقى اكراماً له كل عمري بتولاً حاشى . ينبغي ان انساه وامحو من القلب هواه ولا ارى امامي اليق من الشاب ارثور ابن الكنت ستترمون فهو عريق النسب مقارب لي في السن اسمر الوجه اسود العينين اهيف القد لطيف المحاضرة وهو يساوني في الثروة وامهُ تحبني محبة امٍّ لبنتها وانا احبها فلماذا لا اقابل ميله اليَّ بالمثل واذهل عن ذلك الكنود الذي كان اول رائش لي بسهم طائله من يوم علمني في قصرنا بالحقــل رقصة الحبلان

وارادت ليلي بعد هذه المنــاجاة ان تنشرح صدرًا ولكن تواردت الى عينيهــا العبرات فاخذت تذرفها سيولاً وانهــا لفي هذه الحال واذا بليونيدة قد دخلت عليهــا وهي تنشف دموعها فعانقتها وسألتهــا عن سبب غمها فوهت عليها متعللة بانهــا تكدرت مما قرأت في الصحف بشأنها فقالت لها هي عادة الجرائد تتنسم الاخبار وتفسح لكل مقالٍ مجــالاً وكان الاولى بكِ ان تفرحي لامتداحها منكِ على اني لا اقالك استياءً عند ذكر اجتماعنا بابنــة المشعوذ زفيريو لا عن ترفع وكبرياء لان الفتاة طاهرة كاملة ولكن خوفًا من السنة الناس الذين يستهجنون منا هذا التدني

— اه ليتني استشرتكِ قبل ان اكلمها فهي هفوة تضاف الى سائر هفواتي فلا افعل من اليوم شيئًا دون مشورتك

— لم تأتي في ذلك ياعزيزتي امرًا قبيحًا وماذا يهمك ثرثرة الناس فليقولوا ما شاءوا فدعي عنك هذه الهموم وهلمي معي لاكمال ما شرعنا به من اعداد شجرة عيد الميــلاد لاننا دعونا الى سهرة تلك الليلة نحو ثلثين رجلًا وسيدة مع اولادهم رغبة في التسلي شأننا في كل سنة

فانقادت ليلي الى ليونيدة انقيــاد الطفل اذ لم تكن تحب ان تخالف لها امرًا واشتغلت معها كل النهار في زخرفة تلك الشجرة وتعليق جميع اصنــاف الحلويات والالاعيب عليهــا حتى جاءت من ابدع التحف

وعند المساء اخذ الناس يفدون الى بيت سنترمون افواجاً فيستقبلهم ادثود وعدبو كوف لان ليونيدة وليلي كانتا منهمكتين باتمام الزينة وقد اغلقتا باب الغرفة حتى تنار الشجرة بالشموع والمصابيح فلا يذهب شيء من رونقها

اما سنترمون فقد انتهز الفرصة ليحمل الى صديقته مايتا هدية العيد وانطلق الى الملعب الجديد فلم يجد فيه احداً من الذين الفوا شهود الالعاب هياماً بالفتاة مايتا لاشتغالهم جميعاً بحفلة شجرة الميلاد فلما اتمت دورها بادر اليها وسلم عليها فاندهشت وقالت له : عجباً من حضورك الان في حين ان الجميع قد نسوني

— انما جئت لاحييك تحية المساء واعود الى البيت حيث اجتمع نحو مئة نفس من المدعوين

وفيما هو يقول هذا واذا بيد خفية ألقت طاقة الورد المعهود القاؤها في كل ليلة فقال : « يظهر اني لست وحدي بالذي جاء اكراماً لك » ثم ودعها وانطلق مهرولاً

وبينما كانت مايتا تتنشق رائحة الطاقة وقع بصرها على نوط من الذهب مزداناً بالحجارة الكريمة وفي وسطه رسم الحرف الاول من اسمها (م) مرصعاً باللآلىء الغالية فارادت ان تنادي سنترمون فوجدته قد توارى عن بصرها فتنهدت وقالت في نفسها : من هو ذلك اللئيم الاثيم الذي يظن انهُ يستميل قلبي بهذه الوردات المرسلة يومياً ثم صعدت الى غرفتها ولم ينتبه اليها ابوها لانهُ كان يحادث فرنسيس فلما تاملت طاقة الورد ونوط الذهب الخالص المرسوم عليهِ حرف الميم باللآلى الغالية توردت وجنتاها وصرخت غاضبة تباً لتلك اليد القبيحة .. ألعلها يد سنترمون نفسه ... لا لا حاشى لمثله ان يأتي مثل هذه الفعلة الشنعاء ... ولكن ما لي وله فليرسل ما شاء فلا يرى مني الا عين الصد والجفاء . هل يجب ان اخبر عنهُ فرنسيس لكن اخاف ان يتأثر ان كان يحبني ... لا لن اقول لاحد بل اسعى بنفسي لكشف تلك اليد الجانية وحينئذٍ أفهم صاحبها ان ليس لحوم كل الطيور مأكولة

ثم اخفت النوط في خزانتها وما وصل ابوها الى الغرفة الا فرطت عقد الطاقة والقت بالوردات من النافذة الى الحديقة

اما الكنت سنترمون فعاد الى قصره وانسل بين الجمع دون ان يدع احداً يشعر بقدومه من الخارج وكانت غرفة الزينة مقفلة بعد حتى اذا تم زخرفها فتحت ابوابها فسطعت منها الانوار تبهر الابصار وارتفعت ضجة السرور ودخل المدعوون الى الغرفة وعيونهم شاخصة الى نظام الشجرة وترتيب المغارة الممثل فيها مذود بيت لحم فجعل الكبار والصغار يجتنون من تلك الشجرة البهية اصناف الفواكه والاثمار ويثنون على براعة ليونيدة وليلي اللتين كانتا تلاطفان الجميع

وبينما القوم ملتهون قالت ليونيدة لزوجها على انفراد : أليس من محرر جريدة هنا فيصف هاته الليلة الزاهرة

فانطلق سنترمون الى غرفته وخط رسالة وجيزة في وصف تلك الحفلة وعرض فيها بالثناء على ليلي دربوكوف التي غنت غناء بديعاً و بعث بها من فوره الى صديق له من كتاب الجرائد ثم عاد الى الساعة ودخل مع المدعوين الى المائدة لتناول العشاء

فصل ثالث واربعون

في التنافر والعتاب

اعتاد فرنسيس ان يرفق بخيله ويتجمل مع رفاقه وخدمه لكنه اتفق ذات ليلة انه كان غاضباً فشرع يضرب الخيل بلا شفقة ويجافي رصفاءه بالكلام ويشتم خدامه وما ذلك الا لانه تلقى رسائل مغفلة التوقيع يذكر فيها ان لحبيبته عشاقاً يبعثون اليها بطاقات الورد ليلياً وقد ارسل لها احدهم في عيد الميلاد نوطاً نفيساً

ولم يكن فرنسيس قد سمع بخبر هذه الهدية التي ظن ان مايتا قبلتها دون اعلام ابيها وما ذلك الا دليل على ان حب سواه قد تمكن في قلبها فتأوه على خسارة هاته الدرة اليتيمة وندم على استقدامها من لندن الى باريس التي قلما يسلم فيها قلب طاهر من السقوط باشراك سكانها

وقد لحظ ان هاته الرسائل كانت منفذة من ايديني ديموسكي او بواسطتها بتغيير الخط والانشاء في كل رسالة ولن فيها غلوًا او وشاية لكن اهداء النوط كان

قد حيره لان مايتا التي اعتادت ان لا تخفي عنهُ شيئاً قد كتمتهُ عنهُ ثلثة ايام وقد ظهر لهُ ان ايريني قد عقدت معها بعد تلك العداوة صداقة متينة وتزلفت من ابيها زفيريو متوددة اليها بغاية التجمل

• اما مايتا فلم يسكن لها بال من حين تلقي ذلك النوط وكثيرًا ما عزمت على القائه من النافذة مع طاقة الورد لكنها امتنعت عن ابراز عزمها الى حيز الفعل خوف ان يظن صاحبهُ انها قبلتهُ . وفكرت حيناً بان تسلمهُ الى مدير الملعب كشيء وجدتهُ في الملعب لكنها خشيت ان يسألها عن مكان وجوده وان يتكدر ابوها لعدم اطلاعها اياه عليهِ

على انها عوَّلت اخيرًا ان تطرح النوط في ساحة الملعب فيشيع خبره و يسمع صاحبه بانها رفضت قبولهُ فلا يبقى لهُ بها امل وفي ليلة السبت بعد ان لعبت دورها القت النوط الى الارض بخفة وانسابت الى مخدعها فاستوقفها صوت ابيها يقول: هوذا فرنسيس آتيكِ بشيء فقدتهِ في باحة الملعب

ثم تبعهُ فرنسيس يصحبهُ سنترمون ودربوكوف وبعض الرجال المشغوفين بمايتا وقال لها : خذي ياسيدتي هذا النوط الذي التقطتهُ ساقطاً منكِ هذه الساعة

— هذا لا يخصني — كيف لا وعليهِ رسم الميم اول احرف اسمكِ وقد شاهدتهُ منحدرًا من ثوبك على الارض

فارتجفت واصرت على الانكار فقال سنترمون لعلهُ سقط من احدى المتفرجات المتدليات فوق باحة اللعب

فسرَّت مايتا من هذا التعبير وقالت هذا محتمل فخذوا النوط الى مدير الملعب وهو يعلن عنهُ لعل لهُ صاحباً ثم تركت الجماعة متحيرة من هذا الامر وصعدت الى حجرتها

فقال بعض الواقفين لعلها تقبلت النوط خفية عن ابيها فلما انكشف امرها انكرت وهذا طبيعي لا يفتقر الى تأويل وكان فرنسيس يسمع هذا التفسير ويعيه في قلبه مكتئبا و يقول لقد صدقوا في ما كتبوا لي فهل من يرد عليَّ من فقدت يدي

اما ستترمون فتأسف على ضياع هذه الحلية النفيسة سدًى وقد قضى امدًا طويلًا في انتخاب لآلئها واضطر الى استدانة خمسمائة ليرة لمشتراها فلم يبقَ له مطمع في التقرُّب منها خوف ارصاد الرقباء عليها وكانت كل جوانحه تميل اليها ولم يدرِ ما الجاذب الطبيعي السالب فؤاده

فلما تفرقوا اغتنم دربوكوف فرصة انفراد فرنسيس حزينًا لاستئناف مخابرته بشأن استخدامه وكيلًا على امواله ومواشيه في اميركا فوجد الوادي ذا زرع فأخذ يندد بتعس حاله في الالعاب ويبسط له بهاء مستقبله في خدمته

فاقتنع فرنسيس بكلامه وقال له على مسمع من زفيريو: لما رفضت طلبك لاول مرة ياسيدي دربوكوف كان لديَّ بعض موانع تحول دون ترك باريس اما الان وقد ارتخت تلك العلائق المرتبط انا بها فصرت اقرب الى القبول وسنبحث بهذا الشان في فرصة اخرى مليًّا

لا حاجة للبحث فقد اطلعتك على استعدادي لعمل ما يوافقك وعينت لك الراتب كافيًا فمتى عولت على السفر فاخبرني

— لا تنتهي ثمانية ايام الا تنال مني الجواب القاطع

— اؤمل ان يكون بالايجاب — ليس الامر بعيدًا

ثم لحق دربوكوف بستترمون وانطلق فرنسيس ومرَّ امام زفيريو شامخ الانف كأنهُ لا يراه فغضب زفيريو وقال في نفسه لقد انقلب صديقنا عدوًّا فما معنى قوله ان العلائق المرتبط بها قد ارتخت ... العلها طلبنا منهُ ابرام علائق .. أوَليس هو الذي جاء بنا الى باريس . ثم طفق يتمشى وهو يضرب بيديه الهواء كأنهُ يقاتل عدوًّا ويتوعد فرنسيس بالانتقام لاساءته الظن بفتاته العفيفة

ثم دخل الى غرفة ماريا فوجدها ساترة وجهها بيديها وهي تصعد الزفرات فانقبض صدره وجعل يبكي لبكائها ويسألها ان تكشف السبب فلم تجب له سمعًا فقال لها ألم اكن عارفًا ان قدومنا الى باريس سيكون وخيم العاقبة فحسبنا الان فيها مكث قومي اعدي منذ الان اشياءك فسنهجرها غدًا ولكن لا نسافر صباحًا فان لي ثأرًا

آخذه منهُ في الغد لا محالة

فرفعت حينئذٍ وجهها الوردي المتبلل بالدموع وقالت منفعلة من هو يا ابت

— هو فرنسيس الذي اتهمك بالتوط فلادرية غداً كيف تتهم المخدرات ثم تسام الى انكلترة او الى اي بلد تشائين — أمن جدٍ تقول انشا نهجر باريس

— واية علاقة لنا فيها · قد عرفت منذ اول يوم خشيتها ما جذبك اليها · · لقد كنت تحبينهُ . . . اما الان وقد انقضى الامر

— اي امر انقضى يا ابتِ

— اريد ذلك الجنون بتعلقكِ بمحل ابله نظير فرنسيس

— ماذا تقول يا ابتِ واني احبهُ الان اضعاف حبي له قبلاً

— اتحبينهُ وهو قد اساء بك ظناً

— لو لم اكن احبهُ لما كانت اساءة ظنه لتهمني

فبهت زفيريو من هذا البرهان الذي لم يخطر له على بال وبعد ان سكت قليلاً قال لها : من المستحيل ان تحبيه بعد ان بدا منهُ ما بدا

— اشتهي ان لا احبهُ ولكن أيمكن ان يؤمر القلب بالرغم عنهُ وهل من الممكن ان اطيع لو أجبرت ان لا احبك

— ان بين الامرين بوناً بعيداً . . . ألعلهُ ابوكِ

— لا اعلم كيف العمل يا ابي انما احبهُ ولا استطيع الا احبهُ فيجب ان اكلمه فاذهب يا ابتِ واستدعه الى هنا — حاشى لا يكون هذا

— انا أريد يا أبتِ — كلا كيف يجيء بعد ان اهانك ما لم يأتِ صاغراً مستغفراً فهل تعرفين ماقال لدربوكوف علناً وقص عليها الخبر كله

فاضطربت ماينا وساءها تغير قلب فرنسيس ومبادرته الى ازدرائها وهما عم فؤادها غماً عزم فرنسيس على اطراح هاته الحرفة والسفر الى اميركا وتركها وحدها بلا انيس تحتمع به متنقلة من بلد الى بلد كا عم ها ش ... الى ابيها تتوسل باستدعاء فرنسيس

فقال لها ساستدعيــه ولكن يجب ان يعرف ٠٠٠

— لا يجب ان يعرف شيئاً — بل ساقول له ٠٠٠

— لا تقل له الا اني راغبة في مواجهته وارجوك ان تلاطفه ولا تريد نفوره

فلم يستطع مخالفتها بل انطلق وهو يقول في نفسه منذ هنيهــة كنت اريد ان اضربه منتقماً والان اذهب لالاطفــه متصاغراً ٠٠٠ اه ما اشد سطوة الفتيات على قلوب الرجال وبينا هو نازل على الدرج اذ رأى في اقصاه عند باب الملعب فرنسيس يحــادث ايديني بلطافة لم يعهدها فيه من قبل فقال ما هذا الانقلاب الغريب فهل ساعة واحدة كفت لاطراح ذكر ماينا والاقبــال على عدوتها اللداء بالحقيقة ان الرجال لجاحدون كل وداد وولاء

فلما افترق المتحادثان اتجه زفيريو واخذ بيد فرنسيس وقال له اصعد معي حيث لنا معك كلام

— ما المانع من الكلام هنا ونحن على انفراد

— ليس الكلام معي بل مع ماينا — هل تريد هي ان تراني

فلم يجــاوبه زفيريو بل جذبه بعنف وصعــد به وكان فرنسيس قد شعر بوخز ضميره لاشتباهه بطهارة ماينــا فخجل ان يقابلها فلما كاد يصل الى البــاب تردد عن الدخول فدفعه زفيريو وبعد ان دخل معه واغلق الباب قال لابنته : هوذا الرجل

فلما مثل فرنسيس بازاء ماينا التهبت احشاؤه وندم على ما فرط منه واراد ان يتنذر فتلعثم لسانه فقالت له ماينــا دعني اتكلم ياسيدي وانت اسمع لي مصغياً فلا حاجة ان تردد لي ما فكرت فيّ فقد فهمت كل شيء وكنت احب ان اطوي الامر حتى تكشف الايام براءتي ولكن بلغني انك مسافر عمــا قريب فلم اشأ ان يبقى في فكرك عني ذكر سوء في حين اني طاهرة الذيل فلا يهمني احد من الباريسيين الذين يتظاهرون بانهم يعبدونني فهم جميعاً عندي كلا شيء ولا اكترث الا الى اعتبــار الصديق الوحيد الذي احبته نفسي وحل في قلبي المنزل الثاني بجانب ابي

فلم يتمالك فرنسيس سكوتاً بل صرخ قائلاً : كفى كفى فاني كنت مجنوناً ٠٠ وقد

صدقتك قبل ان تقولي شيئاً

— لا بد من الكلام فان عندي شيئاً لا يبرح عندكم خفياً : من المقرر ان قلبي لم يمل الى احد من الباريسيين الذين كانوا يدعون محبتي لكن بالرغم عني جرأت واحداً منهم فكان ذلك علي وبالاً

فحملق زفيريو عينيه واكمد وجه فرنسيس وظنا كلاهما ان هنالك امراً قبيحاً فاستأنفت مايتا الكلام قالت : لاشك انكما تذكران طاقة الورد التي كانت ترد الي في كل ليلة وكنت اقبلها مسرورة لانشغافي بحب الازهار ولم يخطر على بالي ان صاحبها شرير لانه لم يصحبها قط بكتابة ولا علامة ولا اشارة فظننته يشبه ذلك الشيخ الذي كان يرسل لي الحلويات ليلياً لما كنا في فينا لانه كان يرى في صورة ابنة وحيدة له قصفها البين فتيه لكن تبين لي بعدئذ ان صاحب تلك الطاقة اراد ان يغويني شيئاً فشيئاً وانتهز ليلة عيد الميلاد اذ لم يكن في الملعب احد من المدعين بمحبتي ليراودني عن نفسي ووضع في طاقة الورد ذلك النوط الذي وجدته يافرنسيس

فاندهش الرجلان واي اندهاش وقال زفيريو مغضباً : أمن سبعة ايام عندك هذا النوط وانت تخفينه عني فلماذا ذلك الخداع

— لقد اذنبت يا ابت باخفائه عنك ولك الحق بان تلوم ولكن خفت ان يغضبك الامر فتكره باريس وتهجرها .. ولم اجد امامي صديقاً ابيح له بسري

فقال لها فرنسيس وقد تلهب بها حباً : لي وحدي كان يجب ان تكشفي امرك فما كان احب الي ان استقصي اثر ذلك الخبيث اللئيم

— كنت ارغب ان ابيح لك به اعتبار أنك اخلص صديق لي بعد والدي ولكن توسمت في حبك لي فتوراً ورأيت انك تغيرت عني في هذه الايام الاخيرة فاحجمت

فارتعد فرنسيس لتذكره تلك الرسائل السرية التي كانت تسعى عاينا بمكر ودهاء ثم قالت : فاجهدت الفكر في كيف التخلص وحدي من هذه الورطة فوقعت من حيث لا ادري . فالان بما انك قبلت طلب دربوكوف وانت مسافر الى اميركا قريباً فلا ارغب منك الا ان تحفظ في قلبك ذكر الحزينة مايتا كفتاة عفيفة بلا عيب

وما اتمت هذه العبـارة الاخيرة الا انهمرت العبرات من عينيها سيولاً فانطرح فرنسيس على قدميها واخذ بيديها وصرخ والصوت مختنق حزناً : مابنا سامحيني اغفري لي يا مابنا .. قد جننت وكنت تعيساً .. كنت احبك حباً يقرب من العبادة . . ولكن لم اكن اتجرأ ان ابوح به كما لم تتجرئي انت خوف اغضاب ابيك واضطراره اياكِ الى ترك باريس ثم تحول حبي الى غـيرة حمقاء . . . فهل لك ان تسامحيني

فقال زفيريو مقطباً : انا لا اسامحك البتة ولكن هي قلبها حنون

فتحولت عبرات حزنها الحارة الى دموع الفرح الباردة وانهضت فرنسيس من الارض وقالت له اني اباركَ تلك الغيرة التي مهدت لنا السبيل الى فتح قلوبنا بعضنا الى بعض ولا شك انك تقرأ على صفحـات قلبي ان حبي لك قد ازداد اضطرماً من حين بدأت بتعذيبه

فقال زفيريو مكشراً : ما شـاء الله اين الحشمة واين الحياء

فامسك فرنسيس بيدي زفيريو وقال له : انا وحيـد على الارض لا اب لي ولا ام وقد كان لي أب اذكر انهُ شرس الخلق كان يضربني ويضرب امي لكنهُ مات ثم ماتت حين كنت صبياً وقد عشت الى الان وحدي فماذا يمنعني من ان اكون لك ابناً وتكون لي اباً فنذهب نحن الثلثة الى اميركا فنقضي عند دربوكوف حياةً سعيدة بعيشة رغيدة

فتهللت مابنـا وهتفت : نعم نسافر كلنا ونكون اسرة واحدة

وكان زفيريو قد سرَّ من انفصام تلك العقدة لكن ساءه الانتظام في خدمة دربوكوف الذي لم يزل يذكر انه كان له رفيقاً في سفينة معلمهما منترفيو وخاف ان ينكشف امره فتسوء العاقبة فقال لفرنسيس : ان كنت تحب ان تكون لي ولداً فلا تبرم مع دربوكوف امرًا قبل ان تشاورني — سمعاً وطاعة يا ابت

وحينئذٍ ضم فرنسيس مابنا الى صدره فتحولت اكدارها الى فرح عظيم لم تنلهُ عمرها كلهُ وقد ايقنت ان وجوه السعادة قد بشت لها فلا شيء يفصلها عن حبيبها

وفيما هم بهذا الحديث كانت ايريني واقفةً على الباب تتنصت وقد تمكنت من استماع كل شيء فانطلقت الى غرفتها ترغي وتزبد وهي تقول لقد خاب الأمل وانقطع

الرجاء فما علي الا الاستدعاء منتر فيو الآن لاتمام ما ابرم من حبائل الغدر والدهاء

فصل رابع واربعون

في عيد رأس السنة

ما انبثق فجر اليوم الاول من السنة الجديدة الا توافدت على ليلي الهدايا ورقاع التهاني من كل صوب حتى سئمت من كثرتها لاضطرارها الى مكاتبة اصحابها معربة لهم عن شكرها ولم تكن تحب الكتابة فجعلت تتسلى بترتيب رقاع الزيارة صفوفًا حتى اذا جاء ابوها وقف يتامل في تلك الرقاع فوجد فيها اسماء دوقتين وست اميرات واحد عشر مركيزًا او مركيزة واربعة وعشرين كنتًا او كنتة فضحك وقال : اجتمع هنا كل من عنده ولد للزواج

وكان بين الهدايا صحفة لحلاويات من ابدع ما اتقنه يد الصناعة مرصعة باثمن الجواهر الكريمة اهداها الكنت سنترمون الى ليلي التي تقبلت من امرأته خاتمًا فريدًا ومن ابنهما ارثور قلة نفيسة فيها طاقة كبيرة من الزنبق الغض ١٠١ دربوكوف فاتحف صديقة سنترمون بجوادين كريمين جاء بهما من حقوله باميركا

وما كانت هذه الاشياء لتسر قلب ليلي التي كانت ترى نفسها منقبضة الصدر ترتجف كلما فتح باب القصر كانها تنتظر زيارة موعودة بها حتى اذا جاءت الساعة الرابعة بعد الظهر انطلقت مع ابيها لتهنئة نسيبة لصديقتها الاميرة زامركو واوصت الخدم ان ينظروا الزوار حتى تاتي لمقابلتهم بعد بضع دقائق فما اشد ما كان غمها لما رأت عند عودتها رقعتي زيارة هوبر دي رتواه فاستشاطت على الخدمة غضبًا واوسعتهم توبيخًا وتقريعًا في حين لم يألفوا فيها الا كل لطف ووداعة وقد انتظرت كل النهار هذه الزيارة فذهب انتظارها طلقًا

وبعد ان قضت هنيهة خابطة في لجج الهواجس والبلابل قالت لابيها هي بنا الى بيت هوبر فان مثل هذه الزيارة ترد على الاثر فلم يسعه الا تلبيتها فاستقبلتهما ام هوبر بتلطف وكلف اين منه ذلك اللطف الذي كانت تبديه لهما في نيويرك لانها لما

رأت فخامة قصر دريوكوف وزخارفة كبيوت الملوك صغرت نفسها وصرمت مع ابنهـا حبل كل امل بالوصول الى ليلي واضطرت ان تقابلها مقابلة غريبة لا رجاء لها فيها ولم تدرِ ان ليلي لا تزال على العهد وان كلمة واحدة كانت كافية لضم القلبين المتحـابين بعقد الزواج

ولم تطل الزيارة لان صدر ليلي كان قد ضاق من ذلك الفتور الذي لم تعرف لهُ علة وبعد تبادل عبارة الوداع قالت لابيها ماذا جرى لام هوبر من حين رجوعها الى وطنها وهي صابرة مع ولدها على جمر الغضـا آه ما احسن ما كانت لطيفة انيسة في بيوبرك لاشك ان هنالك مصيبة نزلت بها ليتني اعرف تلك المصيبة فابادر الى كشفها عنها ثم صمتت وعادت الى البيت كئيبة وقضت ليلة سوداء

وفي اليوم التالي بين كان هوبر مشتغلاً بتسطير خلاصة اعمـال المصرف حسب العادة السنوية اذ استأذنتهُ ليوبيدة راغبة مواجهتهُ فانذهل من قدومها ونفر قلبهُ من مقابلتها الا ان اللياقة لم تمكنـهُ من رفض مواجهتها فاذن لها واستقبلها بفتور استقبالهُ لزائرة غريبة فلما خلت به بسطت يديهـا لهُ كانها تتضرَّع اليـهِ وقالت لهُ بحنوٍّ : ياولدي دعني اخاطبك بحرية مخاطبتي لنسيب زوجي فان لي غرضًا معك في خدمة التمس منك قضاءها وما كنت لاتجرأ ان ابسطها لك نظرًا لما بيننا من التنافر القديم العهد فالى مَ هذا التباعد بيننا ويسوءني ان صلات الصـداقة بين امك وزوجي مصرومة من عشرين سنة وانت وانا كلانا لا ناقة لنا في سبب هذا الخلاف ولا جمل فعلينـا ان نصلح بينهما

— ان هذا الاصلاح متعـذر ان لم اقل مستحيل فعبثًا معالجة الولوج في هذا الباب لان الاسبـاب التي حملت امي على قطع علاقة الصداقة لاشك انهـا صوابية ولعلك لست واقفة عليها

— اجل اني واقفـة على كل شيء وعارفة جميع الاسباب فليس ثمت ما يقتضي كل هذا التشديد فان والدتك تشكو من ان زوجي كان قبل ان اقترن به علة جميع مصائب والدك في حين ان اللوم على صروف الحدثان ومقادير الزمان ليس الا . ثم لما تول

بابيك المرض الاخير وامسيم في ضيق شديد بسبب سنترمون وفهمت معه ان نمحو الخطأ السابق ونصلح الماضي فابت والدتك ولقد تنغصنا من ذلك الحين كما اننا متنغصو العيش منذ اتيتما الى باريس وما برحتما تعاملاننا كغرباء

ـ ولكن هذه اول مرة تشرفت بمواجهتك

ـ ألعلك ظانت اننا لم نعرف انك لم تعدل عن اجابة دعوة الاميرة زامركو الى المادبة التي اعدتها لك الا لتتجنب مواجهتنا أو لم ندرِ انك لاجلنا تلازم مع امك جانب الحياد وتتجنبان كل دعوة وزيارة

فصمت هوبر ولم يستطع ان ينكر هذا اما هي فاستأنفت الحديث قالت : اما الان وقد ذهب كل شيء فاني اشتاق مع زوجي ان يمحى ما مضى ونعود الى عقد اواخي الحب والولاء شان سائر الانسباء وما يدريك ما تلد الايام فان حوادثها قد تدعو المرء ان يستعين بقريبه كما قضت ان احتاج الى خدمتك الان وانت عدوي الوحيد

لست عدو احد وليس في قلبي ادنى اثرٍ للحقد والضغينة نعم ان سنترمون كان علة شقاء والدي وسبب مصائبه ووفاته ولن انسى ذلك البتة ولكن لست بحاقد عليهِ . . ولست اعرفهُ ولا اريد ان اعرفهُ . . واني اصفح عما اساء به الى ابي ولكن لا اكون لهُ صديقاً وما احسن ما صنعت والدتي بلزومها جانب الحياد عنكم فما من احد يعلم في باريس اني انا نسيب سنترمون كما اني لم اتخذ الى الان لقب البارون الذي كان لوالدي فلا فائدة لنا ولا لكم بتغيير هذه الحال على اني لا ابرح مديراً للمصرف المودعة فيه ثروتكم واراني ياسيدتي سعيداً باتيان الخدمة التي تشائين لكي تتيقني ان قلبي منزه عن كل ضغينة

وكانت لهجتهُ الاخيرة مشربة لطفاً احيت في ليونيدة ميت الامل بعد ان كانت قد يئست من ادراك المرام لما رأت من تشديده اولاً في امر المصالحة فاطرقت لحظة وقالت لا اتجاسر ان ابيح لك بما اروم

ـ عفواً ياسيدتي اني ارجوكِ ان لا تتأخري في استخدامي بما تهيين وان لم تخاطبني

كدير مصرف فخاطبيني على الاقل نظير صديق مخلص

وكان هوبر قد لام نفسه لافراطه في مجافاتها في اول الحديث فتلطف بها تعويضاً عما فرط منـه فتشجعت وقالت له اني اكلمك نظـير صديق فارجوك ان يبقى كلامنا طي الكتمان — اعدك بكتمانه وهو واجب عليَّ لياقة

— قد يمكن ان يسألك احد عن ثروتنا واحوالنا المالية ولعله اتى من عهد قريب

— لا لم يأت احد ولم أعلم احداً عنكما بشيء ولا اظن ان الراغب في الوقوف على هذا الامر يأتي الي بل يستعـين بادارة الاستعلاما ت حيث يجـد افادات مدققة من كل الوجوه يعرفها اعضاء هاته الادارة كمعرفتهم شؤون اكثر الاسرات الكبيرة

— بل اليك سيـأتي رجل مستفهما منك نفسك وهو من اهم المتمولين المودع عندكم مـالاً جزيلاً ويسمونهُ عريكوريدر بوكوف

فارتد هوبر كان ماءاً بارداً صب على جسمه من راسه الى قدميه لكنـهُ تجلد خوف ان تشعر نيوبيدة بما طرابه فتمنعه من اتمام الحديث فاستأنفت كلامها قالت : ان الذي نطلبـهُ منك انا وزوجي ان تقوا المسيو در وكوف الحقيقـة ولا شيء الا الحقيقة أفليس عندنا مليونان في مصرفك

— مليونان وثلاثة وستون الفا ومئتان وخمسون فرنكا وخمسـة وسبعون سنتيماً حسب الميزانية الصادرة في غاية كانون الاول المنصرم

فارتجت ورددت في نفسها انه كثر افتكاره بنا واشتغاله بحسابنا ثم قالت له : لله در ! لو كنت تعرف جميع حسـابات المصرف بمثل هذا التدقيق

— اجل اعرف اهم الحسـابات منذ اولها

— اذن لا بد ان تكون قد لاحظت ان ثروتنا تتناقص يومياً

— انتِ قلتِ لان ثروتك قبـل اقترانكِ بسنترمون كانت نيفاً وخمسـة ملايين فرنك — اذن يا ولدي هـذا الذي ارجوك ان تهملهُ عند مجاوبة در بوكوف فلعل تناقص هذه الثروة يكدره وحسبهُ ان يعرف ان لنا في هذا المصرف اكثر من مليونين تحت امرنا حين الطلب

— هذا عين الصحيح وحسب اشارتك اقوله لدربوكوف عند ما يسألني فاطمئني بالاً

— اما زوجي فهو يملك ثلثة ملايين فرنك وهي ميراث ابنتيه المخطوفتين المودع عند احد الامنــاء تحت سيطرة الحكومة الى اجلٍ فيكون المجموع خمسة ملايين فرنك وهو كلهُ لا يبلغ نصف ثروة دربوكوف على ما اظن لكن عفوًا ياسيدي على هذا التطرف في الدخول بما لا يعنيني

— ما في ذلك من سرّ فان دربوكوف يقول علانية انهُ ربح عشرة ملايين فرنك وفي كل سنة يضيف اليهــا مليونًا جديدًا وعنــدما تنضم ثروتكم الى ثروة لا يلبث المجموع ان يقارب العشرين مليونًا

قال هوبر هذا وقد خنقتــهُ العبرة فاوقفها وامتقع لونهُ واحمرت وجنتــاه وارتجفت يداه لكن ليونيدة لم تنتبه اليــه لانها ثملت من رنة اسم الملايين واطرقت من جرى عبارته الاخيرة وسألتهُ :

— اعندك علم بشيء يا ترى — شاع الخبر وذاع وملأ الاسماع ان سيخطب ابنتكِ ارثور ليني دربوكوف ... وقد تأكدت ذلك من حديثك الان

— انت اول انسان اطلعتك على هذا السر فارجوك الكتمان

— ثقي باني ساحفظــهُ طي القلب واشكرك على ما خولتني من الثقة

— آه حبذا لو تتعرفنا عند تمام هذا الفرح وحبذا تزول ذات البين برضى والدتك

— كلا ياسيدتي هذا مستحيل فاقطعي كل امل من هذا القبيل

— اني على كل حال شاكرة لفضلــك

فانحنى لها هوبر وودعها الى الباب الذي اقفلهُ وراءها ثم ارتمى على المقعد واندفقت من عينيه سيول العبرات احر من الجمرات وصدره يصعد الزفرات ويردد الحسرات ويقول . هذا . ؟ غريج كفي ياربي فقد تم الاناء وامست البلوى لا تطاق وقد بلغت الروح التراق

فصل خامس واربعون

اطلاع هوبر على مصائب والده

بعد ان بكى هوبر طويلاً انفذ الى والدته كتاباً ينبئها فيه بعدم اتيانه يومئذ للغداء ثم ترك المكتب وخرج يهيم على وجهه في شوارع باريس وكان النهار ماطراً مثلجاً والبرد قارساً لكنهُ لم يكترث الى شيء ولم يشعر ببرد ولا رطوبة لان عقلهُ كان تائهاً في لجج الهواجس وهو يقول ياضيعة العمر ياخيبة الامل · تباً لحظي فقد فقدتها وهي مهجة الفؤاد ولا استطيع بعد اليها سبيلاً واتعساه

ولبث النهار بطوله على هاته الحال شارداً في الاسواق لم يذق طعاماً حتى جاء المساء وكانت الامطار قد بللتهُ ونفذت الى جسمه وهو غير شاعر فاندهشت امهُ من مرآه كئيباً نحيلاً فسألتهُ فكتم عنها بلواه وادعى ان اشغال المصرف اضطرتهُ الى التأخر ولسوء الحظ لم يصادف عجلة يستأجرها فلم تصدقه الا انها لبثت تتأملهُ مبهوتة وهو مرتجف وقد دنا الى الموقد ليصطلي فجاءتهُ بثياب نظيفة فلبسها بدل المبتلة فانتعش وطلب الطعام

وقد ظنت امهُ ان سبب اغتمامه لعلهُ ناتج عن اطلاعه على سر افلاس والده الذي كتمتهُ عنهُ في صدرها عشرين سنة وكانت تترقب الفرص لكشف الغطاء عن عينيه فعزمت ان تتوضح حاليه الان بعد ان وضح لهُ بالامر المكتوم طي الخفاء

وكان الجوع قد اضناه والتهب انهاكهُ بشهوة ثم دخل غرفتهُ وجعل يذرف الدموع سراً وكانت والدتهُ تراقب الباب فاقبلت عليه تلاطفهُ وتسائلهُ فاصعد وتنهد وقال : واحسرتاه ليلي تتزوج · فصرخت امهُ صرخة يائسة ثاكل : والهفي عليك ياولدي الان عرفت جرحك فتصبر يامهجة كبدي

— اه يا امي كنت قد سلوتها حيناً ولكن كان لي فيها بعض امل اما الان فقد انصرم حبل الرجاء وهي تتزوج قريباً · وبمن تتزوج ياترى · بارثور ابن سنترمون ذلك الخبيث الذي كان علة مصاب ابي وابنهُ اليوم يزاحمني على مناط سعادتي ويدهورني

في وحدة اليأس والشقاء وامصيبتاه

وما اتم هوبر كلامهُ حتى سقطت امهُ مغمى ً عليها فانهضها الى المقعد ونضح وجهها بماء الزهر فانتعشت فبكى على صدرها وبكت معهُ ثم قال لها : اين شجاعتكِ يا امي واين ثبات جنانك اوَ لست انتِ بالتي كنتِ تنصحيني باطراح ذكر الحبيبة فما بالكِ الان لا تتمالكين اسفاً على فقدها

— لست بمكتئبة من اجلها ياولدي فاصبر قليلاً اطلعك على كل شيء واعلم ان هذا الشاب الذي سلبك الان سعادتك قد سلب ابوه سعادة ابيك وكان علة وفاته

لكن قل لي من الذي انبأك بزواج ليلي

— ام ارثور التي زارتني هذا الصباح واشتهت ان تصالحنا

— كلا كلا لا مصالحة الى الابد . آه لو كنت تعرف الخبر الصحيح الذي ساقولهُ لك . . .

— قولي لي سريعاً ماذا جرى

— لقد كنت ابناً رضياً بتصديقك كل ما كنت اقولهُ لك بشان ليلي ولقد اطعتني طاعة عمياء لما رغبت اليك في اطراح ذكر ليلي وموَّهت عليك بان العشرة الباريسية غيرت اخلاقها والحقيقة ان ليلي جوهرة فريدة لا تزال اليوم كما كانت بالامس لان الذي كنا نصنعهُ في اميركا لم نستطعهُ هنا لاننا كنا هناك اسرة جديدة لا تاريخ لها وحظينا فيها باكرام العموم اما في باريس فنحن بين اقاربنا واصحابنا والضرورة تقتضي منا ان لا نعاشر من كان منهم علة تحقيرنا وثلم شرفنا .

— ما معنى هذا المعمى ياترى — ولقد ظننت ان الحائل بينك وبين ليلي انما هو المال والصحيح ان لها اسماً شريفاً في حين ان اسمك ملطخ . . .

— اوَّاه ياوالدتي ما هذا الكلام الجارح الفؤاد هل اسم والدي كان مدنساً واحسرتاه الان عرفت لماذا تسمحي لي ان اتخذ لقب البارون الذي يحق لي بالوراثة وقد خفتِ ان يعرف الناس اني انا ابنهُ . . . اويا امي ما اشد ما كان عذابك بكتم هذا السر الاليم عني حتى لا تنكدي عيشي منذ صبوتي وقد انتظرتِ ان اتقدم في العمر واجمع من المال ما يكفي لاستعادة الشرف المفقود . . . فافرخي روعك فها انا مستعد

لبذل النفس والنفيس وراء هذا الارب فكم يلزم يا ترى

— خمسون الف ليرة

— الله كريم فاتضرع اليه ان ياخذ بيدي لوفاء الدين كله

فانتعشت امه من هذه النية يا انبيلة وفرحت بانه شب على حب الشرف والشهامة نظير والده وطيبت اطره

ثم سألها مغضباً : وكيف كان سنترمون سبب هذا المصاب

— اتذكر يوم كنت صبياً اذ تركناك وحدك عند الخدم اياماً طويلة

— نعم اذكر ذلك يوم سافرت مع والدي الى نيس للتفتيش عن ابنة عمتي المخطوفتين وقد اخبرتماني عند عودتكما ان البنتين مفقودتان وان عمتي ماتت حينئذ اسفاً

— الى الان موّهت عليك الحقيقة ولكن قد حان ان تعلمها وتعرف ان سفرنا لم يكن لتلك الغاية

ثم اخذته بيده الى غرفتها وفتحت خزانتها واخرجت منها اضبارة جرائد عتيقة وقالت له اقرأ هذه الصحف فتطلع على الخبر اليقين

فتلقف هو الجرائد وطفق يقرأ مبتدئاً بحادثة ليلة المساخر حتى وصل الى تفصيل بعض الاسباب السابقة لها حيث ورد ذكر النفور بين سنترمون وابن حميه البارون لوران فسأل : هل يريدون بالبارون ابي — نعم فاقرأ الى النهاية

فلما انتهى الى توجيه التهمة بالقتل وخطف على البارون صرخ بقلب قريح : هذا غير صحيح هذا مستحيل . ثم قرأ كيف استنطقه ارباب الحكومة وكيف اوقفوه في السجن للمحاكمة فلم يتمالك من شدة الحزن فارتمى بين ذراعي امه وطفق يبكي وهو يقول : ما اشد ما كان عذابك يا ابي الحنون وابثا متعانقين على هذه الحال نحو خمس دقائق

ثم واصل القراءة بدموعه بال الجرائد حتى وصل الى استشهاد المحكمة لسنترمون الذي كان اول من اثار الظنون عليه فقال : بالصواب صنعت بالابتعاد عن هذا الرجل الذي لولاه . . .

— لولاه لما كان ابوك قد سجن ولما كان الخراب قد نزل على رؤوسنا ولعل

اباك بقي الى اليوم حياً ولكان اسمك شريفاً بلا دنس

— هو شريف وليس به عيب لان ابي لم يكن مسؤولاً بشيء من هـذا الخراب المشؤوم وما الجرم الا الذي سبب اتهامه وتوقيفه . . اه كيف تجاسرت امرأته ان تواجهني هذا الصباح

ثم اتم قراءة ختام المحاكمة ولما رأى رواية الجرائد : ان المحكمة (ابت ان تحكم عليه لعدم وجود ادلة كافيـة تستوجب الحكم) ارتعدت فرائصهُ وصرف اسنانهُ وصرخ : ما هذا الافتراء الشنيع ويل الظالمين

— ما انت عازم ان تصنع ياولدي

— ستعلمين يا امي ما انا صانع ساعمل واجباتي ولا افعل الا ما هو مفروض عليَّ

﴿ فصل سادس واربعون ﴾

ليلة راقصة

ما ترك آل سنترمون وسيلة الا توسلوا بها اظهارًا لمكارم اخلاقهم وبيـانًا لرفعة شأنهم وابهة مقامهم في الالفة البـاريسية ولما ترسموا في الآنسة ليلي رغبة في حضور ليلة راقصة في قصرهم لم يدعهم الا احياء ليلة لهو وطرب لم يسبق لها مثال دعوا اليها نخبة الاوانس المخدرات وابنـاء الشرفاء والامراء

ولما كتب سنترمون اسماء المدعوين عرضها على ليونيدة لعلهُ اهمل احد الاصحاب فقالت لهُ نسيت واحدًا فقط وهو نسيبك هوبر

— كيف ندعوه وقد اعلن لك جهارًا ان جميع الصلات تبقى بيننا مقطوعة

— هذا كلام عادي يقولهُ لاول وهلة كل من عرضت عليه المصالحة ثم يلين وسواء شئت ام ابيت لا غنى لي عن مصالحته بل اني محتاجة اليهِ ومضطرة الى ان يكون لنا صديقًا

— على ما تشائين ولكن لا يمكننـا ان ندعوه دون امه فما العمل

— ما لنا ولامه الان ارسل لهُ رقعة الدعوة باسمه وحده الى المكتب وهو يصنع

كان آلــة في يد امرأته لعبت به كيف شاءت) ولذا سلم عليـه بترحيب عظيم اذهل سنترمون وليونيدة معاً

وفي اول عبارة نطق بهـا سنترمون وكاد يخاطب هوبر مخاطبـة نسيب اخذه هذا على حدة وسأله بتلطف الأ يذكر شيئاً من هاته النسابة امام احد بتة لان الاحوال تقضي بطيها كي لا تثير الحوادث المدفونة مهيجة للاشجان

فتأثر سنترمون عند ذكر الفقرة الاخيرة ومد يده الى عينيه كانهُ يمسح عنهما دمعاً وقال : اه ما اشق على قلبي ذكـر تلك الحوادث اذ تضافرت فيها الظروف تضافراً غريباً أدى الى مصاب لم يكن ليخطر لاحد في بال ولا يبرح ذكره يهيج في صدري ثائر الكآبة فتأكـد ياعزيزي اني رغماً عما تبديه والدتك من الشدة والنفـار حافظ لك في قلبي ارفع مكان واراني سعيـداً ان كنت استطيع ان اوتيك خدمة

ــ لك مني مزيد الشكر وارجوك الآن ان تعود الى مؤانسة سائر المدعوين

ــ اعذرني ياولدي لاني موقوف هاته الليلة لخدمة الاصحـاب ولكن اسألك ان تؤكد لوالدتك خالص مودتي وصادق حبي

ثم انقلب سنترمون عائداً الى المدعوين وصافح ليونيدة وهمس في اذنهـا قال : بالحقيقة انهُ شاب اديب كامل ولقد احسنت مقابلتهُ فلا ريب انهُ يكون مسروراً

فلم تبس ليونيدة ببنت شفة لانهـا لمحت قدوم منترفيو صاعداً على السلم

﴿ فصل سابع واربعون ﴾

طفيلي غير منتظر

!! ابصر سنترمون صديقـهُ منترفيو مقبلاً هرع لاستقبـاله مبتهجاً اما ليونيدة فوقفت مضطربة وقد جمد الدم في عروقها وكانت تود لو يتقوض السلم فيتـدهور عدوها الالد مدفوناً تحت انقـاضه او لو تنشق الارض فتبتلعهُ اما وجه اضطرابهـا فمن حيث ان منترفيو كان متغيباً في ذلك الشتاء في سواحل البحر المتوسط في مدينـة نيس تخلصاً من قارس البرد في باريس فما بالهُ قد ترك ذلك البلد المعتدل الهواء وجاء

في تلك الليلة الباردة رغماً عن الثلج والجليد أليس لينغص عيشها ويجرعها غصص العذاب

على ان منترفيو تقدم اليهــا جذلاً وصافحها باليد وقال لها : عفواً ياسيدتي عن تطفلي الى هذه السهرة البهيــة دون دعوة خصوصية وانما جئت لاشارككم بافراحكم

فقال لهُ سنترمون متلطفاً : ما معنى هذا الاعتذار الست هنــا في بيتك كواحد منا ولم يكن يخطر لنا على بال انك رجعت من نيس بعد ان اخبرتنــا انك تقيم فيها كل الشتاء الى الربيع · وقالت لهُ ليونيدة : فلو عرفنــا ياعزيزنا منترفيو انك اليوم في باريس لما كنا قصرنا عن دعوتك

فاجاب منترفيو : وصلت من نيس هذا المساء لاني سئمت العيشة وقد اصابني زكام شديد ولما علمت انكم تحيون ليــلة راقصة انتهزت الفرصة لتهنئتكم

فقالت ليونيدة اهلاً وسهــلاً ومرحباً فالان قد تم سرورنا بحضورك · ثم تركتــهُ وهي تقول في نفسهــا : هل هو صادق يا ترى انهُ وصل تلك الليلة بطريق العرض ام اشتمّ رائحة الاقتران بين ليــلي وارثور فوافي لينصب اشراك مكره

فلما دخل منترفيو الى باحــة الدار المجتمع فيها موكب المدعوين ابتهج بما رأى من بديع النظام وبهاء الترتيب فاخذ يثني على سنترمون ومرآته ثم حانت منهُ التفاتة الى اقصى الصاعة فقال هوذا الآنســة ليلي دربوكوف ما الطفها ما ابهاها ما اجملها ما اظرف محياها فكيف لم تتزوج بعد فاضطربت ليونيدة من هذه العبارة التي لم يكد يتمها حتى قبض على يده دربوكوف وقــال لهُ ضاحكاً : ما شاء الله اهكذا تذم فتــاتي فاجابهُ لو عرفت انك تجازي لكنت بالغت في المذمة هيا بنا نسلم عليها واهدي لهــا سلاماً من الامــيرة زامركو اطيب من الخزامى وفيما هم سائرون يخترقون صفوف المخدرات اقبل هوبر مسلماً على منترفيو فتصافحا ثم قال لهُ منترفيو مندهلاً : ماذا ارى · · هل تركت خلوتك وقصــدت معاشرة العالم

ــ قد تفضلت الكنتة بدعوتي الى هذه الليلة فلم ارَ بدّاً من الاجابة

ــ ارجو ان تكون قد عدلت عن عيشتك الانفرادية السابقة

ــ اجل وقد رتبت الان اشغالي وصرت قادراً ان اتمتع بشيء من لذة الحياة

— ابشرك من الان اني ســافتح لك بيوت كثير من اكابر القوم فتجد فيها اعظم تسلية وهم يسرون من معاشرتك

— اني اكون لك من الشاكرين

ثم افترقا وبينما كانا يتصافحـان قال دربوكوف مامحـاً الى هوبر : ان السيدة ليونيدة اسعد منا حظاً لقبوله دعوتها

فتظاهر هوبر انهُ لم يسمعــه وتقدم الى وسط الدار ليسرح الطرف في صفوف المتخاصرين فشـاهد ليلي ترقص مع شاب من ابناء الامرا فمرت من امامهِ مرتين ولم تنتبه اليهِ وفي الثالثة تعـارض النظران في لحظــة واحدة فوقفت ليلي مبهوتة واصفر وجهها واطرقت هنية ثم استأنفت الرقص فانشرح صدر هوبر لما رأى من اضطرابهـا واستشف من ذلك انها لا تزال تحبــهُ اماهو فنظر اليها نظرة الغريب واخذ يتحادث مع منترفيو بشأن رحلته الى نيس ثم عادت ليلي رابعة وتطلعت فيهِ كانها تستعطفه فسلم عليها تسليماً عادياً ورجع الى حديثــه مع منترفيو كانهُ مهتم به جداً

فلما انتهت ليلي من الرقص وجلست لتستريح تقاطر اليها عدة شبـان يلتمسون منها ان تأذن لهم بمخاصرتها فكانت تعتذرلهم بان وقتها كلهُ مأخوذ لتعهدها بالرقص مع آخرين وحينئذ تقدم اليها هوبر وسألها متبسماً وهل انا ايضـاً لا يسعدني الحظ بان ارقص معك اقلهُ « رقصة الحجلان »

فاحمر وجهها واخذت تتأمل في دفتر الرقص لعلها تجد رقصة غير مربوطة وكانت في هذه الاثناء تناجي نفسهـا وتقول :أهذا الذي احبــهُ قلبي من حين عرفت الحب ما هو أهذا الذي لاجله سعيت ان يأتي الى باريس أهكذا يـعاملني بالفتور والجفاء وقد نظر اليَّ نظرة الغريب والان لما علم ان جميع الرقصــات مربوطة جاء يطلب مخـاصرتي ليزيد في تعذيبي او ليهزأ بي . . . ثم رفعت رأسها وقالت لهُ اتأسف اني لا استطيع ان ارقص معك الا الرقصة الثانية عشرة التي لا يأتي دورها الا عنــد الساعة الرابعة بعد نصف الليل

— بكل اسف اخبركِ ياسيدتي اني لا استطيع السهر الى تلك الساعة

فاعرب لها هوبر عن شدة اسفه لحرمانه من مخاصرتها وابتعد عنها فتقدم منترفيو للتسليم عليها فهتفت منذهلة: ألست انت في نيس فكيف نراك الليلة في باريس

— لم ار فرصة انسب من هاته الليلة لاكحل عيني برأى جمالك الفتان واهنئك بالفوز على جميع الحسان

— صه يامتملق بل اخبرني عن صديقتي الاميرة زامركو

— هي بخير وتهدي لك ازكى التحية لكنها ضجرة مستوحشة لفراقك وكانت تود لو ضمتك بي هذه الايام المعتدلة الهواء في سواحل البحر

— اما انا فافضل الاقامة في باريس لاني اجد فيها من المتنزهات والملاهي ما يفرج الغموم ويسلي عن الهموم ومن هذه الايام ابتدأت المراقص الجميلة وقد دعيت في شهر شباط وحده الى خمس وثلثين ليلة راقصة فاستعفيت من اكثرها وعندي لشهر اذار عدة دعوات بمعدل ثلاث لكل يوم ثم في الربيع تحين المتنزهات في البساتين وتجري العاب الصيد وسجال الفرسان فهل اترك هذه التسليات لاذهب الى نيس

فعاد منترفيو الى الثناء على لطفها وجمالها واذا بارثور قد اقبل فاخذها بيدها فجعل يعلمها رقصة الخلان فاخذت تلاطفهُ وتبدي لهُ سرورها وانبساطها بقربه وما ذلك الا نكاية بهوبر الذي كانت تظن انهُ كافر بالجميل وناكث بعهد الوداد وخيل لها انهُ لم يأت الى المرقص الا نغيصا له ا اظهاره لها عدم اكتراثه الب... ا... عور فابتعد و... ه ... بعض حزنا و كآبة ... ا الجم ... ا ... الخاطر المرا... وطفق ... بن باريس واعيادها وملاذها التي حولت عنهُ قلب حبيبته

فتبعهُ منترفيو ولم يفارقهُ لحظة واحدة فوقفا عن بعد ينظران الى رقصة الخلان وكان بصرهما شاخصاً الى ليلي وحدها وهذه كانت تسارقهما النظر في اثناء الرقص واثار الاضطراب على وجهها بادية حتى اتت عدة اغلاط في الرقص دون ان ينتبه اليها احد من المبهوتين بجمالها الرائع ... ... الى لحظات تخوس بصرهما اليها ومخالستها لهذا النظر فامتعضت وتنافت

و... ... ة الخلان الى ... ا ... ة ... ف... الليل وحينئذ انقطع

المتحاصرون الى الراحة وقام الموسيقيون لتناول بعض المرطبات فجاءت ليلي الى حضن ليونيدة واتكأت على صدرها اتكاءها على صدر امها فاشمأز هوبر ولم يتالك اكتئاباً فقال لمنترفيو : هيا بنا للرحيل

ــ الا تبقى الى اخر السهرة

ــ احب اليّ ان اذهب الان الا ان ليونيدة ناظرة الينا

ــ لا باس فاننا نعتذر اليها انا بسبب وعكة السفر وانت لاجل مهام المصرف

ثم تقدما الى ليونيدة فقالت لهما مستهزئة فهمت ياعزيزي منترفيو انك تعبٌ من وعكة السفر ومفتقرٌ الى النوم فاذهب بسلام ولكن اياك ان تحرمنا من انس هوبر

فقال هوبر متجملاً : عفواً ياسيدتي فاني احب من صميم القلب حضور رقصة الغزلان البديعة ولكن لسوء الحظ . .

قاطعتهُ ليلي قائلة : ولكن غلبهُ النعاس وعليهِ شغل كثير غداً . . ومع ذلك هل نسيت ياسيدي انك كنت في نيويرك ترقص الى الفجر

ــ ولكن ياسيدتي هل ذهلتِ ان بين نيويرك وباريس بحر الظلمات

ــ لا بل فهمنا ذلك

فاندهشت ليونيدة مما بين الشابين من علاقة الوداد التي لا تخفى على البصير ولبثت شاخصة البصر فيهما برهة وحينئذ ادركت الخطأ الفظيع الذي ركبتهُ فقد خطلت ان ليلي وهوبر كانا متحابين في نيويرك ثم فترت محبتهما في باريس فكانت هي علة تسعيرها بجمع شمل الحبيبين بعد البعاد والتجافي

وفيما كانت ليونيدة تفكر في هذا انحلت عزائمها وارتمت على مقعد هناك فهرعت اليها ليلي واخذت يدها وقالت : روحي فداكِ ياسيدتي العزيزة ماذا اصابكِ

ــ لا شيء يابنية ولكن التعب أثَّر فيَّ فخارت قواي واضحيت مفتقرة الى الراحة

ــ انا كنت انا سبب عنائك لانك لاجلي احييتِ هاته الليلة

ــ تأكدي يافتاتي العزيزة اني اسلو كل عناء عندما اراكِ في بهجة وهناء

ــ آه ‎. .‎ اوفر سروري . صدقيني اني لم اشعر بفرح طول عمري مثل فرحي

هذه الليلة   وحينئذ اقبل منترفيو وهوبر ليودعاها فمدت لهما يدهـا وهي تنظر اليهما نظرة الظافرة كأنها تقول ارأيتما كيف سلبت قلب الفتاة فتعلقت بحبي فلا تستطيعا الى ترعهامي سبيلًا فعبثاً تتعبان . . .

فلما انطلقا توسمت ليونيدة ن قلب ليلي ذهب معهما فتذمرت في نفسها وكظمت غيظها واذا بزوجها ضاحكاً فاخذ بيد الفتاة الى مائدة الحلويات وكان يؤانسها بنكاته اللطيفة حتى دمعت عيناها من وفرة الضحك وسلت الكآبة التي حصلت لها من فتور هوبر

فاستدعت ليونيدة ابنها وسألته كيف انت والفتاة

ــ على غاية ما يرام من الوفق والوئام

ــ ألم تطارحها بعـد حديث الحب والغرام

ــ لا لان كمال ادابها لم يدع لي سبيلًا للكلام

ــ عليك بها في هذه الليلة فانفرد بها بعد رقصة الغزلان واكشف لها سر قلبك الولهان

ــ اخشى يا امي ان تقابلني بالخذلان وتسومني التحقير والهوان

ــ لا تخف ياولدي فقد سبرتها الان واتكأت على صدري فاشربتها من الحب والحنان ما لا تقوى بعده على المقاومة في هذا الميدان

ــ والحق اقول لك يا امي اني كنت غير مكترث اليها من قبل ولم احبها الا اكراماً لك اما الان فقـد اضرمت مني الفؤاد لان الفراشة التي تحوم حول السراج تنتهي اخيرًا بالاحتراق

ــ هذا غاية متمناي ولا بد ان ترى في صدرها صدى هذه الاشواق،

ــ ولكن رأيت ان لنا بعض حساد واقفين لنا بالمرصاد ألم تلاحظي شاباً اسمهُ هوبر ديمارت كان يسارقها وتسارقهُ النظر وكلما مرت من امامه كانت يدها ترتجف ووجهها يتورد فمن يكون ياترى ذلك الشاب المزاحم

ــ تلك ياولدي عادة الشبان يحومون حول الحسان مشغوفين بجمالهن الفتان فاصنع ما انت صانع بامان واطمئنان   ــ على ما تشائين

وانطلق يفتش عن ليلي ليرقص معها رقصة الغزلان فوجدها مخاصرة اباه الذي

كان يتلو عليهـا من النكات ولطائف الحكايات ما يضحك الثاكلات حتى انها لوفرة الضحك ترقرقت عيناها من العبرات فقال لابيه سلبت مني راقصتي وانا افتش عنها الملك حسدتني عليها — صه ياخبيث هي لك فاستلمها

فلما اخذها بذراعها قالت له والقلب منها طافح حبوراً . ما الطف اباك وما اوفر ما تبدي لي امك من الحب والحنان — ان كنت انت مسرورة فاني مكتسب ما بدا لك اذ لا الث ان اراهما بجانبك اكثر مني

— امن جد تتكلم الى هذا الحد ... الآن ذلك ... ب لي عمـاً وكدوا

﴿ فصل ثامن واربعون ﴾

مكاشفة ارثور ليلي بهيامه

تأثرت ليلي من كلام ارثور ولما ابتدأت رقصة الغزلان كانت حاضرة الجسم غائبة العقل ورغماً عن تعاقب الرجال في مخاصرتها تلتفت الى احـد منهم ولم تبش ن وجه احد لانهـا ملت تلك الملاهي الدنيوية وكرهت كل الرجال لدى تفكرهـا بكنود هوبر وبغيرة ارثور وقالت انهم لا يصلحون الا لتكديري

وكان جميع الراقصين مسرورين غاية السرور بتلك الرقصـة الجميلة التي انتهت باخذ كل شاب الفتـاة التي خاصرها الى مائدة الطعام والشراب لاستعادة لقواهم التي بذلوها في اتعـاب الرقص اما ارثور فاخذ ليلي بذراعهـا الى غرفة منفردة لا يؤذن للغرباء بالدخول فيها وامر الخادم فاتى بطبق عليه كثير من الحلويات والاثمار فاستهجنت هذا الانفراد لاول وهلة لكن الشاب الهاها بالحديث وتلطف معها بتقديم ما طاب من الاثمـار مشفوعاً ببعض النكات المستظرفة فانفتح قلبها للفرح وشرعت تبـادله لطيف الحديث الى ان ادى بها الكلام الى معاتبته في ما ابدى من الاستياء لمحبة والديه لها

فانتهز الفرصة وقال لها اسمحي لي ان اكاملك بحرية

— قل ما بدا لك

— لما رأيت والدتي قد شغفت بك شغفهـا بابنة حقيقية ووجدت هذا الحب

يزداد فيها وفي والدي معاً ايقنت ان الحياة لا تكون عليّ الا وبالا

— كيف ذلك اتحسدني بعد على حب والديك لي

— كلا ولكن بين لي ان امي متحها قلبها . قد ركبت خطأ كبيرًا لا يذهب في سبيله ضحية الا انا — انت . . ما المعنى

— اوآه من حين اسعدني الحظ بمعرفتك كان جمالك البارع وحسنك الرائع وكرم خلالك كلها حادة ا شغفت فؤادي الولهان . وهل يحتمل ان يدنو احد من مثل هذه الاوصاف الفريدة دون ان يضطرم حباً

فنجاءت الفتاة وتوردت منها الوجنتان الا ان كلام ارثور ادخل على قلبها تعزية وسلوانا وتزل عندها منزل الرضى ولو لم تكن تحبه فتأملت فيه لحظة فاذا هو غض الشباب جميل الصورة لطيف المحاضرة كريم الاصل فقالت في نفسها لم لا احبهُ نظير هو بر الكنود وهو مقدم لي نفسه مسلم لي قلبهُ ولا اظنهُ الا صادق الود مخلصاً

على ان ارثور استأنف الحديث قال : لا ادّعي ياسيدتي اني وقعت مغرماً بكِ كما يقع ابطال الاقاصيص الغرامية بل ايقنت انكِ ان داومتِ التردد الى بيتنا سقطت في حبائل هواكِ لا محالة

فتبسمت وسألتهُ بلطف : افهذا التصور قد راعك وسبب اكدارك واوجاعك

— نعم لاني رأيتني سعيدًا بان احب فتاة كريمة احبتها والدتي ولكن لحظت انك لا تحبيني . .

فصمتت وقالت في نفسها انهُ بي فكيف علم ما في صدري فقال لها : ارأيت ياسيدتي اني مصيب غير مخطئ

فاشارت بما يستدل منهُ انها تعارضهُ وتخالف ظنهُ فقال : اعرف حق المعرفة انكِ لا تكرهيني لاني اختبرتكِ وعرفت صافي سريرتك واني لست في عينيكِ الا كرفيق صدوق تستحب معاشرتهُ والرقص معهُ بل ان شئت فاني لك نظير صديق

— صديق ولا شك — اما زاوية قلبك التي اشتهيت ان اتوغل فيها فهي مغلقة دوني في حين احبك انا محبة شديدة

ثم اخذ يدها وقبلها وتنهد الصعداء وقال : هذا الذي حزرته وكنت اخشاه وهو الذي سيجعلني الى الابد شقياً . . . وقام الى جانب منضدة هناك في زاوية الغرفة وستر وجههُ بيديه وهو يردد الحسرات ويصعد الزفرات

اما هي فحنت اليه وقالت في نفسها بالحقيقة انهُ يحبني ولعلي لا اصادف رجلاً يحبني مثله وهل ارى حماة مثل امه التي تكاد تكون لي اماً وهو ابن اسرة عريقة في الشرف . . . آه يا ربي أفي هذه الدقيقة يتقرر امر مستقبلي وسائر حياتي . . هل اضيع هذه الفرصة التي ربما لا يتفق لي مثلها وارفض قلب هذا الشاب لاجل رجل كنود علق به فوادي فجفاني وتقربت منهُ فهجرني وجاءني الليلة بزي مستهزيء متكبر . . .

فرفع ارثور عينيه وقد سكن به ما جاش وقال لها بهدوءٍ : عفواً ياسيدتي فاطي ازعجتك

ــ بل اشكرك على هذه الحرية فهلم اجلس فافيدك انك صدقت في ما لحظت فيَّ من اني اعتبرك كصديق صدوق مخلص وقد اذهلني حبك لي لكنهُ لم يدونني البتة . وقد جهلت اني كنت علة لعنائك . . فان كان ابوك وامك يرغبان حقيقة في ان اكون لهما ابنة

فتهلل ارثور طرباً وقاطعها قائلاً : هذه غاية متمناهما

ــ وان كان والدي لا يعارضني فاني اكون لك عروساً

ــ لله درك ما اكرم اخلاقك

ثم انطرح على قدميها فانهضته سريعاً وقالت له هلم بنا نعود الى حيث اهلنا

فلما نظرت ليوبلدة الى هيئة ابنها ظافراً ايقنت انهُ الح سعياً فاستدعت ليلي اليها لتشاركها في توديع المدعوين الذين اخذوا ينصرفون كأنها صارت كواحدة من ارباب البيت اما ليلي فكانت غشاوة قد جللت ابصارها فاضحت لا تعي على شيء لها عينان ولا تبصر لها اذنان ولا تسمع لان عوامل الهواجس كانت تتنازع افكارها وهي ترتعش عندما تتأمل في ما جرى لها وتقول لقد سلمت نفسي وفقدت حريتي . . يالله كيف رضيت بذلك سريعاً . . لناني طالما عاهدت الامل بان لا اتخذ لي بعلاً

الا من شغفت به حباً وكانت الفتاة وهي غائصة في هذه الافكار تصافح الناس بالايدي وتحييهم بالسلام كالآلة الساكنة الصماء فلما انصرف جميع الناس قالت ليونيدة : الحمد لله هانحن الان وحدنا فهلم نتعشى

وكان دربوكوف قد اعيا جوعاً ولا شيء اشهى اليه من الاكل الا ليلى فاومأت اليه بالانصراف وقالت . اشكرك ياسيدتي وارجوك ان تأذني لي بالذهاب لاني شاعرة بتعب جسيم وقد اكلت مع سيدي ارثور شيئاً فاكتفيت

فلم يسع دربوكوف الا الرضوخ لرغبة ابنته فدفع اليهما رداء مخملياً فتزملت به وودعت سنترمون وحرمة ورافقها ارثور الى العجلة حيث تلقف يدها ولثمها برشاقة

فلما جرت العجلة قال الاميركي لفتاته «لعلك سررت بهذه السهرة» وقد تعود بعد الليالي الراقصة ان يراها جذلة مبتهجة ترددله ذكر ما رأت وسمعت وتعدد اوصاف الراقصين وتضمه الى صدرها اما هذه الليلة فاكتفت باجابته بكلمتين «كنت مسرورة للغاية» ثم انحازت الى زاوية العجلة ولبثت صامتة فظن ان السهر والرقص اتعباها فلم يسألها شيئاً ولكن شد ما كان اندهاله لما رآها عند وصولها الى القصر لم تذهب الى غرفة نومها بل دخلت الى قاعة المائدة فقال لها اذهبي ياحبيبتي واستريحي

— عندي وقت طويل للنوم بعد . . . واحب ان ابقى معك لتتعشى لاني اعرف ان لك في مثل هاته الساعة شهوة شديدة الى الطعام

— يمكنني ان اكل وحدي فلا مني نفسك الى السهر معي

— بل ابقى معك وانا اخدمك هذه الليلة لاني صرفت الخادمة الى غرفتها ولا ابغي ان يكون لدينا احد

ثم جاءته ببعض المأكولات الباردة من لحم مقدد ومشوي وجبن ولبن وعسل فاخذ يلتهم الطعام التهاماً وحينئذ كرر سؤاله هل كنت مسرورة هذه الليلة

— أجل يا أبت ولكن كانت النهاية غير منتظرة .

— ماذا تقولين (وحبس اللقمة في فيه) — لم يحدث شيء يكدر فأتمّ الاكل على مهل فهاءنذا اقص عليك الخبر . . قل لي بحياتك الا تسر بان ترى ابنتك كنتة

شريفة — كلامك يذهلني

— قل لي الا يسرك هذا — هل اظهر لكِ الامر جهاراً

— يبين ان عندك بعض المام في الشيء — كلا بل هو مجرد حزن مني ليس الا

— وما قولك — لك الخيار يابنية فاعلي ما بدا لك

— اذن هل تصدق على ذلك راضياً — ن رضيتِ رضيتُ فها انتِ الان

فتاة كبيرة وانت اميركية والمعنى ان لك ان تختاري ما تحبين بملء الحرية ولا غاية لي سوى سعادتكِ ولكن هل اعجبك ارثور حقيقة

— اذكر انك كنت واجداً عليه من قبل فهل غيرت رايك

— لم اغير رأيي بشيء فان الناس في اميركا انما يعيشون بالشغل ولاجل الشغل ولا شرف لهم الا بالمال وخصوصاً بالمال الذي يربحه الرجل بعرق جبينه ولذا لو خيروني لكنت فضلت على ارثور فتىً نشيطاً كدَّ وراء الرزق مثلي . . . (واشار هنا الى هوبر مضمراً) ولكن لا انكر ان في الالفة بعض الاسرات النبيلة الاصل التي يسرُّ الانسان بالدخول فيها . . . فقالت ليلي بلهجة استهزاء تشير بذلك الى تاج الكنتية ذي التسع الكرات . . آه ما اظرفه على ظاهر العجلات شعاراً

— على اني لا اظن انك لاجل هذا رضيت بزواج ارثور

— نعم ليس لاجل هذا فقط يا ابت — ولكن . . هل تحبينه يا ترى

— لا ولكن لا اكرهه — وهل تودين في الاقتران به

— اعلنت له اني افوض الامر اليك والى والديه

— ما شاء الله . لو قلتِ انك تحبينه لكنت اجبتكِ الى مرامك بالايجاب فوراً ولكنت اهديت لك مائة الف ليرة مهراً واما الزواج برجل لاجل تاج الكنتية ولانك لا تكرهينه فذلك امرٌ لم اكن لا انتظره منك يا ليلي

— لا تندهل يا ابت فاعلم اني لست بعد فتاة صغيرة وقد ناهزت الخامسة والعشرين ومضت ايام الشباب التي يتسلط فيها الهوى على العقل وما سيت لا ارضى من دون العقل دليلاً وبعد التروي وجدت ان افضل الزيجات انما هي زيجات الاتفاق والملاءمة وليس

الحب الا تابعاً لها فانا احب باريس واتوق الى الاقامة فيها كل عمري والكنت سنترمون صديق لك حميم والكنتة امرأتهُ مشغوفة بي وارثور متيم ملتهب بنار هواي

— اما انتِ فلا تكرهينهُ لا تقــل هذا يا ابتِ فان الفتى لم يبح لي بغرامه الا من نحو ساعة لا غير ومن المستحيل اني اضطرم به على الفور حباً لكن ارى ان الحب يأتي مع الزمان بالمعــاشرة رويداً رويداً

— فاذاً لبس لي الا ان اجيب طلبهُ بالقبول

— اظن ان هــذا الراي هو الاقرب الى الحكمة

وكان دربوكوف من قبل ميالاً الى هذا الزواج لكن قلبهُ لم يطاوعهُ الى الاسراع في بت الامر لانهُ يعرف من الاختبار ان الزواج السعيد انمــا هو الناجم عن الحب الطاهر وما دونهُ لا تؤمن عقبــاه ولاسيما اذا كان احد الزوجين متعلقاً بهوى آخر لم تمكنهُ الاحوال من وصاله فسألها مستفهماً : ألعلكِ لن تندمي ولا تأسفي على شيء

— ولِمَ الندامة وعلى اي شيء آسف يا ترى

وقد فهم كل منهمــا بمضمون تلميح الاخر حتى اغناهما عن التصريح باسم هوبر الذي من شانه وحده ان يثير عاطفة الاسف في قلب الفتاة

ثم قــال دربوكوف : اذا ستكونين قرينة للفيكنت ارثور سنترمون

— بلى ان شئت يا ابتِ

فترك دربوكوف الطعــام وقام الى سريره فلم يأت الكرى عينيه لتوارد الافكار المختلفة الى مخيلته وعند الفجر نهض ودخل غرفة ابنته من غير استئذان خلافاً لعادته وجاء امام سريرها يتأمل ذلك الوجه الجميل الذي دنا وقت الافتراق عنهُ ثم قبلهُ والعبرات تذرف من عينيهِ سيولاً

فصل تاسع واربعون
في الاستعلام عن ثروة سنترمون

لما خرج منة فيو من قصر سنترمون دعا رفيقه هوبر الى العشاء معهُ فأبى بحجة

ان والدتهُ لا تنام ما لم يرجع فعرض عليه ان يأخذه بعجلتـه فاعتذر بانهُ يؤثر المشي قال لهُ منترفيو : ارى الحق معـك فان المشي بعد الانحصـار الطويل في المرقص ضروري لاستنشـاق الهواء النقي ثم اخذه بذراعه وتمشيا هنيهة يتبادلان الحديث وكان غرض منترفيو من هذه الصحبة ان يكتشف بعض اسراره ويسبر غور افكاره لكنهُ رأى فيه رجلاً حازماً رصيناً وما زال ينقلهُ من حديث الى اخر حتى بلغ الى الكلام عن آل سنترمون فامتدح هوبر من لطفهم ولم يبدِ نحوهم اكتراثاً فعرض منترفيو بذكر ارثور بالسوء فامتعض هوبر وتظاهر بالاندهاش من غاية هذا الحديث ولاسيما حين قوله انهُ كان معانقاً ليلي باثناء الخاصرة

فلما رأى منترفيو انهُ لا يستفيد منهُ شيئاً اجل البحث في ذلك الى فرصة اخرى وودع صديقهُ وذهب يقول : هو ثابت الجأش بعيد الغور ولكن لا بد ان اقف غداً على ما اروم منهُ . ولما انتهى الى غرفته رأى على المنضدة كتاباً من ايريني ديمونسكي تقول فيه « لا شيء جديد فان الوالد يزداد من يوم الى يوم نفوراً والفتاة راغبة في هجر باريس . متى اراك ياترى . « ايريني »

فغضب منترفيو وقال : تريد ان تهجر باريس ولكن مهلاً فان لنا بها حاجة ويمكننا تعويقها عن السفر ما شئنا حتى تدرك المرام وهو غير بعيد الحصول ولا يقف في وجهنا الان غير فرنسيس فانى الى هذا الشـاب وكيف اغرم بحب ماينا لكن نصبنا لهُ شركاً فلا بد لهُ من السقوط فيه فنتخلص منهُ . اما هوبر فكيف الخلاص منهُ وابعاده عن ليلي فهو قدير ولا نستطيع الى الوصول اليه سبيلاً فلا نغلبهُ الا بالحيلة . . . اه لو عرفت على الاقل ما يطوي من الافكار وفي ضحوة اليوم التـالي انطلق الى المصرف وصعد الى غرفة هوبر توّاً فانبأه البواب بانهُ غائب

— في اية ساعة يعود — هو غائب ولا احد يعلم متى يعود

— أهو خارج باريس — نعم ياسيدي

— ساوافيه غداً — لا اظنهُ راجعاً غداً

— الى اين سافر — سل نائبه فيفيدك

فلما استعلم من نائب المدير اخبره بان هوبر قــد خابر رئيس المصرف في نيويرك تلغرافياً بانهُ مسافر لقضاء بعض مهام اهلية تضطره الى التغيب اياماً فورد لهُ الجواب آذناً لهُ بان يصنع ما شاء فوافى هذا الصباح و بعد ترتيب الاشغال سافر

— الى اين ياترى — لا اعلم

— هذا مستحيل — بشرفي لا اعلم

— وان طرأت مشكلة ورغبتَ في استشارته فكيف العمل

— استعلم عن مقامه من امه التي تعرف وحدها اين يكون يوماً فيوماً

فتحير منترفيو مبهوتاً من هذا السفر الفجائي وكان يشتهي ان يعلم وجهتهُ لكنهُ لم يكن يعرف والدتهُ فلم يتجرأ على سوالها فجعل يضرب اخماساً باسداس وهو يفكر في هذا السفر ويقول ما عسى ان تكون غايتهُ . ولعلهُ يطول عدة ايام حتى اكون قضيت كل المرام ونفذ مني سيف الانتقام

وفيما هو غائص في لجة الافكار واذا بدربوكوف قد اقبل وهو يقول باعلى صوته : كيف سافر المسيو هوبر بغتة ولم يعلم احداً . امس في الليل كان معنا ولم يخبرنا عن هذا السفر شيئاً . . . اين هو فاكاتبهُ في الحال

فقال لهُ نائب المدير : هات المكتوب ونحن نرسلهُ على الفور الى مكانه

— لكن قل لي اين هو الان فتلعثم النائب ولم يحر جواباً فقال منترفيو اظنهُ سافر الى لندن ولا يلبث الا بضعة ايام ثم يقدم الى همبرج للبحث في شأن الفضة المتراكمة في صناديق اوربا وهــذه المسائل شاغلة الآن مصرف نيويرك

فنزل هذا التلفيق منزل التصديق لدى دربوكوف فقــال للنائب متاسفاً : لا اظنهُ يعود قبل خمسة عشر يوماً وانا في حاجة اليه الآن فما العمل

— اني طوع اشارتك فربما تشاء لعلي اقوم مقــام صديقك هوبر الذي اوصاني خصوصاً ان اهتم بشأنك واجري لك كل رعاية

فالتفت الى منترفيو كانهُ يحذر منهُ فقال لهُ هذا هل لديك سر لا تحب ان تبوح به لي فانطلق من هنا

لا بل حضورك مفيد بشرط ان تعدني بكتم السر وقد طالما ابديت لي الصداقة والاخلاص — غاية الصداقة ومنتهى الاخلاص وانا اترقب الفرصة التي تمكنني ان ابرهن لك عنهما

— هل تقسم لي بشرفك انك لا تبوح بما انا قادم الى هنا بشأنه

— اقسم لك فالتفت دربوكوف الى نائب المدير وقال اسألك خدمة يسيرة است انساها ولو كان هوبر هنا لما كان يتردد في قضائها

— اني طوع اشارتك فسل ما تشاء — احب الوقوف على مقام احد عملائكم من حيث ثروته — يظهر انك تحب ان تقرضه مالاً

— قل ما تريد فارجوك ان تعرفني احوال آل سنتروون المالية

— هم اغنياء موسرون

— هذا معلوم ولكن احب ان اعرف ثروتهم بالتدقيق

— يمكنك ان تقرضهم خمسة ملايين — هذ لا يفيدني شيئاً وانا ارغب في الوقوف على مقدار ثروتهم الحقيقية تماماً ولو كان هوبر في باريس لاطلعني على حسابهم لا محالة وانا في حاجة الى ذلك الان ولا يمكنني الانتظار

— اطمئن بالاً وانا اوقفك على ما تريد فان للكنتة عندنا نحو مليونين وستين الف فرنك ما عدا قصرها المشهور والكنت سنتروون يملك ثلثة ملايين فرنك

-- لا اشك بكلامك ياعزيزي ولكن احب ان ارى بعيني هذا الحساب في الاستاذ وقد قلت اني لا انسى تعب من يخدمني فرضي بان اراه الخطة وكفى. فاستدعى النائب احد الكتاب وسأله ان ياتي بالاستاذ ليطلع دربوكوف على صورة حسابه

فشكر له دربوكوف عند ذهاب الكاتب وسأله عن موضع الثلثة الملايين التي تخص سنترمون -- هي من مال عمة له وقد حبستها وقفاً على ولده وهو لا يتناول الان الا ريعها وكان قوله هذا صحيحاً الا انه خلط بين ولده ارثور وبين ابنتيه المخطوفتين لانه لم يكن يعرف القصة اما منترفيو المطلع على جلية الامر فلم يخطئه بل اشار بالايجاب كان القول هو عين الصواب

وفي هذه الاثناء جاء الكاتب بالاستاذثم انصرف فلما وقع بصره على الحساب تهلل مبتهجاً وقال في نفسه بالحقيقة انحب ارثور لليلي هو صادق ولم يرغب في خطبتها طمعاً بالمال . ثم سأل أليس من معارضة في سحب هذا المال

ــ ولا معارضة البتة ــ اليسوا بمديونين ياترى

ــ سل المسيو منسترفيو فهو بذلك ادرى مني

فاجاب هذا عند التفات دربوكوف اليهِ : لا يخلو الامر من بعض ديون ولاسيما الفتى ارثور ــ لكن لا اظنها وافرة

ــ لا يمكن معرفة ذلك بالتدقيق الا بالاستعلام عنهُ من اصحاب المخازن في المدينة حيث يشتري الملابس والتحف وغيرها

ــ ألا تعرف ذلك بالتقريب ــ هب انهُ مديون بعشرين اوبخمس وعشرين الف ليرة فيكون هذا الدين مقاربا لثمن القصر فتكون ثروتهما خمسة ملايين تامة فيمكنك بكل راحة ان تقرضهم ماتشاء من المال

ــ اشكرك يا عزيزي غاية الشكر واكرر الرجاء بحفظ السر

ــ كن مطمئناً فقد وعدتك ولاحنث على اني ارجوك ان لا تبوح لاحد ايضاً بما اخبرتك

فقام دربوكوف منشرح الصدر وودعهما مسدياً لهما جزيل الشكر

﴿ فصل خمسون ﴾

عقد الخطبة

كان من عادة ليلي انها في اليوم التالي لليالي الراقصة تقوم مفترة الثغر منشرحة الصدر اما في ذلك اليوم بعد ليلة سنترمون فنهضت من سريرها ممتقعة السحنة معبسة الوجه منقبضة القلب لكنها لما شاهدت اباها بشت فيه وعانقتهُ بحب وقالت له : اريد يا ابتِ ان لا تفارقني قبل سنة ــ على ما تريدين ولكن ان شاء بعلك

ــ ان شاء الله وهل يكون لزوجي ارادة غير ارادتي

ـ يظهر انكِ عولت عليه وثبتِّ في عزمك

ـ ولولا ذلك لما كنت كلمتك بهذا الشان ما لم يكن لديك مانع . على انك لا تظهر لآل سنترمون شيئاً قبل ان يخطبوني منك رسمياً

ـ لقد جاءني الكنت سنترمون خاطباً لكِ هذا الصباح

ـ لِمَ هاته السرعة ياترى ... ولكن بعد اعلان ارثور لم يبق للابطاء سبيل ... وماذا كان جوابك

ـ اجبت ان هـذا الامر منوط بك ووعدته بمخاطبتك لاجل تعيين موعد الزفاف

ـ بما ان الامر قد تقرر فالتعجيل بالزفاف اولى

ـ ولكن قبل اعطاء آخر جواب وجدت من الصواب ان انقب عن ثروة آل سنترمون لاطلع على كميتها بالتدقيق لارى هل ارثور راغب فيكِ عن حب طاهر او عن طمع بالمال اذ قد انتهت اليَّ بعض رسائل مغفلة التوقيع طعناً على آل سنترمون وتضعضع احوالهم المالية

ـ ما اكثر المبغضين فقد وصلني مثل هذه الرسائل فلم اعبأ بها لان النامين والحسودين كثيرون

ـ وانا كذلك لم اكترث اليها ولكن الواجبات تضطرني ان ابحث وادقق لعل في الزوايا خبايا فوجدت ان آل سنترمون يملكون خمسة ملايين فرنك

ـ وكيف عرفت ذلك

ـ بواسطة المصرف الاميركي

ـ هل عرف هوبر بزامك

ـ واين كان هوبر انه سافر هذا الصباح الى مكان مجهول لم يعلم به احدٌ حتى انه حادثني بالامس ملياً ولم يخبرني بشيء عن سفرته الفجائية

فتنهدت الفتاة وقد اضطرب ابوها وقال لها . يظهر انكِ ناقمة عليه مثلي

ـ آه يا ابتِ ان هوبر كنود كافر بجميلك وقد اساء الينا بهجرنا في باريس بعد ان اشربناه حبهُ في اميركا . افما كان اولى لهُ ان يعرف جميل المحسن اليه . او لا يعلم انك بسعيك لدى مدير المصرف الاكبر قد ارتقى الى هذا المنصب الرفيع لكن لا بدع فان الانسان مفطور على النسيان وانكار الاحسان

ـ يجب ان تنسيه كأنهُ لم يكن

— الضرورة تقضي عليَّ بان امحو ذكره من قلبي

قالت هذا وانطلقت الى غرفتها وطفقت تبكي ثم اخذت صورة هوبر وهو شاب ابن اثنين وعشرين سنة وبعد ان بلّلتها بالعبرات القتها في مستوقد النار وجثت امامها تنظر الى احتراقها ولبثت شاخصة البصر فيها حتى صارت رماداً فاصعدت الزفرات ثم قامت وقد كفكفت العبرات وقالت قد قضي الامر فالاسف على ما فات من اكبر الحسرات

ولم يرسل دربوكوف جوابه النهائي عن قبول الخطبة الا بعد يومين حسبهما آل سنترمون شهرين بل دهرين وقد تنازعتهم في اثنائهما عوامل القلق والشك والرجاء واليأس حتى جاء الكتاب المأثور فنفى عن القلوب الغم والكدور وهذا نصهُ الى ليونيدة :

« ايتها الكنتة النبيلة

« تفضلي ان شئتِ ان تقولي لابنك المسيو ارثور ان لهُ منذ الان على مائدتنا كرسياً خاصاً به دائماً وقد ترجتني ابنتي ان اضيف الى ذلك انها تكون سعيدة الحظ اذا تكرمتِ بان ترافقيه مع الكنت سنترمون . فارجوكِ ياسيدتي العزيزة ان تقبلي انت وسائر آلك خالص احترامنا ومودتنا غريكوري دربوكوف »

فطارت ليونيدة فرحاً عند تلاوة هذا الكتاب اما ارثور فما كان لسر من عبارته التاشفة لانهُ لم يرَ بين تضاعيف سطوره لذكر الحب اثراً فقالت لهُ امهُ : ما يكفيك انها رضيت بك بعلاً فماذا تروم منها — اروم ان تغرم بي حباً ولا اتوسم فيها الا راغبة في تاج الامارة كأنها ترتضي بي عروساً عن حب لي بل طمعاً بان تكون اميرة

— قل ما تشاء فهي الان خطيبك فتلطف بها ما استطعت فتستميلها الى حبك سريعاً لان البنات بالمعاشرة يملنَ مع الهوى ويحببن كل الشباب

وفي عصر ذلك اليوم اخذ دربوكوف ابنتهُ الى بيت خطيبها فاستقبلتها امهُ بترحاب جزيل وعانقتها امداً طويلاً ثم سلمت على الكنت سنترمون فقبل جبينها اليقق وصافحت ارثور باليد التي لثمها وهو يقول في نفسه انها تحبهما اكثر من حبها لي على انها لاطفتهُ

وشكرتهُ على اهدائه اليهـــا طاقة الازهار البديعة ضحوة النهار عينه دون ان تفوه بكلمة حب واحدة

وكان سنترمون يود ان يخـــلو ارثور بخطيبته ساعةً فجرّ الحديث الى الامور المالية المتعلقة بالصداق والجهاز وما اشبه فنهضت ليلي وقالت : « لا احب استماع هــذا الحديث » فقــال ارثور ولا انا كذلك لان ذكر المال يزعجني والظاهر اننا كلينا نحتقره فنعما الاتفاق

ثم انطلقا الى غرفة اخرى يتبـــادلان لطيف الحديث اما سنترمون فافهم دربوكوف في جملة الكلام انهُ يملك خمســة ملايين فرنك وانهُ يخصص منهـا لابنهِ بداءة ذي بدء ما يؤتي من الريع خمسة وعشرين الف فرنك فقـال دربوكوف لا حاجة الى شيء البتــة فان قصرنا مجهز بكل ما يلزم من الاثاث والرياش فاني اخصصـهُ لابنتي مع ثلثة ملايين فرنك لا يزل ريعها عن مائة الف فرنك سنوياً

فتهللت ليونيدة مع زوجها ولم يتمالكا من شدة السرور واقبـــلا على دربوكوف يشكرانه ويمـــدحان كرم اخلاقه ثم قامت لترى الخطيبين وكانت تود ان تشاهدهما على مقعدٍ واحد متقاربين يدها بيده ووجهها ازاء وجهه فاندهلت لما ابصرتهما متباعدين كل منهما على مقعد منفرد متأدبين مدار حديثهما على الحلى والحجـــارة الكريمة فلما وقع نظر ليلي عليها نهضت مقبلة اليها كانها تريد سبيلاً الى التخلص من هذا الانفراد

فلما دخلت ليـــلي الى حجرة الاجتماع التفتت ليونيدة الى ارثور فوجدته مقطبــاً عابس الوجه فهرعت اليـــهِ لتسليه قائلة : هنيئاً لك فان حماك خصص لفتـــاته الان ثلثة ملايين والقصر بما فيه مع العجـــلات والخيل وسيتلو ذلك ثمانية ملايين اخرى

وبعد رجوع دربوكوف وفتاته الى القصر قضى آل سنترمون ساعة ذاقا فيها سروراً احلى من العسل بما علاوه من طيب الامل من جراء هذا الزواج ثم قال الكنت لابنه ما احسن حظك ياولدي فها قد بنينا لك صرح مستقبل فريداً وسيـــأتي يوم تكون فيهِ رب عشرين مليوناً

فاجاب ارثور مبتسماً : ولولا ذلك لما كنت رضيت بالاقتران منذ الان

﴿فصل حادي وخمسون﴾

اتفاق غريب

بعـد ان تردد فرنسيس طويلًا في قبول خدمة دربوكوف رضي بهـا اخيرًا وكتب اليه تذكرة يرجوه فيهـا ان يتفضل بمواجهته في بيته لابرام العهد بينهما بتـاتًا ويعتذر منهُ عن جرأته على استدعائه الى بيته عوضًا عن الذهاب بنفسهِ اليه بان لديه سرًا لا يريد اطلاع احد عليه

فسر دربوكوف من هذا الاتفـاق الغريب لانه كان محتارًا في امره ومفتقرًا الى من يقوم مقـامه في حقوله باميركا لان عرس ليلي كان يضطره الى البقاء في باريس اشهرًا عديدة فهرع الى بيت فرنسيس ولما اطل الى حديقته انذهل لمشـاهدة زفيريو متمشيًا فيها وفي يده سيكارة يدخن بهـا فتعارض البصران واضطربا كلاهمـا ثم سكن جأشهما فقال دربوكوف لفرنسيس مشيرًا الى زفيريو العلك في حاجة الى شهود

— لا ياسيـدي ولكن زفيريو ليس غريبًا بل سينـاله نصيب من اتفاقنا فهلم الى قاعة الاستقبال نتفـاوض على انفراد وقد هيـأت ورقتي العهد فلا ينقصهما الا التوقيع ولكن قبل كل شي ارجوك شيئـًا واحدًا وهو كتم السر بشأن ما نحن صانعون سواء ابرمنا العهد ام نقضناه

— سنحفظ السر ولكن من المستحيـل كتمه وقد جاء في المثـل (كل سر جاوز الاثنين شاع) — لسنا انا وزفيريو الا شخصًا واحدًا

فتبسم دربوكوف وقال: «فهمت سر المسألة فاهنئك ياعزيزي فرنسيس فان الانسة ماينا بارعة الجمال فريدة الكمال» فتورد وجـه فرنسيس وقال: لاجل هذا السبب نفسه سالتـك كتم السر عن اي كان لئلا ينالني سوء قبل انجاز اشغالي

— اعدك بالسر فهات الان ما عندك من الشرائط لقبول خدمتي

— شيئًا واحدًا اسالك وهو ان يكون لي الحق بانتخاب معاون لي في ادارة مهامك وقد اخترته منذ الان وهو صديقي زفيريو كنتستينو لاننا لا نستطيع ان نفترق البتة

فتناول دربوكوف ورقة المقاولة وجعل يقرأها متظاهراً بتدقيق النظر فيها لكنه كان في الحقيقة يفكر في زفيريو ويناجي نفسه قائلاً: كيف اقبل في بيتي الرجل الوحيد الذي يمكنه ان يعرف اصلي وفصلي ولكن اظنه لم يعرفني ولا دال للوصول الى معرفتي . بل بالعكس ان رفضت قبوله دون عذر مقبول انشأت الريبة والظنون وان ساقه القدر الى معرفتي اذاع امري بين الملا وحال دون سعادة ليلي . فالاولى ان ارضى به فيكون مسروراً ويظل دائماً في قبضة يدي فضلاً عن انه بها الوسيلة ابعده عن فرنسا وعن ابنتي . فمن الجنون ان ارفضه . .

ثم حول نظره الى زفيريو الذي كان ينتظر الجواب مرتجفاً وقال له ، تهيأ للسفر واطرح مهنتك المهينة) ثم وقع الورقة مبتهجا وقدم الورقة الاخرى مع القلم الى فرنسيس فوقعها فلما وقعت عين دربوكوف على توقيعه اندهش وسأله . أهكذا توقيعك دائماً (فرنسيس) لا غير اسم بلا كنية ولا لقب

فتغير لون الشاب وتلعثم ثم اجاب باضطراب : ليس لي غير هذا الاسم

فلم يكتف دربوكوف بهذا الجواب بل جعل يقلب طرفه تارة نحو الشاب وطورا الى توقيعه وتواردت الى خاطره عدة اسئلة كان يحب القاءها عليه لولا حضور زفيريو وكان يود لو يسأله عن ابيه وامه لكنه اكتفى بسؤاله (كم عمرك)

— ثلثين سنة

— انت اذن في ابان الشباب وهذا احسن العمر للشغل والسعي والاكتساب

قال هذا لكي يخفي ما تنازعه من عوامل الاضطراب وكان عند نظره الى فرنسيس قد تذكر امراً مرتسماً في مخيلته منذ امد بعيد واثار في صدره اشجان ذكر اليم في غابر حياته لانه فطن لما حدث له لما كان موثياً حقيراً في نيويورك باسم (غرنك بوك) اذ دخل ليلة الى بيته سكران وحمل بيديه طعن ألا له وضرب به امه وقال في نفسه لو كان ابني في قيد الحياة لكان عمره الان اثنين مثل عمر فرنسيس ولكان مثاله ايضا اشقر الشعر ازرق العينين على شكل عيني امه

ولما راى دربوكوف انه لا يتمالك قلقاً واضطراباً اثر الانصراف فودع فرنسيس

وزفيريو وقال لها سنلتقي هاته الليلــة في الملعب ان شاء الله . ثم خرج وسارت به العجلــة تنهب الطريق وهو لا يعي شيئاً فلما ابتعد بضع دقائق عاد الى نفسه وقال وبالحقيقــة ا ب مجنون تصور مثل هذه الافكار . مــا الذي دفعني الى القلق بامكــان ّونه ولدي العل ذلك لشقرة مره وزرقة عيا ه ولكن كم من الوف من الشبان الشـ ر الزرق نا ـ الثلثين فلماذا لا افتكر الا به ومع ذلك لا انكر اني من حين نظر ه ا صعــ ا ه ووبعت بمواحبته مما معى هده العواطف البديهية .. واني صم ا ، يكون هدا وا ى فكيف اسمح به ان يع ض للاخطار كل ليلة وانا صاحب اه اطلر المنطوه .، الما ..

وكان الرجل يتراوح بين النفي والتصديق في كل مسافة الطريق حتى رجح اخيراً انه قد يمكن ا يكون ول ه د ه . ء ع ه مدة سنين متوالية فا يقف له على اثر ولم يستدل على مونه بشيء وعزم على الاستقصاء عنه لزيادة التحقيق

فلما كان المساء ذهب درنوكوف م ستزمون لى الملعب الجديد فشاهدا منزفيرو في مخدعه هادئا ــ ادته ولكن على سحنته صفرة الموت بعد ان دخلت مايسا واتوها الى اللعب ، ز د نوكوف الوصلة ليذهب لى فر ـ اس ويكلمة على انفراد فرآه في الاسـ ا ل ي ز ه ا لاحرا العا ا و صـ ا مجا يز د التودد ثم جذبه درنوكوف الى زاوية وقال له . ي كلام اقوله اث في خلوة

— فهل م ، شي جد ه

— لا ولكن اريد ا ـ ي عليك بعض ا ـ ئلة

— باي شأن يا ترى — بشأن عائلتك

— بشان خطيبي وابيها — لا لا فلست محلفاً وعدي بشأنهما

واني احقق انكم تدومو ـ عــ ـ ى طو يلا ولا ما ، هدا احب ان اعرفك حق المعرفة واسألك اولا ، وا ا ك ومادا ا ـ ه

— عن والدي ـ مال . ولكن اي ـ ادخل له في شغلنا

— لاني اظن اني اعرفه فهل لك ان تفيدني عنه

— لا ياسيدي من المستحيل ان تكون عرفته

وفيما يقول هذا ، دلائل الاضطراب والقلق على وجهه لائحة جاء احد خدمة الملعب يدعوه الى اللعب لان دوره قد جاء والناس بانتظار فانفرجت أزمته لتخلصه من الجواب واعتذر الى الاميركي وهرع الى الملعب بعد انضرب بينهما موعد تتمة الحديث بهذا المعنى الى ما بعد التمثيل

اما دربوكوف فاشتد اعتقاده بظنه وقال في نفسه : لماذا اضطرب لما سألته عن ابيه فلا بد ان اقف اليوم على جلية الامر . آه يارب متى ينتهي التمثيل . . . وان صح ان يكون ولدي فكيف يطاوعني قلبي ان ادعه الليلة هدفاً لخطر اللعب . . .

فلما عاد فرنسيس الى الاسطبل رأى الخيل قد ابطرها عشب الربيع فشمست وعصت حتى لم يستطع الساسة الى تسكينها سبيلاً

وبينما كان فرنسيس يتعاهد الخيل ويلاطفها وهي تنفر على خلاف عادتها سمع من اقصى الاسطبل صوت ايريني ديمونسكي يقول : ارى الخيل الليلة هائجة فحذار منها فلم يكترث اليها بل قال اني ادرى منكِ بخيلي فاجابته لا اسلم لك بهذه الدراية ولكن لو كنتُ اياك لما لعبت بها هذه الليلة

فازدرى فرنسيس كلامها الذي لم تقله الا لتدرأ عنها الشبهات اذا حدثت بعض الملمات وساق الجياد الى الميدان وجعل يأتي غرائب الالعاب على ظهورها من قفز ورقص ووقوف وقعود حتى ادهش جميع الحاضرين ولاسيما لدى مشاهدتهم اقتداره على اخضاعها وهي نافرة ما عدا دربوكوف فكان قلبه يخفق عند كل حركة ويود لو تنتهي الالعاب في الحال

وفي منتصف اللعب بينما كان كل الناس سكارى من نشوة السرور اذ شمس الحصان الاكبر وانتصب على قائمتيه كي لا يمكن الفارس من ظهره اما فرنسيس فتعلق بناصيته وجذبه جذباً عنيفاً حتى ارتمى الحصان على ظهره وتوارى الفارس تحته فعلا الصياح والجلبة وهرول الخلق الى الميدان وبينهم دربوكوف الذي تولاه الغم الشديد فتقدم الى الحصان وشده بقائمته بيد حديدية فانهضه واقفاً وظهر فرنسيس تحته معفراً بالتراب

كجثة لا حراك لها ممثا بجانب صدره وبكى كالاطفال و كان بازائه رفيريو فاقتدى به وطفق يندب حظ فتاته ثم تعاونا كلاهما على انها سه ونقله الى خارج الميدان للاعتناء بامره

وكان منترفيو ينظر مع بعض اصحابه فاعرب امامهم عن انذهاله من عمــل دربوكوف قائلاً يلومهُ وهو غني كبــير على اغاثة وحمل فتىً حقير وقال لهم انهُ لاحظ من بعض ايام ان اخلاق فرنسيس قد تغيرت وجعل يعــامل خيالهُ بالضرب والخشونة عوض التلطف واللين فأدت الى هذا الحادث المريع

وبعد انقطاع الالعــاب ربع ساعة وقف مــدير الملعب في صدره واعلن ان الحادث ليس بذي بال وان التمثيل يستأنف بالحال

﴿ فصل ثان وخمسون ﴾

في معالجة فرنسيس

ما كاد مدير الملعب يعلن باستئناف التمثيل الا وفدت الى الميدان ايريني ديبونسكي فاستقبلها الجمهور بالتصدية والتهاليــل اما سنترمون فقام من مخدعه ليستعلم عن صحة الفارس وكان يرتجف مضطرباً كما لو كانت له يد في هاته المصيبة او كأن دودة ضميره وخزته من اشتراكه في تسببها فصــادف دربوكوف خارجاً من غرفة الجريح فسأله عنهُ فاجابه : هو على آخر رمق — اذن لم يمت

— لا يزال يتنفس والحمــد لله . رجوتك ياعزيزي ان لا تخبر ليلي بهذا الخطر

— بل أنبئها بحدوث سقطة عادية . . . فاذن يرجى شفاؤه

— لا يبرح غائبــاً عن الرشد فالامل بالله وحده . . وسابقى معهُ حينــاً من الزمان لان صحتهُ تهمني جداً

ثم ودعهُ فعاد سنترمون وقد داخلهُ شيء من الخجل

وكان الفارس مطروحاً على سرير مزرق وحوله طبيبــان استدعيا على الفور وزفيريو يذرف العبرات سماتاً وابنته مالينا تبكي في زاوية كالاولاد

وبعد فحص الطبيبين وجدا اضلاعه متعوجة وعظامهُ متكسرة فحكما بوجوب نقله

الى المستشفى سريعاً ووضعهِ في قالب من الجبس جبرًا لعظامه فشرعا يضمدان بعض جراحه ويستعملان بعض الادوية لانعاشه حتى جاءت عجلة المرضى البلدية وعليها معاون طبيب المستشفى فسلماه المريض وانطلقا فنقل الى العجلة وركب معهُ

اما زفيريو فلما سمع بذكر المستشفى تأوَّه متنهدًا لما اشتهرت به المستشفيات بقلة العناية بالمرضى ولاسيما الفقراء الغرباء وسأل الطبيب ان ينقل الجريح الى بيته فأبى بحجة انهُ ضيق لا تمكن فيهِ العناية والمعالجة فالتمست ماينا ان ترافقهُ كاخت لهُ تخدمهُ فرفض طلبها على ان دربوكوف قد طيب خاطرهما ووعدهما بعمل كل ما يؤول الى راحته

فلما سارت العجالة بعض خطىً هرع دربوكوف وتسلق عليها وجلس بجانب الحوذي وعندما وصلا الى مفرق المستشفى اراد ان يقنع الحوذي بالانطلاق الى قصره فأبى بحجة ان الطبيب امره ولا يستطيع مخالفته فأدى لهُ ديناراً فغشي على بصره فتحوَّل عن طريق المستشفى ولم يلبث ان اوقف العجلة امام قصر دربوكوف فغضب عليهِ الطبيب وشتمه وظنهُ سكران فتقدم اليهِ دربوكوف وعبس في وجهه وقال: أليس هذا القصر افضل من المستشفى وهل يرسل المريض الى المستشفى رغماً عنهُ ما دام له بيت

وقبل ان ينتظر دربوكوف جواب الطبيب امر خدمتهُ ان يرفعوا المريض الى صاعة فسيحة ويوضع في سرير جديد وتتخذ كل الوسائل اللازمة للعناية به

فلما استقر المريض على سريره اراد الطبيب الانصراف فعارضهُ دربوكوف فوعد بالرجوع صباحاً فترجاه ان يرسل معاونا غيره يسهر على العليل كل الليل حتى اذا جاء الصباح استدعى استاذه الاكبر مع اثنين من مهرة الجراحين واخبره انهُ مستعد لدفع اجرة الجميع كما لو كانوا يعودونهُ هو نفسه

فلما امسى دربوكوف وحده تقدم الى فرنسيس وجعل يتفرس فيه متوجعاً لمصابه واذ وقعت عينهُ على اثر جرح مندمل عند صدغه الايمن ذكر حينئذٍ ان ابنهُ كان قد اصابهُ في ذلك الموضع جرح ثخين من جراء ضربة اصابه بها ذات ليلة وهو سكران فجرت العبرات من عينيه عفواً لكنهُ مسحها حالاً كي لا يلاحظ الخادم شيئاً من هذا الحنو العجيب نحو هذا العليل الغريب

وما مضى نصف ساعة ان جاء معاون طبيب اخر فقص عليه الاميركي خبر السقطة تفصيلا ثم تركه مع العليل وخرج يفكر في طريقة يستقبل بها ليلي وكان لا يريد ان يخبرها بنقل الجريح الى القصر بل يقف على افكارها ويستميل عواطفها الى رأيه ولذا اخذ يتمشى في الدهليز حتى اذا وصلت ليلي استقبلها قبل الخدم وفيما هو يفكر في هذا اذ وقفت عجلة فاسرع الى الباب وفتحه فاذا عليه آل سنترمون الذين جاؤوا مع ليلي وسألوه عن فرنسيس الذي ظنوه في المستشفى فاخبرهم ان الامل ضعيف بشفائه ثم ودعهم واخذ ليلي بيدها الى غرفتها وهو يظهر لها اللطف والتحبب كعادته وهي تبدي له الاسف على سقوط ذلك المسكين الذي كانت تتسلى به لبلواه وتكثر السؤال عنه فقال لها متعجبا لم هذا الاهتمام والتحري

ــ كيف لا انا مديونة له بانه نصحني بترك حصان شموس كدت اشتريه وقدم لي فرسًا ابن افندي فضلا عن انه صار كواحد منا لارتباطه معك بخدمة حقولك في اميركا

فتشجع دربوكوف بهذا الكلام وقص عليها خبر السقطة وكيف احتمله مع زفيريو الى مخدعه وما قال الاطباء وكيف امروا باخذه الى المستشفى فعارضته حينئذ وقالت له كيف تركتهم ياخذونه الى المستشفى وعندنا في القصر عدة غرف فسيحة لا يسكنها احد فقال لها : اذن لو كنت معي لكنت ترغبين في نقله الى قصرنا

ــ بلا شك لانه لا يحق له مثل هذا المصاب وهو في خدمتنا لما كنا ترددنا عن العناية به في بيتنا

ــ لكن الا تدرين ما وراء هذا العمل من الاستهجان لدى الالفة الباريسية

ــ وماذا يهمنا ما يقوله عنا الناس فهل يجب ان نستحي منهم في عمل الواجب المفروض علينا

فتأثر دربوكوف للغاية ثم ضم الفتاة الى صدره وعانقها طويلا وقال لها لقد حسبت هذا الحساب وحزرت بان قلبك الشريف لا يأذن بالحياد عن عمل الواجب اكراما للناس والذ صنعت ما كنت تشتهين وجئت بالعليل الى قصري وهو الان في

الصاعة الداخلية ولديه طبيب . فخفق قلب الفتاة سرورًا وقالت لابيها : الان ابهجت فوادي ولكن ساءني منك امرٌ واحد وهو ارتيابك في صدق مبادئي واجتهادك في عدم اطلاعي على هذا الامر الا بعد اعدادي اليه فهيا بنا لنعود ضعفنا

فلما لحت ليلي وجه فرنسيس مرضوضًا محطمًا شهقت متأوهة فاسكتها الطبيب لانهُ شعر بدنو عليله من الافاقة وقد حرّك جفنيه وسرح طرفهُ يسيرًا بين ليلي ودربوكوف ثم اطبقهما فالقى الطبيب على شفتيه قطرة من الكنياك فلفظ كلمة واحدة متقطعة : مايـ . . مايتا

ثم فتح عينيه ثانية واراد ان يتكلم فلم يقدر فاشار عليه الطبيب ان يغمضهما وينام وطلب الى الاب وابنته ان يخرجا من الغرفة كي لا يشوشاه لان لهُ في النوم راحة عظيمة فقالت ليلي لابيها وهي خارجة : يظهر انهُ يحب مايتا كثيرًا فهل كانت في الملعب هاته الليلة

ـــ نعم ولكن خارت قواهـا من شدة الاسف واوشكت ان يغمى عليها فاحتملها ابوها الى غرفتها قبل ان نقل فرنسيس الى العجلة

فاخذت ليلي رقعة وكتبت فيهـا الى مايتا ما يأتي :

« عزيزتي

« ان اعظم تعزية لكِ على ما اظن هو ان اخبركِ ان اول كلمة نطق بها المسيو فرنسيس بعد اغمائه كانت اسمكِ . وقد سرَّ والدي ان ينقلهُ الى قصرنا وفيه تربتهُ في اول فرصة ياذن فيها الاطباء بمواجهته . وتأكدي ياعزيزتي ان مودتكِ الناشئة حديثًا في قلبي قد تضاعفت الان بالمصاب الذي حل بكِ وشاطرتكِ فيه فتصبري

ليلي دربوكوف »

ثم دفعت ليلي الرقعة الى ابيها ليرسلها الى مايتا سريعًا فلما قرأها تلوَّن وجههُ ورأى انهُ بنقله فرنسيس الى قصره اصبح مضطرًّا ان يفتح ابوابه الى زفيريو ومايتـا اي الى مهرجٍ ولاعبة على الخيل فقال لابنته : ألا تخافين ياليلي

ـــ ماذا اخاف يا ابت

ـ ان تستهجن اسرة خطيبك هذا العمل

ـ اليست هذه الفتاة ماينا عاقلة اديبة ـ على جانب عظيم من التعقل والاداب ـ فاذًا كيف يستهجنون هذا العمل

العل آل سنترمون قساة القلوب الى هذا الحد . حاشى وهب انهم يستهجنونهُ فانا راضية عنهُ مسرورة به جدًا فليقل الناس ما شاؤوا

ولم تتبع ليلي في ذلك الا ميل قلبها اللطيف الذي تشرّب حب ماينا بديهيًا اما الباريسيون المتشوقون الى الاخبار الجديدة فقد اصبحت مسألة فرنسيس شغلهم الشاغل فانتشر خبر سقطته اولاً في نوادي الكبراء العالية كل ذلك الليل ثم نقلتهُ جرائد الصباح وقد ذكرت نقلهُ الى قصر دربوكوف وتوسعت في شرح هذ الامر الغريب وذهب بعضها الى الاستهزاء باسرة سنترمون العازمة ان تصاهر الغني الاميركي الذي اتى مثل هذا العمل المستهجن وكان بعض الحساد قد لقنوها ذلك الاستهزاء اشتفاء من ليونيدة التي افلحت في تدبير هذا النصيب لابنها

وكان غضب ليونيدة وابنها شديدًا اما سنترمون فرغمًا عن امتعاضه قد ابدى من الضعف قوة واوضح لهما ان مثل ذلك العمل الخيري من دربوكوف لا يزيد العقلاء الا ثناء على شهامته وتقواه وقال لهما لما هرعا اليهِ حاملين الجرائد الناشرة التقريع : ياحبيبيَّ لا تعجبا من ذا التصرف فانهُ اميركيٌّ بحت يدل على كرامة الاخلاق نعم لو بقيت معهُ ليلة امس لما كنت مكنتهُ من نقل الجريح الى قصره ولما كنت اجيزه على اخذه الى المستشفى الذي يخشى فيه اهمال العناية بل لكنت اقنعتهُ ان يسلمهُ الى احدى الاسرات المنقطعة الى خدمة المرضى حيث كان يمكنهُ الحصول على تمام راحته وخصوصاً بما نبذلهُ للقائمين بخدمته من التواصي والمال اما الان وقد سبق السيف العذل فيجب علينا ان نتظاهر باستحسان العمل وامتداح الاميركي الذي لا بد ان يكون قلب ابنتهِ الرقيق قد وافقهُ عليهِ اذ من المستحيل بل من القساوة البربرية ان نجبرهما على اخراجه من القصر

ـ ولكن ماذا يقول عنا الباريسيون أفلا يزدروننا ممتهنين

— كلا . . . وسترى ان جرائد المساء ستبدو بلهجة مخالفة للصحف الصباحية وتبدل الاستهزاء باندهال وتعجب من رقة قلب الاميركي وحنانه وتواضعه وتجمع الالسنة على تمداحه فدعاني ادبر الامر تدبيرًا شريفًا واما انتما فعليكما موافقة هاته اللهجة الاستحسانية . . العلنا مجانين حتى نتمسك بالعرض ونترك الجوهر اوليست هذه الفتاة من اجمل نساء باريس وذات قناطير مقنطرة من الذهب فمالنا وللباريسيين وماذا يجدينا رضاهم وغضبهم

وفي عصر ذلك اليوم انطلق سنترمون مع امرأته وابنه الى قصر دربوكوف وتظاهروا باخلاص التهنئة له من صميم الفؤاد على اتيان تلك المحمدة واثنوا على غيرته وشهامته فخجل دربوكوف وقال كأنهُ يعتذر : « انما اتيت ذا العمل عن غير تروٍّ ثم خفت ان يسبب لليلي غمًا وكدرًا » فعارضتهُ ليونيدة بلهجة مخلصة : « لا اظن ان ليلي تتكدر من عمل برّ ورحمة وهي المشهورة باللطف والصلاح » ثم قال ارثور متعجبًا : ان الآنسة ليلي على جانب عظيم من الشفقة والحنو فاين هي الان ياترى

فانشرح صدر الاميركي انشراحًا وانبأهم بقرب قدوم ليلي لان عليها بعض الشغل المستوجب حضورها خوف اهمال الخدم للعليل

وكانت ليلي منذ الصباح قد قامت بواجبات الضيافة احسن قيام وعينت لخدمة فرنسيس احدى راهبات المحبة واعدت كل ما يلزم لاجراء الاعمال الجراحية جبرًا للعظام وتضميدًا للجراح

وعند الضحى حضر ثلثة دكاترة من مشاهير اطباء وجراحي باريس وتشاوروا في اصلاح تلك الرمة البشرية فانجلى فحصهم عن تقرير أمل ضعيف بشفاء فرنسيس نظرًا لقوة بنيته التي تمكنت من تحمل تلك الرضة الشديدة لكنهم وجدوا عظامهُ منكسرة في عشرين جانبًا فعزموا على جبرها باعادتها الى مراكزها وتحجير جسمه كله بالجبسين واتموا هذا العمل الدقيق بخمس ساعات اصبح بعدها جسم فرنسيس كالخشبة واوصوا بان لا يحركهُ البتة فلا يمضي بضعة اسابيع حتى تلتئم العظام فلا يبعد ان يقوم بعد اشهر قليلة ولكن يكون في الغالب اعرج .

وقد شهد دربوكوف اعمال الاطباء والقلب متنفطر حزناً والماً وقد زاد اقتناعهُ بانهُ ابنهُ ولا يمكن الاَّ يكون ابنهُ اما ليلي فقد احتجبت في غرفة محاذية استحياء لكنها كانت تسمع تداول الاطباء وانين الجريح ففي النهاية عادت فاوصاها الاطباء بكل ما يجب عملهُ من التحوطات واسباب العناية ونشطوها على ما تبدي من الجرأة وقوة الجنان

وقبيل وصول آل سنترمون الى قصر دربوكوف كان زفيريو وابنتهُ ماينا قد جاءا يستأذنان بعيادة العليل فهرعت ليلي لاستقبالهما وبشرتهما فرحةً بان فرنسيس حيٌّ وبأن الامل وطيد بشفائه فتقدمت اليهما ماينا تشكرها ولكن خانها لسانها ولم تدرِ ما تقول تعبيراً عما تطوي من معرفة الجميل واكتفت باخذ يديها ولثمهما مراراً وتبليلهما بدموعها فتأثرت ليلي وكادت تبكي لكنها تجلدت وقالت لها تعالي امسحي وانظرا فمسحت ماينا عبراتها وسكنت زفراتها ودخلت الى غرفة العليل مستندة الى ذراع ليلي فدنت نحو سريره قليلاً ثم خنقتها الدموع ولم تتمالك صبراً فخرجت ائتماراً لاشارة الطبيب كي لا يتأثر الجريح من نحيبها وقالت الليلي ساكون غداً اكثر جرأة فاعوده والبث عنده طويلاً فاجابتها ليلي يمكنكِ ان تأتي في كل ساعة وقد امرت الخادم فلا يعارضوكِ بالدخول عليهِ متى شئتِ ويهمني الان طمئنتنا انما تخلصهُ لك ان شاء الله

وكان زفيريو مبهوتاً شاخص البصر في ذلك الملاك الارضي فاخذ يد ليلي ولثمها شاكراً فودعتهما الفتاة الى الباب الخارجي كما تودع اكابر الزوار

وكان سنترمون حينئذٍ جالساً بقرب نافذة الصاعة المطلة على باب القصر فنظرهما وقد انقبض صدره اسفاً على ماينا التي كانت عبراتها منتشرة على وجنتيها ،كان يشعر بنفسه حزيناً كما لو كانت لهُ يد في جرّ الغم الى قلبها

اما ليلي فبادرت الى الصاعة فاستقبلها آل سنترمون بغاية الترحيب وعند اعتذارها لهم عن عاقتها اجابتها ايوندة : يظهر انك تشكين في ما لك في قلوبنا من علو المنزلة والكرامة وقال ارثور وانا ياسيدتي اسأل نفسي هل لا ازال مستحقاً لمثل هذا القلب السامي الشريف

جريدة الملاعب ليتسلى وفيما هو يتصفحهـا اذ وقع بصره على عبـارة كادت تخطف قلبهُ وهذا نصها :

« يؤكدون ان الادارة البحرية ساعية الان في البحث على نوتيٍّ هجر الخدمة العسكرية قديمًا بعد ان همَّ بقتـل احد رؤسائه وفد تواري الى هـذا اليوم متنكرًا باسم مجهول وهو يشتغل في ملاعب الخيل في باريس »وما كاد يتم الفقرة حتي تجلدت شفتاه وقد سقط منهما غليونهُ وارتجفت قدماه فاستند الى شجرة هناك كي لا يقع : وقال من يكون ياترى ذلك الرجل المتنكر غيري وليس في باريس الا خمسة ملاعب للخيل منها اثنان مقفلان والثلاثة الباقية اعرف رجالها فردًا فردًا ولا اظن احدًا مقصودًا بهاته العبارة سواي فيالله من هذه البلوى الجديدة زيادة فى الطين بلة

ثم ارتمى على مقعد في الحديقة واخذت الاشباح المختلفة تتراءى لخيلته فتارة كان يتصور رجال الدرك ساعين في البحث عنهُ لعلهم يقتفون اثاره وطورًا يتخيـل انهُ واقف امام المجلس الحربي البحري والقضاة مصدرون عليه الحكم بالاعدام . . .

ثم اشتد خوفهُ واحتار في امره وفكر اولاً بالهرب لكن خاف ان الجواسيس يقبضون عليهِ ويثبتون جرمهُ من فراره وان بقي في باريس فلا يمكن ان يختفي بل لا بد من امساكه يومًا ولكن الهرب في البراري اسهـل واقرب الى الخلاص ولكن كان يقول : كيف العمل بالفتاة مارينا . . اوَّاه لولاها لكنت فزت بنفسي ناجيـًا اما الان فمن المستحيل ان اتركهـا ساعة . . . عليَّ بالشجاعة وثبات الجأش ويجب قبـل كل شيء ان اذهب الى البيت وآخذ ما يتيسر من الدراهم لانهـا مفتاح الفرج « فاليوم شرب خمر وغدا تدبير امر »

فقام زفيريو من الحديقـة نحو البيت وهو يتلفت ذات اليمين وذات الشمال لعل الرقباء حولهُ وكان منترفيو واقفًا على الباب يدخن التبغ منتظرًا فلما اقبل زفيريو ناداه بلهجة سيد ينادي خادمهُ وقال لهُ : بالحقيقة انك اباه احمق يازفرين

فاراد ان يجـاوب منكرًا هذا الاسم متجاهلًا لكن خانهُ صوتهُ وازدادت رجفتهُ وفتح فاه فـلعثم فانتهره انتهاره لهُ لما كان نوتيًا في بحثـه وامر حوذيه الواقف بعيدًا

فاسرع بالعجلة وامر زفرين ان يركبها فتردد فدفعه بيده قائلا صه ياهذا فاني ساعٍ بخلاصك

ثم ركب منترفيو معهُ وسارت العجلة تنهب الطريق فلما ابتعدا قال لهُ منترفيو متحببًا : لقد اخطأت ياولدي في اخلاف ثقتك بي وانا الذي انقذك يومًا من الموت فلماذا كل هذا الخداع

فاراد زفرين ان يتجاهل ايضًا فقاطعهُ وافهمهُ انهُ عرفهُ من لهجته التي لم تخفَ عليهِ وطيب خاطره باعلانهُ لهُ انهُ سامحه على خطائه الماضي وانهُ رأى احداق الخطر به فبادر الى انقاذه شفقة عليهِ

فلم يستطع زفرين ان ينكر بل احنى رأسهُ كالنعجة امام الجزار وصدقهُ بانهُ راغب في تخليصه من الاخطار

فلما انس منترفيو من خادمه الخضوع والانقياد خاطبهُ بلهجة الحب والوداد : لقد كنت احمق ياصاح بعدم ثقتك فيّ واجتهادك في مخادعتي كل هاته المدة فلمَ خفت مني وخادعتني هل لاجل بضعة آلاف فرنك دفعتها اليك فلم تردها لي ... ولكن انت ادرى من غيرك بكرمي فلو جئتني معتذرًا لما كنت طالبتك بها والان لولا حبي لك لما كنت هرعت الى اغاثتك فكيف تجرأت بعد اقترافك تلك الجريمة الفظيعة في البحرية الفرنسية ان تضع رجالك في ارض فرنسا وليس لك سند ولا معتمد في هذا البلد ارجوك العفو ياسيدي فخلصني

— كنت الى نهار امس اتردد فيك بين الشك واليقين ولم اتحقق انك خادمي القديم الا لما قرأت اليوم في جريدة الملاعب عبارة تشير اليك فاشفقت عليك وطرت الى انقاذك ولولاي الان لكان رجال الدرك قد قبضوا عليك وجروك الى المحاكمة والسجن وربما حكموا عليك بالشنق لكن لا خوف عليك لان ولا انت تحزن ... قل لي ماذا جرى لك في تلك السفرة التي ارسلتك بها واين تلك البنية التي سلمتكها

فلما سمع زفرين اسم الفتاة انتفض انتفاض العصفور بللهُ القطر ودمعت عيناه فقال لهُ سيده مواربًا : يظهر انك آسف على وفاتها عند السيدة برمبتون حيث لم

. يواقها هواء لندن وكنت تحب ان تربيهاوتتبناها فغلبك البين وعجل بخطفها

فلم يأبه التسوتي الى ما في ذا الكلام المعمى من التلميح بل انشرح صدره ظاناً ان مولاه قد صدق قول بدمبتون عن موت الفتاة وامن على ماينا اعتقاد انها نجت من كل خطر وفكر بانهُ مستعد لتحمل اي عقاب كان بشرط سلامتها وقال لسيده الى اين ذاهبون الان

ــ اني خارج بك من باريس قبل ان تتأثرك الشرطة التي بثت في كل انحاء المدينة سعياً وراءك ولو دخلت بيتك اليوم لما كنت تخرج منهُ الا الى السجن ولا ارتاب بان رجال الدرك هم الذين نشروا تلك الفقرة التي رأيتها في جريدة الملاعب حتى تهمّ بالفرار فيتأكدوا بذلك جرمك دون اقرار وقد اعملت الفكرة طويلاً في تخليصك فلم ارَ اوفق من ابعادك الى خارج فرنسا ولما وجدت ان في خروجك من باريس خطراً لان الرقباء واقفة لك بالمرصاد في كل مكان لم اتردد ان اربك في عجلتي نفسها اذ من المستحيل ان يظنوا فقيرًا مثلك يركب عجلة لاحد اكابر المتمولين وها نحن الان على ابواب باريس وعما قليل نصبح خارجاً فتركب السكة الحديدية من قريه بواسي الى الهافر ومنها تبحر حالاً الى انكلترة فتأمن كل خطر

قال هذا وضحك مقهقهاً كأنهُ أتى امرًا عظيماً احباطاً لمساعي الشرطة فقهقه زفرين ايضاً مقتفياً اثره لكنهُ انقطع عن الضحك فجأةً وقال : ولكن ماذا يحل بابنتي ياترى

ــ لا تخف عليها فهي ستلحق بك حالما تنجو من الخطر . ولكن انى لك هاته الفتاة البارعة الجمال وانا لم اعهدك من قبل متأهلاً

ــ هي ابنتي من امرأة سابقة

ــ بارك الله لك فيها فكن مطمئناً عنها فسنعتني بامرها مهتمين في الحاقها بك بمساعدة دربوكوف وسنتره ون اذ من المستحيل ان ترافقك لان مجرد وجودها معك يثير عليك الشبهات ويوقعك في الشرك ففز بنفسك الان لان الشرطة يتوهمون انك لا تزال في باريس ما دامت باقية فيها وبحسب رأيي يجب ان تداوم التمثيل كالعادة مدة

ثلاث ليال متوالية معلنــة امام الجميع ادلك مريض ثم آتي بها اليك انا بنفسي او بواسطة احد اصحابي

فاقتنع زفرين بمقال سيده واوله منزل الصدق وشكره على هاته الغيرة الغريبة التي عززها منترفيو اخيرًا بتقديمه له خمسين ليرة نظير اعانة ماليــة على السفر ريثما يعود مع ابنته الى مزاولة حرفتهما فأبى اخذها اولاً فقال له منترفيو : انا اعلم انك غير محتاج الى المال ولكن لا بد منها الان اذ لا وصول ليدك الى دراهم ومتى شئت ان تعيدها لي فلا ارفضها

فتلقف زفرين الدراهم شاكرًا ولكن داخلته الريبة من فرط هذه العناية الفريدة اذ تبين له ان الرجل يريد التخلص منــه باقرب ما يمكن ولم يفقه معنى ذلك التلطف الغريب ولكن حدثته نفسه ان وراء الاكمة ما وراءها فسكت ليرى النهاية

فلما كان الظهر وصــل الرجلان الى محطة السكة الحديدية فقطع منترفيو ورقة السفر الى الهافر ودفعها الى زفرين وودعه واوصاه بان يكتب له عنـد وصوله الى بر الانكليز

فشكره زفرين وجلس في محلة السكة الحديدية يتأمل في هذه الحــادثة وكان ينظر من النافذة الى منترفيو حتى اذا رآه قد ركب عجلته وعاد بها الى باريس ووجهه يتلفع سرورًا انتبه صاحبنا الى ان في ذلك حيلة انطلت عليه فاراد ان يقفز من المركبة عائدًا الى المحطة فمنعه الرقيب لان القطار كان قد تحرك ... فلزم الهوينــاء فعزم على الخروج عند اول محطة

وكانت المسافة الى اول محطة عشرين دقيقة خالها عشرين ساعة نظرًا لما تولاه من القلق وقد ارتسمت في مخيلتــه صورة مخاتلة منترفيو وخداعه صريحــة كالشمس رأد الضحى واتضحت والحالة هذه عيناه فابصر ان الرحى انما دارت على ماينا وهي المقصودة بالانتقام اذ هو دا خطيبها عليل بين حي وميت وهوذا ابوها أُبعد الى خارج فرنسا فاصبحت وحدها بلا نصير فصرخ بالهاوي حيلة شيطانية انطلت عليَّ ... لاعودنَّ الى باريس ولو قطعوني ولا ادع ماينا وحدها ولو عذبوني

فلما وصل الى اول محطة في ننت ترل اليها و بعد انتظار نصف ساعة ركب القطار العائد الى باريس فوصلها عند العصر وانطلق توًّا الى منزل دربوكوف وقرع الباب قرعًا عنيفًا فانبأه الخدم ان مايتا قضت النهار كلهُ في البحث عنهُ فطلب مواجهة دربوكوف بالحال وجهًا لوجه على انفراد ولم يكن من قبل ليتجرأ على مثل هذا الطلب فوافقهُ الحظ ان ليلي كانت خارج القصر وكان ابوها وحده فلما دخل اليهِ قال لهُ : اين كنت كل هذا النهار يازفيريو فقد اضطربت ابنتك لغيابك اضطرابًا

— انا لا اسمي زفيريو — هل تغير اسمك من امس الى اليوم

— لا ولكن اسمح لي ان اقول لك اني من اول نظرة اليك عرفتك يارفيقي الا اني كنت احذر منك حذري من سائر العالم لكن لما رأيت منك ما رأيت من المروءة والشهامة وما ابديت من العناية بفرنسيس حلفت اني لن افارقك بل اكون رقًا لك وللآنسة ليلي ما دمت حيًا ولهذا اتيتك باخلاص لاقول لك كل شيء صريحًا

فارتجف دربوكوف وتظاهر بالتجلد والصبر الى النهاية واوعز الى زفيريو فجلس وقال : انا لا اسمي زفيريو ولست ايطاليًا ولا اسبانيًا بل فرنسي بحت واسمي زفرين ڤيلكنتال وكنت في سلك البحرية فهجرتها لمخاصمتي احد الضباط وتقيدت في خدمة خبيث ظلوم يسمونهُ الشفاليه منترفيو

فلما سمع دربوكوف اسم منترفيو ارتعش وتطلع في مخاطبه تطلع المنذهل وكاد يسألهُ : ماذا يعنيني كل هذا الكلام الا ان زفرين استأنف حديثهُ قال انت لا تدعى دربوكوف بل اسمك الحقيقي غريك بوك ولعلك اتيت في بلدك افظع ما اتيت انا فهجرته مثلي واقمت في خدمة ذلك اللئيم منترفيو

فعظم هذا الكلام على دربوكوف حتى اوشك ان يغمى عليهِ ولم يستطع الى انكاره سبيلًا وفكر في ما تكون نتيجتهُ وخاف اولاً ان يكون زفرين قد جاءه مداهنًا مخادعًا الا انهُ توسم من خلال لهجتهِ انهُ مخلص بل مضطر الى كشف ذلك السرّ لعلهما كليهما تحت خطر واحد فسألهُ : وماذا تريد الان

— ان تنقذني مع ابنتي مايتا من تهلكة عظيمة ولكن يجب ان أقول لك انها ليست

بابنتي أفلا تتذكر تلك السفرة من نيس الى جنوا ليلة المساخر . . . لا تواخذني على ترديد ذكرى تلك الحوادث التي لا تسرك ولكن ما العمل ويجب ان اقول لك كل شيء فبينما كنت ترشف كؤوس الملاذ والانس في شوارع نيس تلك الليلة سافرت مع معلمي الشقي حاملاً بنية جميلة

ثم اخذ زفرين يقص على رفيقه ما جرى لهذه الفتاة المخطوفة التي لم يشفق منترفيو عليها ولا على ابويها فبعثه الله ليقوم لديها مقامهما وغرس في قلبه حبها فاصبحت كأنها فلذة كبده وكان في اثناء هذا الحديث يذرف عبرات حرّى ودربوكوف يصغي اليه كانه يسمع قصة نفسها ويشعر الشعائر عينها وقد تحقق ان قلبه قد مس مثله ايضاً فتحوّل من سكير شقي الى والد حنون حكيم وكان كلاهما في موقف واحد لا فرق بينهما الا ان دربوكوف كان مثرياً ذا ملايين كثيرة وزفيريو سبروتا يرتزق من كد جبينه وانهُ اثني هذا التأمل واذا بفكر جديد طرق مخيلته الا وهو ان ليلي ومانيا هما شقيقتان فارتعدت فرائصهُ وكلله العرق البارد من رأسه الى قدميهِ فسأل زفيريو ألم تكتشف قط اسرة هذه الفتاة

— لا لسوء الحظ بل لما سألتها عن ابيها او امها كانت تجيب عن الاول باسم بابا وعن الثانية باسم ماما وان لها اختاً اصغر منها كانت تدعوها ليلي

— ماذا تقول — عين الصحيح . . . اسم اختها ليلي نظير اسم ابنتك تماماً . . . ألعلك انت كذلك . .

فاحنى الاميركي رأسهُ هنيهة ثم قام من كرسيه منتفضاً ووضع يده على كتف زفيريو وقال له بجدة ألم تبح بذلك لاحد قط

— كلا ياسيدي وكيف يمكن ان اطلع غيرك على دخيلة امري ولولا الخطر المحدق بك انت ايضاً لما كنت ذكرت لك من ذلك شيئاً ولا احد يعرف ان مانيا وليلي شقيقتان الا نحن لا غير وانا . اكن لا اعرف ذلك الا منك الان فهوذا تدبير الله قد ساق الحوادث الى ان ضم شمل الشتيتين وجمع بين الشقيقتين فالحمد لله . . . نعم الحمد لله

فتأثر دربوكوف وشكر الله ايضاً على كشف هـذا السر وقام يتمشى في الحجرة مفكراً في ما يصنع وزفيريو شاخص البصر فيه منتظرٌ نتيجـة تلك الافكار ثم سأل دربوكوف عن الخطر الذي يتهدده فانبـأه بقصته من اولها من حيث قدومه الى باريس وتعلق مايتا بفرنسيس وتنافرهما وقتاً بسبب طاقة الورد واصطلاحهما وتعـاهدهما على الحب ثم باح له بمـا خالج صدره من الظن بان يداً سرية تشتغل من ورائه للانتقام من مايتا فقـد ابتدأت بضرب فرنسيس اكبر نصرائها وسعت في ابعـاده هو نفسه هـذا الصباح حتى تبقى مايتا وحدها بلا مغيث ولا معين

فتميز دربوكوف غيظاً ولا سيما عند سماعه بان مصيبة فرنسيس لم تأت عفواً بل هي نتيجة مكيدة شيطانية وتحقق صحة ظن مخاطبه من الحيلة بنشر ذلك التهويل عليه في جريدة الملاعب وتأكد ان تلك الفقرة لم تنشرها الحكومة لان سنة البلاد الفرنسية تمنع محاكمة القتلة عند مرور عشرين سنة على القتل فكم بالحري لا تلتفت الى خصام عادي يجري بين نوتي وضابطه فقال لزفيرو : كن مطمئناً من الحـكومة الفرنسية لا تتأثرك لاجل تلك الهفوة بسبب مرور الزمان واس التهديد الذي قرأته في جريدة الملاعب الا فعل يد خبيثة يد صاحبك مونترفيو الذي قصد الخلاص منك

— كما قصد التخلص من فرنسيس ايضاً

— هل انت على يقين ان سقطة فرنسيس كانت مقصودة ونتيجة مكيدة

— كذا ارجح وقـد استفحصت عن الامر قليلاً من وراء وراء ففهمت ان ايريني ديمونسكي كانت تعالج الخيل ببعض المآكل المهيجة في حين كان فرنسيس يخاطبك في باب الاسطبل ثم اشاعت بين الجمهور ان الفارس يسيء معاملة خيله ويؤلمها بالضرب

فذكر دربوكوف حينئذ انه لا واجه فرنسيس تلك الليلة شاهد ايريني تداعب الخيـل فسال صاحبهُ : هل تؤكد ان ايريني كانت هي العلة

— ارجح انها كانت آلة بيد اخرى شريرة تحركها في الظلمة من وراء الخفاء

فصمت الاميركي وجلس يتأمل في الحادث الغريب ويتبصر في تلافي الخطر وفي ما يؤول الى ادراك الوطر ثم قـال لرفيقه وقد برقت عيناه : لا نغلبت مونترفيو

في باريس لاول وهلة كنت قد خفته مثلك لكن زال خوفي منهُ لما رأيت انهُ لا يستطيع مني انتقاماً فان كان غنياً فانا اغنى منه وان كان يعرف بعض اسراري فلدي من اسراره ايضاً ما لو بحت به للاقى الذل والهوان ان كان يعتمد على اصحابه الكثيرين بين اكابر الفرنسيس فها انا مصاهر عما قريب اسرة من اشرف واعرق اسرات فرنسا حسباً فان شاء النزال فها انا ذا مستعد للقائه بقلب يحاكي اشجع الابطال

— حياك الله وبياك ونصرك يا اخا المروءة على اعدائك

— حسناً صنعت يا زفرين بالتجائك الي فلا تخف بأساً واسمع الان ما اوصيك به: يجب عليك ان تبقى كما كنت واسمك زفيريو ومهنتك التمثيل في الملاعب واياك ان تغير شيئاً من عوائدك

— امرك يا مولاي وانت تكون دربوكوف الغني الشهير

— كذا وهل منترفيو موقن يا ترى بانك سافرت الى الهافر

— كيف لا وقد قطع لي ورقة الناولون بيده

فاستدعى دربوكوف الخادم الذي ادخل عليه زفيريو وشدد عليه التوصية بالا يخبر احداً بقدوم زفيريو الى القصر فلما خرج الخادم ارتمى زفيريو على قلب الاميركي يعانقه ويباركه شاكراً ثم سألهُ عما يصنع بابنته مابنا فطيب خاطره ووعده بانهُ يحميها تحت كنفه امينةً من كل خطر

وانهما لفي هذا الحديث واذا الباب يقرع والخادم ينبيء بقدوم سنترمون ومنترفيو فامره بادخالهما واوعز الى زفيريو ان يختبيء في الغرفة المحاذية ليسمع ما يكون دون ان يراه احد

وكانت مابنا قد مضت يوماً تعيساً وقد اخذ منها القلق كل مأخذ حين فتشت عن ابيها في كل باريس فلم تجد لهُ اثراً فعادت الى بيتها تنحب باكيةً وحينئذ اقبل عليها منترفيو وسنترمون واخبراها عن سفره واسبابه ووعداها بانهما كلاهما موقوفان لخدمتها وقال لها منترفيو: ان اباكِ يوصيك الا تغيري شيئاً من هيئة معيشتكِ بل اذيعي في كل مكان انهُ مريض وقد انطلق الى قرية بظاهر باريس تبديلاً للهواء وذلك

دفعًا لظنون رجال الدرك حتى يتمكن من الوصول الى انكلترة بامان وفي كل مساء تزاولين الالعاب في الميدان كالعادة واكون انا وسنترمون محافظين عليك محافظتنا على انسان العين

فبكت ماينا طويلًا وتنهدت فاخذ سنترمون بيديها وضمها الى صدره معزيًا وكان قلبهُ يلتهب بنار الجوى وايقن ان صديقه قد مهد لهُ سبيل الوصال فلا مانع ثمَّ ولا رقيب . . . وكان منترفيو ناظرًا اليهِ في تلك الحال وفوءاده يخفق طربًا لادراك امانيه وتسليم البنت الى يدي ابيها وعاشقها معًا . . وقد تصوَّر ان اذلالها صار ادنى من قاب قوسين . . . في حين كان ابنهُ ارثور مستعدًا للاقتران باخته ليلي بعد يومين وهنا منتهى ما كان يسعى اليهِ من الانتقام منذ عشرين من الاعوام . فما شد ما كان ابتهاجهُ لشفاء غليله ممن كان علة حرمانه من ريحانة جنانه . . .

اما ماينا الطاهرة الذيل فقد دلها قلبها ان احد الرجلين خادع لها ولابيها معًا فنفرت باطنًا ولكن قالت لهما بتلطف : اشكر لكما هاته الغيرة وارجو بهمتكما ان انجو مع ابي من التهلكة لكن اسمحا لي ان اتخذ معكما دربوكوف محاميًا ثالثًا وهيا بنا نذهب اليهِ فامتعضا لكنهما لم يتمالكا معارضتها فجاءَت معهما الى قصر الاميركي فاستقبلهم على عادته كأنهُ لا يعرف مما جرى شيئًا وقال لماينا متجاهلًا هل عرفتِ مقر ابيك فاجابتهُ بحسرة خنقتها العبرة ولم تستطع الى الكلام سبيلًا فقام منترفيو مقام الترجمان وقص حكاية زفيريو وسعي الحكومة في القبض عليهِ واجتهاده بتسفيره

فتظاهر دربوكوف بالاندهال من هذا الخبر المدبر بالخدعة والاحتيال ونظر الى ماينا فوجدها مبهونة من هذا الحادث الذي تظنهُ ضربًا من الافتعال على ان منترفيو استأنف حديثهُ مكررًا ما اوصاه ابوها من وجوب مداومتها على التمثيل بعض ليالٍ كالعادة ثم تسافر محمأة تحت كنف سنترمون الذي يمهد لها سبيل الانبساط والراحة . . فنظر الاميركي الى سنترمون شزرًا فرآه يرتجف اضطرابًا كأنهُ ساع الى عمل غير مشكور . .

فتقدم دربوكوف الى ماينا واخذ بيدها نشطًا وقال لها اعلمي باننا ما دمنا غير

متحققين مقرّ ابيك لا نغفل نحن الثلاثة عن حمايتك وخصوصاً انا ... ولا اكتم عليكما ياصديقيّ اني عوّلت على استخدام زفيريو في حقولي في اميركا ولا ارى في هاته الشكوى المنشورة في الجرائد ما ينقص ثقتي فان صح الذنب المتهم به فهو من الامور العادية التي نراها كل يوم فضلاً عن اني استهجن الانتباه اليها الان بعد مرور الزمان فلا ازال على العهد مع ابيكِ ياعزيزتي ماينا ولا اظن لاحد حقاً اكثر مني بالقيام لديكِ مقام والد

وكان زفيريو يتنصت من شق الباب فتهلل سروراً وكاد يطير من الفرح ويتمنى لو يسمح له صاحبه ان ينقض على عدوه منترفيو فيقطعه ارباً اما دربوكوف فكان يجيل طرفهُ بين سنترمون ومنترفيو المندهشين المستعين اصفراراً ثم قال للفتاة : لقد اخطأ ابوكِ بالهرب لمجرد قراءته تلك العبارة التي قد يكون احد الاعداء قد دسها في جريدة الملاعب لاريب في النفس : وهب ان الخبر صحيح والحكومة ساعية في اثره فيكفي النظر الى وقت حدوث هذا الذنب لتقرير عدم المحاكمة بمرور الزمان افليس هذا صدقاً ياصاحبيّ

فاجاب سنترمون الذي لاح لهُ ريبة من وراء تلك الدعوى : هذا ممكن وغير بعيد ولكن منترفيو قال وهو مرتعد الفرائص : لا اعلم

— ولكن هب ان زفيريو مستهدف لخطر اكيد افما كنا نستطيع نحن الثلاثة الاغنياء بما لنا من الجاه والنفوذ والمال ان ننقذه من هذه التهلكة فقد استعجلت ياموسيو منترفيو بتسفيره

— لم امهد لهُ سبيل الهرب سريعاً الا تخليصاً لهُ من ايدي الحكومة اجابةً لالحاحه

— سانطلق غداً بنفسي الى وزارة البحرية واستفهم عن هذا الامر واسعى في طي ما انتشر ان كان ثمت خطر اما انتِ ياماينا فلا يوافق ان تداومي التمثيل في الملعب مادام ابوكِ غائباً بل مقامكِ عندي على الرحب والسعة لان في باريس من الفسدة الاغرار من يراودكِ عن نفسكِ بلا حياء

فاندهش سنترمون ومنترفيو وارادا معارضة هذا الراي فنظر الاميركي اليهما

شزرًا وقال لا يمكنها ان تكون وحدها في بيتها آمنةً من الخطر ولا يمكنها ان تمكث عندك يامسيو منترفيو لانك رجل اعزب نثير عليك مظنة الناس ولا عندك يامسيو سنترمون لانك تستهدف للامة رصفائك النبلاء بادخال ممثلة الى بيتك اما انا فسيان عندي غضب الباريسيون عليَّ ام رضوا لاني اميركي لا يهمني قول الناس قاطبةً فضلًا عن ان مايتا تكون هنا بجانب خطيبها وهنا لا ارى بدًّا من التصريح دفعا للريبة بان فرنسيس ومايتا تعاهدا على الاقتران وقد اتفقت مع فرنسيس وزفيريو ان استخدمهما في حقولي الواسعة في اميركا وعليه فان مايتا باقامتها عندي تكون كانها في بيتها

فتهللت مايتا مستبشرة وصدقت على قول دربوكوف مبتهجة اما سنترمون ومنترفيو فاخذتهما الحيرة وسقطت عزائمهما كأن صاعقة انقضت عليهما فلبثا كالصنمين ولم ينبسا ببنت شفة

﴿ فصل رابع وخمسون ﴾

كشف الستار

لما عاد سنترمون الى بيته واخبر امرأته وابنةُ بما جرى تميزا كلاهما غيظًا فقال ارثور مستهزئًا لِمَ لا يأتي دربوكوف بجميع الممثلين والممثلات في الملعب وينزلهم في قصره على الرحب والسعة

ولم تتمالك ليونيدة حنقًا من تقديم دربوكوف الضيافة للفتاة مايتا التي كانت تحتقرها بصفة ممثلة ذليلة شأن سائر الممثلات اللائي يكنَّ غالبًا من بنات الهوى لظهورهن في الملاعب ليليًا امام الوف من الناس الذين يتاقونهن ويراودونهن ولذا كانت تستهجن وجود مثل هذه الفتاة ضيفًا عند خطيبة ابنها ولما اعلن هذا عن استعداده لمؤاخذة ليلي قالت ليونيدة وانا ساخاطب دربوكوف ايضًا بهذا الشان

اما سنترمون الذي اعتاد ان يعارضهما كلما استهجنا شيئًا من دربوكوف فقد استصوب هذا الاستهجان على انهُ كان ينصحهما بالصبر ريثما يتم عقد الزواج وحينئذٍ يستطيع اصلاح كل خلل وكان يطيب خاطرهما بتصريحه لهما بانهُ اودع في معاهدة الزواج جميع الشرائط اللائقة لخير ابنه وتعزيز مستقبله

فقالت ليوبدة لا اشك بان ليلي تستغرب ايضاً مثالنا هذا التنازل المفرط من ابيها حتى جعل قصره داراً للممثلين

فقال سنترمون لا تغتري يا عزيزتي فان ليلي لن تعارض اباها ولا تستهجن منهُ شيئاً فضلاً عن اني رأيتهُ متخذاً جانب الدفاع عن مايتا بجدة وانعطاف كما لو كانت نسيبة لهُ حتى ان منترفيو نفسهُ اندهل مندهشاً . فالاولى لنا ان لا نتظاهر بشيء من الامتعاض ولا نمس الاميركي ولا ابنتهُ بشيء . فاسمع لي يا ولدي وكن صبوراً ففي هذين اليومين توقع شرائط معاهدة الزواج وبعد اسبوع يتم العرس ثم تصنع ما يبدو لك

وفي اليوم التالي ادب سنترمون مأدبة اهلية لجميع انسبائه دعا اليها الاميركي وابنتهُ ولم يكن ارثور شاهد خطيبتهُ ذلك اليوم فلما دنا وقت الطعام ولم تحضر مع ابيها استشاط غيظاً واخذ يدمدم ويتذمر وعلق على هذا الابطاء تأويل شتى وحقيقة الحال ان ليلي ارادت ان لا تصل الا في ساعة المأدبة المضروبة حتى لا تدع مجالاً للانفراد بخطيبها كي يحادثها بشان ضيوفها وقبل ساعة العشاء بدقيقتين دخل دربوكوف وليلي ومسه كادا يسلمان على آل البيت والمدعوين حتى جلسوا على الخوان وقعدت ليلي بجانب خطيبها الا انها اجتهدت بان تلتهي بالحديث العمومي مع سائر المدعوين لئلا ينتهز فرصة قربها فيسر اليها شيئاً الا ان بعضهم قد سأل دربوكوف عن ضيوفه على سبيل المزاح فاجابهم [illegible] انه [illegible] يشتغل [illegible] لادارة اعمال حقوله الواسعة في اميركا مع زفيريو [illegible] جميعاً ثم قال لهم لعلكم تضحكون مني على اتيان هذه الضيافة لكن فاذا اكترثت الى احد فليقل الناس عني ما شاؤوا فلا اصنع الا ما يوافقني

وبعد المأدبة قام المدعوون الى الصاعة العمومية فاندمجت ليلي بينهم وجعلت تطرفهم بالاحاديث والنكات ولم تدع لليوبدة الى الاختلاء بها سبيلاً حتى ازف وقت الانصراف فودعتها بغاية السذاجة خلاف عادتها

فلما ذهب الجميع وبقي آل سنترمون وحدهم طفق ارثور يتأفف منكراً من ليلي صدها وجفاءها ففتح سنترمون فاه ليطيب خاطره واذا بالخادم داخلاً وفي يده ظرف

مختوم بخاتم اسرة من النبلاء فتأمله مستغرباً طبع ذلك الخاتم الذي لم يرَ مثله منذ عشرين عاما واشكلت عليه معرفتهُ فقالت ليونيدة فضةُ سريعاً لنرى ما القصد من ارساله عند منتصف الليل واذا فيهِ ما نصهُ :

« ان البارون هوبر ديمارت يرجو زوج عمته الكنت سنترمون ان يتكرم بالحضور في اليوم التالي عند الساعة ٢ بعد الظهر الى مركز المصرف الاميركي في جادة الاوبرا حيث يسره ان يطلعهُ على بعض اعلامات لا تخلو من افادة عظيمة لهُ »

قالت ليونيدة من فورها كأن بها جنة : لن تذهب البتة فانذهل سنترمون من دهشتها ورأته واضطرابها وقال لها بهدوء ولماذا لا اذهب ياعزيزتي

وانما قالت ليونيدة هذا مدفوعة من عاطفة داخلية لم تدرِ سببها لكنها شعرت او دلها قلبها ان في ذلك خطرًا مجهولاً فاخذت تقنع زوجها باسباب لا طائل تحتها ان صح ان عند هوبر بعض اشياء يسرها اليك فلماذا لم يأتِ هو بنفسه اليك وهو الاصغر ثم ألم يتفق معك باخفاء حالة القرابة التي بينكما فلماذا يعلنها الان فجأة على رؤوس الملإ ويجاهر بلقب الشرف الذي يحق لهُ ان يرثهُ من ابيه وكان الى اليوم قد ازدراه غير ملتفتٍ اليه

فاستغرب سنترمون من حليلته استياءها من هاته الدعوة واندهل من اضطرابها بلا علة فقال لها : كيف تمنعيني عن مواجهته وانتِ التي ادخلتهِ بيتي وغمرته بالمؤانسة والتجمل وسعيت في المصالحة التي لم أكن لافتكر بها قط . . والان غدا ما استدعاني ليعرب لي عن حبه ويطلعني على بعض امور تهمني تريدين ان لا اسمع لهُ . . . ان في ذا لما يخالف كل ذوق سليم فان كان يطلبني اليه فذاك لانهُ لم يستطع ان يبدي لي تلك الافادات الا في ادارة المصرف وساذهب لمواجهته لا محالة

فاكمدت ليونيدة وقالت اصنع ما بدا لك فلست امنعك على اني رأيت استدعاءه لك اليه اخلالاً بواجبات الادب واللياقة

وعند الصباح خرج سنترمون الى المدينة وكان يود مواجهة هوبر قبل الظهر لكنهُ لم يجده في المصرف وقد قيل لهُ ان المدير لم يرجع من سفره الا بالامس مساء وقد كتب لنائبه

انهُ لا يأتي الى المصرف الا الساعة الثانيــة بعد الظهر فعاد ســنترمون متحيرًا من هاته الدعوة الفجائية حالل ايابه من السفر وايقن انهنالك اسرًا

فلما كان الاجــل المضروب هرع سنترمون الى المصرف الاميركي فشدَّ ما كان اندهاشه لما صادف فيه صاحبهُ دربوكوف يحيط به ستةمن اكابر الاميركان من اعضاء مجلس ادارة المصرف ثم اقبل منترفيو بوجه شاحب ممتقع كوجه ميت فلما وقعت عينهُ على الجماعة وخصوصا سنترمون ودربوكوف ارتجف واراد الرجوع القهقرى فتقدم اليه سنترمون وقال لهُ أفانت هنا ايضاً

— نعم وقد وردتني رقعة دعوة باءمضاء هوبر ديغارت ولا اعلم لاي امر

— احسن عنده افادة مهمة ينوي ان يبلغها اليكم

فقال احد الاغنياء الاميركان : لايبعد ان يكون قد اتانا في ايابه من السفر بملايين من الارباح

وقال غني آخر : ولماذا اســتدعى دربوكوف وســنترمون ولاحق لهما بحضور جلسات مجلس الادارة

وفيما هم يتحادثون واذا بالخادم يدعوهم الى صاعة المجلس جميعًا فجلسوا فيها وحينئذ ازفت الساعه الثانيــة فدخل عليهم هوبر وامهُ منتقبين واقام في منصته واجلس والدتهُ على يمينه وجميعُ الاعين شاخصة اليها مبهوتة من حضورها وقد اكمدَّ وجها منترفيو وسنترمون وارتجف قلباهما خلافًا لدربوكوف الذي ابتهج طربًا وقام الى المرأة فصافحها متوددًا

ورفع هوبر طرفه الى السماء لحظةً كانهُ يستمدُّ من الملاء المعونة وقال لا تعجبوا ان رأيتم امي الان بجانبي فان الضرورة اوجبت حضورها في هذا اليوم يوم الانصاف والتعويض لكي تؤكد صدق ما انا قائل لكم

فقال منترفيو متحببا اليه : ان كلامك يا سيدي هوبر هو عندنا حجة فلا حاجة الى تأكيده : وقال احد الاميركان نظهر انموضوع الكلام اليوم لايتناول الاشياء المالية فشزره هوبر بعين الغضب شزرا حتى صمت واصغى الباقون

ثم قال هوبر انما دعوتكم ايها السادة لتسمعوا من فيّ اقرارًا بامر تجهلون لاني كنت كمخادع لكم منذ قدومي الى باريس ولكن بدون علم مني ولم يكن هذا الخداع بشاني انا نفسي بل بشان اسرتي اما تاريخي الخصوصي فانتم جميعا واقفون عليه وهو تاريخ كل فتى اديب يسعى وراء الرزق والثروة وقد عرفني السيد دربوكوف مشتغلًا في اميركا فهو يحقق لكم كلامي كشاهد عدل

فقاطعهُ دربوكوف قائلًا « ما ابدرك بان تكون اميركيًا » وكان ابو ليلي قد انشرح صدرًا من هذا الشرح واستشف من اول احاديث الفتى علة نفوره وفتور امه وابتعادها عن ابنته وتاكد ان السبب الذي حملهُ على هذا السلوك لم يكن ما اتهمه به من الصلف والكبرياء

فاجابهُ هوبر متلطفًا : اشكرك من صميم الفواد لاني احب اميركا والاميركان ولو كنت فرنسي المحتد وقد هجرت فرنسا وطني اثر مصيبة دهماء انا لو قصتها الان على محفلكم الموقر ففي اميركا نشأت وفيها تعلمت الاقدام على العمل فنلت جزائي شابًا وقد عضدني بعض الاصحاب فارتقيت الى ادارة المصرف في باريس

فلم يتمالك دربوكوف من هزة الطرب بل قاطعهُ ايضاً بقوله : لم تنل ذلك المنصب الا عن استحقاق ياولدي

فاندهل اعضاء المجلس من حب ابي ليلي لمديرهم اما سنترموس فكان يرتجف وقد ارتعدت من منترفيو الفرائص

فاستانف هوبر كلامه وقال : اما والدتي فلم تشاركني بالسرور بهذا الترقي لانها كانت عارفة بما كنت جاهلًا . ولما قدمنا فرنسا خطت لي خطة جديدة امرتني ان انتهجها مستندة الى بعض اسباب غير صحيحة اقناعًا لي باصابة رأيها فاضطررت طاعةً لها ان اسلك في ذلك السبيل الذي حمل الناس ان يسموني بسببه متوحشًا وقد كان علة لنفور اكثر من واحد من اعز اصحابي . ولم اخرج منهُ الا في اول هذا العام لان والدتي وجدتني حينئذٍ على اتم استعداد لمعرفة الحقيقة برمتها فافهمتني ان المصاب الذي الجأنا الى هجر فرنسا انما يلخص بكلمتين اي موت والدي بعد انكساره والحقيقة ان

الى البارون لوران ديمارت قد افلس وترك عليهِ من الديون نيفًا ومليونًا من الفرنكات وقبل حلول هذا المصاب أتهم بالاقدام على قتل احد انسبائه وبخطف ابنتين لزوج عمتي الكنت سنترمون الحـاضر هنا من امرأته الاولى

فقـال سنترمون بلهجة اخلاص : لا حاجة بك الى تبرئة دمة ابيك من هاتين الجريمتين فقد برأتهُ المحكمة من قبل

فاجاب هوبر بمرارة : نعم وانما برىء لعدم وجود ادلة كافيـة لاثبـات الجرم واراد ان يستأنف الكلام فقاطعهُ در بوكوف قائلاً لهُ باضطراب : ذكرت عن ابنتـين مخطوفتين فما هي قصتهما يا ترى فاجابه هوبر نعم وعما قليل اسردها لكم . ولم يكن ليأبه ما وراء صاحبه من اهميـه هاته المسألة فالتفت الى سائر الجماعة وقال : فمن حين عرفت هذه الحقيقة عوّلت على ابرام ما عزمت عليهِ الان لاني من حيث انا وارث لوالدي وجدنني غير اهل لاكون مديرًا لهذا المصرف

فصاح الاميركان الذين لم يجدوا لهذ العزم داعيًا : لم تأتِ انت اعمالاً غير حسنة حتى تتحمل تبعتها

— عفوًا يا سادتي فاني لا اريد ان اكون مضغة في افواه رصفائي الباريسيين الذين يعيرونني بمثل هذا الافلاس ولذا قررت ان ارفع الى الادارة الكبرى في نيويرك عريضة الاستقالة من ادارة هذه الشعبة في باريس ثم اعود الى اميركا حيث استـأنف الكد وراء ربح القدر اللازم من المال لابيض ذكر والدي المرحوم وهذا اول فروضي منذ الان وبعد قضائه سافتكر في ما لي

فنظر الامـيركان بعضهم الى بعض متعجبين من هاته الشهـامة ومقتنعين ان ذلك الامر لا يقتضي مثـل تلك التضحية حتى قال لهُ احدهم : من الظلم ان تستقرّ خطيئة الاب على الولد او تدنس شرفهُ فاجاب هوبر بسذاجة انا اعدل حكم بشان شرفي وارى منذ الان ان من المستحيـل ان ابقى مديرًا لشعبة مصرف في مدينة لا يزال اسمي فيهـا مديونًا اثر افلاس والدي بنيف ومليون فهذه المسألة الاولى قد انتهت واليكم ايها السادة المسألة الثانية

، فنهض دربوكوف وتكلم كذي سلطة قال: باذنك ياصاح لم تنفض المسألة الاولى تامًا فقد ذكرت الان انك تعتبر نفسك مديونًا عن ذمة والدك بنحو مليون من الفرنكات .

— نعم وقيمة الدين بالتدقيق هي ستون الف ليرة عدًا

— حسن جدًا ... ان مواطنيّ يستهجنون هذا الافراط في الشهامة ا!ا انا فافهمهُ جيدًا لاني ادرى منهم بالفرنسيس فهم لا يرون في المسألة الا دنانير او دراهم اكثر او اقل وذلك امرُ عادي اما انت ففي صدرك عواطف ارفع واشرف تتنازع لبك فاسلم معك ياصديقي الشاب واصدق على عملك هذا كل التصديق

ثم قام دربوكوف اليه وصافحهُ باليدين مصافحة الوالد للولد ونظر الى امه وقال : أهذا هو اذًا السبب المهم . الذي حملهُ على ... اظنكِ فهمتِ مرادي

فاجابت البارونة بتأدب : وهل كان يمكنني ان اسمع لهوبر وهو موقر بهذا الصب على مرأى من الجميع ان يسلك غير سبيل

الا ان دربوكوف قاطعها وقال بلهجة تجمل وحنو : ياهوبر لقد وجدت فيك دائمًا تمام الثقة واصفح عنك من كل قلبي عما ابديت من الفتور . الذي ... هذا كافٍ فقد تفاهمنا ... اما بشان الستين الف ليرة التي تحب شهامتك ان تكون بها مديونًا فهي ستؤدى عنك غدًا وسواء هجرت فرنسا ام بقيت فيها اريد ان يكون اسم ابيك طاهرًا خالصًا من كل شائبة

فاراد هوبر ان يعترض على الاميركي لكن عاطفة الشكر خنقت صوتهُ فقال له دربوكوف لا تعارضني بشيء ياصاح فلأن تكون لي مديونًا افضل عندك (على ظني) من ان تكون مديونًا لمجهولين قد يكونون لئامًا

— ولكن باي لسان اشكر فضلك

— ذلك اسهل كثيرًا مما تفتكر ...ولكن ما لنا وهذا الحديث اتضرَّع اليك ياهوبر ان تعجل بقصة الاثنتين المخطوفتين لان قلبي ذاب شوقًا الى استماعها

وقبل ان يستأنف الشاب كلامهُ التفت دربوكوف الى سنترمون: وسأله لماذا

ايها الكنت لم تخبرني بشيء من هذه القصة فارتبك سنترمون بالجواب ولم يدرِ ما يقول فاجاب عنهُ هوبر قال : ان الكنت يقـدرمثل والدي ان يؤيد لكم حقيقة الخبر لاني هاءنذا شارح حادثة هذه الجريمة المزدوجة التي دفنت ولا تزال مكنونة طي الخفـاء وقـد وصلت امس من نيس وتجولت في كان ومونته كرلو وسبيز وسائر الجهات التي جرت فيها تلك القباحة ليلة المساخر فحصلت على اعلامات جمة من الاميرة زامركو وقد قبضت على الخواجا جمس باركلاي (شقيق ليوندة) الذي لما افتكرتم باتهامه

ولما قال هذا حوّل بصره الى سنترمون ومنترفيو كأنهُ يخاطبهما فوجدهمـا قلقين متقصين كالاموات وقد جمدت اطرافهما ولم يستطيعا حراكاً فاستأنف الحديث قال اذا طالعتم ياسادتي الجرائد الصادرة في تلك الايام وجدتم ان الكنت سنـترمون كان يشتغل في ترع الثلاثة الملايين المحبوسة عند ابنتيه من يد والدي المودعة عنـده وبعد الجدال طو بلًا على غير طائل تخاصما خصاماً شديداً ادى الى النفور . . اما هذا صحيح يازوج عمتي

ــ صحيح وا اسفاه ــ او لست في الليلة نفسها التي تلت تلك الخـاصمة قد طُعنت بخنجر في بهرة محفل المساخر . . .

فسأل دربوكوف مزمجرًا كالاسد أما جرى ذلك في مدينة نيس

فاجـاب هوبر : نعم في نيس وهيا كانوا يطعنونك يازوج عمتي كانت ايـدٍ خفيه تشتغل في خطف ابنتيك اللتين انطفأ ذكرهما ولم يوقف لهما على اثر . . فاثرت هاته المصيبـة على زوجتك اخت ابي حتى ماتت بعد ايام يسيرة اما انت فلم تنتظر سنةً الا تزوجت بامرأتك المساة الان كنتة سنترمون وقد ورثت ثروة ابنتيك المخطوفتين

واوشك سنترمون ان يسقطَ مغمىً عليه الا انهُ تجـلد واظهر من الضعف قوة وقال لهوبر : يا نسيبي العزيز لا افهم غايتك من كل هـذا الحديث لكني ادجوك ان تدع زوجي وشأنها فلا ناقة لها في ذلك ولا جمل . . . ولقد دعوتنا بحجة ان تطلعنا على بعض امور تهمنا فهاتِ ما عندك فانا لك بالانتظار وحتى الان لم تقل لنـا شيئاً غير معروف لدينا جميعاً

— اعلم ياروج عمتي العزيز ان غايتي الاولى عندما اكتشفت الحقيقة انما هي ان اعاقب المجرم نفسه اظهاراً لبراءة ساحةوالدي صريحاً لاني ارى ان البراءة التي نالها من المحكمة ليست بكافية ولسوء الحظ ان هذا المجرم الاثيم قد افلت الان من يد الحكومة لمرور الزمان . ولقد عرفته وبودي ان احمله على الاقرار بجريمته الفظيعة امامك وان يقول لك ماذا جرى على ابنتيك بمعاونة شريكته في الاثم المرأة التي رجوتني الان ان احترمها في حين هي سبب شقائك ولا تزال تقودك الى هواها بزمام وانت على خفتك وطيشك تبرح منقاداً اليها ولذا اظنك بريئاً من كل هذا

ثم التفت هوبر الى منترفيو مغضباً وقال له مقطباً : ياعزيزي انك صديقنا كلينا فلا نظنك تبخل علينا بالمعاونة لنهتدي الى المجرم الاثيم

وكان القلق قد اخذ من منترفيو كل مأخذ حتى التصق لسانهُ بحنكه على انه اراد التملص فجمع كل قواه وقال بصوت مرتجف اسيف : لا اقدر ان اساعدكما بشيء لان هذه القصة كلها جرت في حين لم اكن اعرف الكنت سنتروون . . والان ارجوكم ياسادتي ان تعذروني لان لي مهام كثيرة يجب ان اقضيها هذا النهار وكنت اظن ان هذا الاجتماع لمسألة مالية او ادارية وبما ان المباحث المتداول فيها الان لا تتناول شيئاً مما يهمني فاني استأذن بالانصراف . . .

ثم قام واتجه نحو الباب وكاد يفتحهُ واذا دربوكوف قام في وجهه كالصخر وامسكهُ بكتفه وقال له اجلس فانتهره منترفيو واسرَّ في اذنه ان اصمت والا فضحتك امام الجماعة

فقهقه دربوكوف وقال لرفقائه اسمعتم ما قال فهو يتهددني بان يفضحني ويخبركم باصلي وفصلي لانهُ لما رآني كشفت جريمتهُ الفظيعة توهم انهُ يخيفني بتهديداته ويصدني عن الكلام ولكن ساء ما يتوهم فانا لا اخجل من اني كنت فقيراً ثم رقيت معاريج الثروة أفلسنا كلنا هكذا معاشر الاميركان أثرينا بكد ايدينا . فقبل ان اكون ذا ماشية عظيمة واصبح ذا ملايين كثيرة كنت نوتياً حقيراً واسمي غريك بوك . أهذا الذي تتهددني بافشائه ياشقي فهاءنذا قلتهُ علناً ولا استحي وازيد عليه باني كنت خادماً في

يخت لك كان راسياً في مرفإ نيس في ليلة المساخر من ليالي المرافع منذ ٢٢ سنة..

وكان منترفيو عند كل عبارة ينطق بها خادمهُ القديم ينتفض مرتعداً ويتمنى لو تنشق الارض وتبتلعهُ وقد اقترب منهُ هوبر وسنترمون مندهشين اما دربوكوف فاستأنف الحكاية قال: وفي تلك الليلة اقلعنا من ثغر نيس فجأةً حاملين ابنتين كان قد خطفهما هذ الوحش الضاري.. وهما ابنتاك يا سنترمون

فاستشاط سنترمون غضباً وصرخ صرخة هائلة وقد هاج ذلك في صدره ذكرى ابنتيه ومهما القديسة الا ان دربوكوف اتم الحديث قال: فهل عندك بعد ذلك ريب ايها الكنت العزيز بان هاتين المخطوفتين هما ابنتاك.. وكان اسماهما ليلي وجوميه واسمهما اليوم ليلي دربوكوف ومايينا كفتستينا . واعلم ان زفريو كان نوتياً مثلي عند منترفيو وقد حمل نظيري احدى الابنتين... وفي فرصة اخرى اخبرك سائر القصة بالتفصيل

فغلب الحنان على الغضب عند اكتشاف الحقيقة وبعد ان كان ابرق وارعد سكبت عيناه العبرات الغزيرة مدراراً وبسط يديه يشكر الاميركي الذي قال لهُ: لا تشكرني لاني اطلعتك على الحقيقة بل لاني انقذتك من عارٍ يسمك بسمة الذل والاحتقار مدى الادهار فان ما نواه لك هذا الخبيث من الشر لاعظم من ان يذكر ولم يسمع بمثله في ما غبر بل لم يخطر على قلب بشر

ولم يتمالك الاميركي صبراً بل لكم منترفيو بجمع كفه وهو صامت غائب الرشد كأن بهِ مساً وقال لهُ: تبت يداك ايها الغمر اللعين اي وحش يصنع ما كنت صانعاً مع معرفتك ان ارثور وايسلي اخوان كيف رضيت بل روَّجت هذا الاقتران ولم يكفك هذا الفحش حتى ابرمت حيلة شيطانية لتوقع المسكينة مايينا في شرك هوى...

ووقف عند هذا الحد ضناً بشرف سنترمون الذي نظر اليهِ نظرة متضرع كي لا يفضحهُ فالتفت الى منترفيو وقال لهُ مهدداً ولقد ظننت يا شقي انك تنجو من عقاب الحكومة بسبب مضي الزمان ولكن لم تفتكر ان عليك دعوى جديدة لن تنجو منها باذن الله فان سعيك في اهلاك فرنسيس قد ظهر ظهور الشمس في رائعة النهار

وستنال جزاء ما جنت يداك

فتجلد منترفيو تجلد الاثيم المكابر وانتهرهم مزبداً : دعوني دعوني اذهب فلست بفاهم شيئاً من كل ما تقولون واظن انكم كلكم مجانين

فوقف دربوكوف في وجهه الا ان سنترمون اراد اطلاق سبيله وقد قصد في ذلك ان ينتقم منهُ بيده بمبارزته ما دامت الحكومة لا تستطيع معهُ شيئاً فقال لدربوكوف ان المسيو منترفيو صار يخصي هدعهُ يذهب

فظن منترفيو ان سنترمون لم يفعل ذلك الا ستراً لجريمته الاولى باقتراع ليونيدة قبل خطف ابنتيه وحرصاً على صداقته لقاء ما بذلهُ في سبيله من الخدم وتوهم ان صاحبهُ يريد تخليصه ليخرج من فرنسا ويدرأعنهُ ذلك العار فتقوى قليلاً فقال للجماعة : « اقسم لكم ياسادتي ان هذا افتراء وبهتان وكلهُ جنون وطغيان » ثم انسل من الباب وتزل بالسلم مهرولاً فلما بلغ الى باب الشارع وقف قليلاً لان نفسهُ كاد ينقطع

اما سنترمون فقال لهوبر : ارجوك بصفة كونك مدير هذا المصرف ان تنقل من حسابي الى حساب منترفيو مئة وثلثين الف فرنك كان قد اقرضني اياها وها انا لاحق به

ـــ وماذا انت صانع ياترى ـــ مثلك ياعزيزي لا اصنع الا الواجب عليَّ والان من كان منكم ياسادتي محباً لي فليرافقني

قال هذا واخذ بيده عصاً وخرج والشرر يتطاير من عينيه حتى اذا وصل الى الشارع وجد منترفيو يترقب قدوم عجلته ليركبها فاستوقفهُ وقال لهُ : بالحقيقة انك نذل جبان فلمَ تهرب منذ الان

وكان بعض عابري الطريق قد اجتمعوا حولهما ليروا نتيجة الخصام حسب عادة الفضوليين في كل بلد فاستاء منترفيو وقال له « لقد اهنتني بهذا الكلام فارجوك ان تكف عن الملام » ثم اوقف عجلة ودنا ليصعد اليها فعارضهُ سنترمون وضرب بقضيبه وجهه تحريشاً لهُ للبراز فاستشاط منترفيو غضباً واخذ العصا وكسرها عدة قطع ورماها في وجهه وقال لهُ : غداً الملتقى

فتبسم سنترمون قليلًا واجابهُ : ولماذا غداً خذ اثنين من اصحابك هؤلاء اعضاء مجلس ادارة المصرف فيكونا لك شاهدين وانا استشهد المسيو دربوكوف ونسيبي هوبر وموعد المبارزة بيننا بعد ساعة في قصري ولا ارى وسيلة غير هذه للتخلص من الفضيحة التي رماك بها دربوكوف الان

فتردد منترفيو هنيهة ثم قال : على شرط ان اكون بعد البراز حرًّا . . .

— ان تذهب اينما شئت . . كلام شرف

— اذًا لا حاجة الى انتظار ساعة فلماذا لا يمضى الامر في الحال

— في الحال في الحال . : واظنك تؤثر المسايفة

— بلى فالسيف اولى

وقد سر منترفيو من حل المشكل على هذا المنوال رغمًا عن ايقانه بانهُ مغلوب لا محالة لان الحقيقة بظهورها على رؤوس الاشهاد قد اعدمتهُ كل وسيلة للنجاة وسلمتهُ الى ايدي اعدائه الذين وجدهم اقدر منهُ على الانتقام بالطرق عينها التي كان يفكر بان ينتقم بها منهم وقد تصوَّر ان البراز سيكفر عن ذنوبه سواء مات او بقي حيًا وبه تزول جميع الضمانات . ولذا عوَّل على الاسراع ورجا اثنين من رصفائه ان يصحباه فاعتذر احدهما بان لديه شغلًا يقتضي انطلاقه بعد ساعة فقال له سنترمون متلطفًا : باقل من ساعة يتم البراز ويقضى الامر فتذهب بسلام

فانطلق المتبارزان والشهود كأنهما ماضيان الى نزهة فلما اجتمعوا في ساحة السلاح قام سنترمون وبسط خلاصة النزاع قال : ايها السادة لقد سمعتم الشكاوى الصادقة الثابتة التي اعلنها اليوم امامكم صديقي دربوكوف ونسيبي هوبر ضد صديقي السابق منترفيو . ولما كانت قوانين البلاد تحول دون مجازاة منترفيو على هاته الجرائم لمرور الزمان رأيت ان اتولى بنفسي معاقبته وهذا ما انا صانع الان بحول الله لانني قبل ان اواجه امتي بعد ذلك الغياب الطويل اريد ان اكفر عن خفي وطيشي ايام الصبا بالانتقام لها من عدوها الالد . اما انتم فلكم ان تختاروا ما تشاؤون من الحجج لتقدموها للمحكومة بعد البراز لكن ارجوكم قبل كل شيء ان يبقى اسم ليوبيدة مكتومًا

ولا يؤتى بذكرها ابتة

ثم اتجه سنترمون الى المسلحة وكان قد عُلق فيها عشرون سيفاً وقال لمنترفيو : دونك السيوف كلها فاختر منها ما تشاء واظن ان هذا الحسام افضلها وقد اسعدك الحظ بالغلبة ايام سايفت به مراراً

فلما تناول منترفيو الحسام الذي عوّده النصر في عدة مبارزات اخذ سنترمون سيفاً لم يتخيره وطفقا يتسايفان وكان سنترمون يغامره مخاطراً قصد ارداته سريعاً فدافع منترفيو احسن دفاع على انهُ كان يقول في نفسه « لماذا اقاوم الموت وهو اشرف لي واستر وماذا تفيدني الحياة ولم يبقَ لي مطمع بلذاتها وقد كنت معللاً املي بالانتقام فخاب كل رجاء فالموت اولى ولكن اموت انا ويعيش عدوي حاشى بل يجب ان يموت معي وهذا غاية ما اتمنى » فلذا استقتل صاحبنا واقتدى بمغامرة سنترمون وهجم عليه كالاسد وكاد يقتلهُ لو لم يصدم بالترس ضربتهُ وقد فهم غايتهُ فانقلب يتأنى في المسايفة متجنباً كل خطر لانهُ كان يحب ان يعيش ايضاً لمعانقة ابنتيه مصلحاً سيرته المشككة بسيرةٍ صالحة

وطالت المجاولة نحو عشرين دقيقة وقد كلاً ولم يجرح احد لانهما كليهما كانا بارعين بلعب السيف والترس اما منترفيو الذي ضاقت في وجهه الحياة فقد حمل على عدوه حملة شديدة اوشك ان يرديه بها الا ان سنترمون تلافى الضربةَ برشاقة غريبة واغمد السيف في صدر منترفيو فسقط على الحضيض يخبط بدمه وصرخ « قتلتني فأتني بصليب »

فهرع سنترمون مرتجفاً ودخل غرفة امرأته فاخذ من سريرها صليباً من العاج على عود مغشى بالمخمل وجاء به الى الجريح الذي اراد اصحابه ان يضمدوا جرحه فأبى قائلاً قد نفذ السهم فليس امامي الا الموت فهو وحده يرحض ذنوبي ثم تناول الصليب وقبلهُ شاكراً جميل عدوه الذي مهد لهُ سبيل الندامة عند الرحيل وقال لهُ سامحني ياصاح فقد خطئت اليك والبنتان هما ابنتاك حقاً اسأل شريكتي ليونيدة . . . خطيئتي عظيمة فارحمني يارب

ولم يتم العبارة الاخيرة حتى لفظ روحه فصعد سنترمون الى البيت مضطرباً فصادف امرأته نازلة في السلم فسألت له بغضب : أالملك جنت . . . فقد سمعت انك تتسايف في بيتك واليوم موعد توقيع الصك بشان زواج ولدك

— لا حاجة بعد الى هذا الصك ولا رجاء بعقد زواج ولدكِ مع ليلي دربوكوف

— ولماذا ياترى

— لاني قتلت منترفيو الذي باح لي قبل موته بالحقيقة التي لا اشك انكِ كنت لها جاهلة وخلاصتها ان الآنسة ليلي دربوكوف هي ابنتي

— يالله ماذا السرّ . تباً له . . . لا رحمة عليه فهذا منتهى انتقامه

وقد بدت على وجهها دلائل الفرح كأن موت منترفيو قد خلصها من هم عظيم فحقق زوجها من هيئتها وعبارتها انها كانت شريكة للمجرم بالاثم ولعلها كانت هي الساعية فيه اولاً فقال لها : قد عرفت الان كل شيء أدهبي من وجهي فلم يبقَ لكِ هنا مقام

فجمد الدم بعروقها وكادت تقع مغشيّ عليها فاحتملها من خصرها والقاها على سريرها واراد ستدعاء الخدم لمعالجتها فانتصبت وقالت له : ادجوك ياسيدي لا يأتِ احد ولا يكن لديَّ سواك انت الذي احبتهُ نفسي منذ الصبا . . . فاصغِ لي قليلاً

— لا اريد أنْ اسمع شيئاً اذ كل تفسير لا يأتي بجدوى . ولا تخافي بأساً فان اسمكِ يبقى مكتوماً وقد رجوت اصحابي ان لا يأتوا بذكرك البتة وادع ضميرك وحده يعاقبكِ على ما جنت يداك

— ياعزيزي الحبيب انت لم تفهم مرامي . . . فقلما يهمني الناس كلهم سواء عرفوا الحقيقة او جهلوها فاني اياك اريد ولا ارغب سواك . اياك احببت فوق كل شيء حتى صرت لاجلك مجرمة اثيمة

ثم جثت على ركبتيه تمانعه . باكية وتقول : احلف لك باغلظ الايمان باني لم ارد ان يصنع بهاتين الابنتين ادنى ضرر . . . ومع ذلك اما كان يحق لي ان انتقم . . . اوَ لم تخدعني وتذلني في بيت ابي

— اوّاه تعساً لي فقد كنت غرّاً جاهلاًسفيهاً في شبابي واسأت اليكِ فلاجل هذا لا يمكنني الا اعفو عنكِ ولكن من يبرّد لوعة اسفي على امرأتي الاولى التي كانت كملاك ارضي وقد سببت لها بسوء سلوكي الكآبة والموت .. تبـاً لك يا منترفيو يا لئيم ياشرس يا غدار لقد ذهبت غير مسـأسوف عليك انتقاماً لحمامتين خطفتهما من حضن والديهما ولم ترحم دموعهمـا وعرضتهما للمخاطر والتهالك . وكان الحق باليونيدة ان تقتلي معهُ ايضـاً ولكن يشفع بكِ ذنبي اليـكِ فاتركك وشأنكِ فتكفرين عن نفسكِ ؛ تشائين فاذهبي ولا تريني وجهكِ بعد

— سيدي أهذا جزاء حبي لك بعد ثلاث وعشرين سنة

— لا استطيع ان احب امرأة قاسيـة اثيمة

فشمخت ليويدة بانفها بعد ان ذلت وقالت لهُ : ألعلك انت بريء طاهر الكفين معصوم من الخطإ حتى تقرّعني الان وتدينني

فقال لهـا اني اقرّ باني كنت شارداً قبيح السيرة راكبـاً للمنكرات التي لا يخلو منها الضعف البشري ولكن اقسم لكِ اني لم اؤذِ احداً عمداً ولم افعل مع احد شراً عن معرفة كما فعلتِ مع رفيقتـكِ التعيس فقد حرمتني فلذتي كبـدي وسببت موت حومي حتى اخذتِ مقامها وقضيتِ معي كل هذا العمر طاوية سركِ وساترة جرمكِ فكيف ساغت لكِ الحياة وانا منغص وكيف طاب لك العيش رغيداً بامان وابنتاي تسامان في الغربة الذل والهوان هل سمع مثل هذا العمل من الوحوش الضارية

— اقسم لك برأس ولدي واعز شيء لديّ اني من حين خطفهما لم اعرف مقرهما ولقد طالما سألت ذلك الخبيث عنهما فكان يعدني بارجاعهما على شرط .. اوّاه كان الملعون يراودني عن نفسي ... فرفضتـهُ حانبـاً لاني لم احب سواك وآثرت مرارة العيش وغصـة هاتين الابنتين حرصاً على شرفك اه لو وجدتهما لكنت اعتبرتهما كابنتي ألم ترَ كيف اعطف قلبي الى ليلي دون ان اعرفها وكيف احببتها مثل ولدي

— عبثاً تحاولين اقناعي فليس الوقت الان وقت جدال ... وها انا ذاهب لان رجال الدرك اتوا يستقصون عن جثة القتيل

فتركتهُ يذهب ولم ترد ان تسترجعهُ بعد لانها رأت تصميمهُ على هجرها وتمكن النفرة في قلبه منها فارتمت على المقعد خابطة في فيافي الهواجس وقد خارت قواها ووهت عزائمها وقالت تبا للدهر الخؤون قد اطمعني بافراحه ثم جرَّعني كؤوس اتراحه وها قد تركني الجميع وصرت ضحكة عنـد كل الناس ومضغة في افواه المنددين ولم يبقَ من اليعد لي سوى ارثور ولدي فهو نصيري وسندي

وانها لفي هذه الحال واذا بوقع اقدام في الدهليز فنهضت لترى وما كادت تصل الى البـاب حتى انفتح ودخل ارثور مبرقاً مرعداً مرغياً مزبداً شاتماً معربداً وقال : ما اتعس حظي وما اسوأ بختي فتلك تكون الامهـات والا فلا وهكذا تكون الاولاد والا فلا . .

فاخذت امهُ تلاطفـهُ وتجاملهُ وهو ينفر شامخاً ويلعن الساعة التي ولد فيها من ابوين جرَّعاه في نضارة الشباب مرارة الذل والهوان وهو يقول هل سمع حي الدنيا تعس مثلي لقد البستماني من الفضيحة شعاراً وكسوتموني من العـار اطماراً واطلقتم عليَّ السنة الخلق سخرية واحتقاراً

قال هـذا والكلام يخرج كالصواعق من بين فكيه وانطلق والشرر يتطـاير من عينيه فسقطت ليونيدة على الحضيض وقد فارقتها القوة وكادت روحهـا تبلغ الترقوة واظلمت الدنيا في عينيهـا فلم تبصر الا قتاماً حالكاً ثم اصابهـا صداع شديد و.لت بها الدواء فايقنت انها لا محالة هالكة فذكرت جريتها وتصورت عاقبتها فندمت على ما فرط منها ورعت الاستعداد لآخرتها وطفقت تستغفر ربها وهي غير موقنة باستجابة طلبها ثم استغاثت بالفـادي والتفتت الى سريرها لتستعين بصليبها فلم تره لانها لم تنظر روجها لما أخذه فظنت ان ابليس قدحرمها من هذه التعزية الاخـيرة فتجلدت وبكت وصلت ثم اضطجعت على السرير وفيما هي تسترحم وتستغيث فاضت روحها

﴿ فصل خامس وخمسون ﴾

كل يجزى بعمله

لما خرج دربوكوف من قصره وعد ليلي انهُ يعود اليها بعد ساعة ليطلعها على سبب دعوة البارون هوبر وفي اثناء غيابه كانت الفتاة تضرب اخماساً لاسداس ولما انقضت الساعة و يرجع والدها اضطربت وجعلت تتنقل من غرفة الى غرفة ومن نافذة الى شرفة لعلها تبصره قادماً ولكن خابت امالها وكانت كمن يتقلى على الجمر وتحسب الدقيقة اطول من شهر حتى اذا عيل منها الصبر عادت الى غرفة والدها وطفقت تردد قراءة البطاقة التي ارسلها هوبر لابيها وهذا فحواها :

« ان البارون هوبر ديبارت يرجو صديقه القديم المسيو دربوكوف ان يتكرم بالمجيء اليوم عند الساعة الثانية الى مركز المصرف الاميركي وهو يؤمل ان المسيو دربوكوف لا يأبى الحضور في وقت نادر المثال ولعلهُ اهم اوقات عمره »

وكان دربوكوف لما قرأ هذه البطاقة لاول وهلة قد اندهل متعجباً فقالت لهُ ليلي : ما وراء هذا الكتاب ياترى

— لا علم لي يابنيـة . فهذه احدى غرائب هوبر التي حيرتنا في امره منذ وطيء ارض فرنسا

— انظر يا ابي كيف يدعوك صديقه القديم

— ويرجوني ان اتكرم بالحضور لعلهُ يسألني خدمة حبذا لو امكنني ان اخدمهُ لاني احب هذا الشاب من صميم الفؤاد قال هذا وانطلق الى المصرف ولبثت الفتاة تتقلب على نار الانتظار وهي تتأمل تلك الكتابة وتقول : ما لعلهُ يطلب من والدي . كيف صار على البديهة بارونا . ماذا صنع في سفرته السرية . . ألعل لديه اسباباً صوابية حملتهُ على انتهاج خطة الفتور نحونا . . . وهل هذه الاسباب قد زالت الان فجأة . ولا شك ان ابي يقضي لهُ كل خدمة يطلبها

وما زالت على هذه الحال من القلق حتى سمعت دوي عجلة فهرعت الى الباب

الخـــارجي واستقبلت والدها من العجلة مرتمياً وعلى وجهه صفرة فاقعـــة فذعرت وسألته « ما وراءك » فتبسم وقال لا شيء الا الخير لكِ ـ اعني ـ دعيني الان اخبركِ

ـــ وهل ليس من شرٍّ لهوبر ان شاء الله

ـــ كلا لا شرَّ له البتة بل كل خير وعما قريب يكون هنا وقد ذهب ليـــأتي بوالدته فافرحي يابنيتي

ثم صعد مع فتاته ولما وصل الى الغرفة ارتمى على المقعـــد لاهثاً كمن خارت قواه فقلقت ليلي وقالت له مالك ياابت هـــل انت مريض

ـــ كلا بل . . . دعيني اجمع افكاري قليلاً فها انا اخبركِ كل شيء تفصيلاً . . بالحقيقـــة ان هوبر رجل كريم الاصل على جانب من الشهامة والنبل

ـــ هذا شيء معلوم لديَّ ولم اشك فيه البتة . فماذا جرى له ياترى

ـــ اليوم علمت السبب الذي حمله على اجتنـــابنا كل هاته المدة وهو ليس بذنب قط فان والدته نهجت له هاته الخطـــة من حين قدومهما الى باريس لان والده توفي مفلساً عن ستين الف ليرة فكان يخجل ان يظهر بهذا المظهر امام الالفة الباريسية

ـــ لكن هذا مبلغ يسير يا ابتِ

ـــ نعم وغداً ادفعهُ عنهُ . ولكن ما عدا الافلاس كان ابوه قد اتهم بمحاولتـــهِ ارتكاب جريمة القتل وخطف ابنتين

ـــ هل هذا ممكن . . لاشك انهُ قد تبرر

ـــ نعم برئتهُ الحكمة ولكن استندت تزكيتهُ الى عدم وجود ادلة كافيـــة تثبت هذا الجرم عليه فلم يكتفِ ابنهُ بهذا التبرير الناقص بل سعى بان يزكي تزكيـــة تامة باظهار المجرم ـــ ولعلهُ نجح في مسعاه وادرك مُتمناه

ـــ اجل وقد تبـــين ان المجرم الحقيقي انما كان الشفاليه منترفيو الذي سايقهُ الكنت سنـــترمون من برهة فقتلهُ ورحض بدمه جريمتهُ

ـــ واي مدخل لسنـــترمون في هذا الامر

ـــ ستفهمين ذلك عمـــا قليل عندما تسمعين القصة كلها وانهما لفي هذا الخطاب

واذا الباب يقرع وقد دخل هوبر ووالدته

وقبل وصول الضيفين الى غرفتهما قالت ليلي وقد اكمدّ لونها ما مدخل سنترمون في هذه المسألة حتى بارز منترفيو

— لان سنترمون هو ابو الابنتين — واي ابنتين ياترى

— اه يابنية . آه ياعزيزتي ليلي ثم ضمها الى صدره وهو يتنهد الصعداء لفراق تلك الحمامة التي عما قريب تعرف الحقيقة فلا يبقى له حق بمعانقتها اما هي فاستهجنت اضطرابه الذي لم تعهده فيه من قبل فسألته :

— بالله عليك يا ابتِ قل لي مالك — اني متأثر كما لا يخفاك من هذا البراز الفجائي الذي كاد ينجلي عن موت المتسايفين معاً وذلك في قصر سنترمون عينه

— لكن لا اظن ان موت منترفيو يزعجك الى هذا الحد فلقد اشغلت بالي ايضاً لكن هنالك شيئاً كتمته عني

— نعم لديّ شيء اخر ستطلعين عليه قريباً

وما اتم هذه العبارة حتى انحلت عزائمه واشعر بنفسه ان لا شجاعة له لاطلاعها على الحقيقة وحينئذٍ دخل عليهما هوبر وامهُ وجلين مع انهما لم يسرعا بالمجيء الا اجابة لطلب دربوكوف الذي رحب بهما ترحيباً اما ليلي التي كادت تذوب فرحاً بهذا الملتقى فقد توقفت قليلاً ثم اندفعت نحو هوبر كأن مغنطيساً جذبها اليه بالرغم عنها ونادته : هوبر

وكان الشاب قد وجم عند دخوله فلما رأى اقبال الفتاة تشجع وقال لها « عزيزتي ليلي » ثم تعانقا متباكيين وكان دربوكوف ينظر اليهما ضاحكاً باكياً

الا ان الفتاة انسحبت للحال من ذراعي هوبر وصرخت مرتاعة : يالله ماذا صنعت . هوبر لا يمكنني . لا استطيع . لقد فات الوقت . اوّاه لماذا اخلفت ثقتك بي . لمَ لم تبح لي بكل شيء . واحسرتاه لقد نال سواك ما كان لك وحدك . نعم انه لم ينل حبي حاشى وحياتك ولكن نال مني الوعد بان اكون له عروساً وهو يكون لي بعلاً رغماً عن محبتي لك ولهذا لا حقّ لي الان على اخلاف الوعد

فقاطعها ابوها بقوله : ولكن ادثور بن سنترمون لا يستطيع ان يكون لك زوجاً

فتهللت طرباً وسألته : اصحيح ما تقول ولماذا يا ابتِ

لانهُ . . . اسألي هوبر .

فقال لها هوبر « هذا صحيح » ثم تراجع القهقرى وهو وجل من اعلان تلك الحقيقة التي من شأنها ان تقطع العلاقة البنوية بينها وبين والدها الا ان ام هوبر اقبلت حينئذٍ لاعانتهما واخراجهما من هذه الحال الحرجة فقالت للفتاة : لقد صدقا فيما قالا لكِ ان ارثور لا يمكن ان يكون لكِ زوجاً لظهور بعض اسباب كانت مجهولة وهي تحول دون الاقتران بينكما وهو او بالحري ابوه سنترمون سيطلعكِ على الحقيقة صريحاً

وفيما كانت تقول هذا اقبل ارثور ساخطاً ولم يسلم على احد بل سار تواً الى خطيبته وقال لها « جئتكِ الان لاحلكِ من وثاق ارتباطكِ معي بوعد الزواج فانتِ حرة لان الطبيعة قد اطلقتكِ فافعلي ما بدا لكِ » ثم انقلب راجعاً ووجههُ يقطر دماً واذا بخادمٍ من بيت ابيه يدعوه حالاً منذراً اياه بوفاة والدته ليونيدة فهرول وراءه وهو يدمدم قائلاً : ماتت بدون ان تكتب وصية فانا الوارث وحدي

فلما ذهب ارثور قالت : ام هوبر لقد اماتها الرب جزاء اعمالها

فنفرت ليلي من هذا الكلام وقالت : لماذا تشمتين بها وقد كانت على جانب من كمال الاوصاف وكانت رحمها الله تحبني كابنة لها

— انتِ الانَ تقولينَ هكذا ولكن عما قليل تعرفين ان هذه المرأة قد اساءت اليك اساءة عظيمة

وفيما الفتاة مندهشة مما تسمع واذا بكتاب ورد الى دربوكوف ففضهُ وقرأ فيه ما يلي :

«عزيزي دربوكوف

«انعي اليك بالاسف امرأتي ليونيدة التي قضت الان نحبها اثر انقطاع شريان في قلبها بعد طلاعها على ما كان من الحوادث الاخيرة فارجوكم الان غاية الرجاء ان تكتموا كل ما سمعتم هذا النهار وتأتوا مع ليلي ومارينا لشهود المأتم وبعد ذلك يتم اعلان الحقيقة»

فازدادت ليونيدة حيرة وانذهالاً وجعلت تقلب بصرها بين ابيها وهوبر وامه وهم شاخصون فيها صامتون فارتاعت مذعورة وانطرحت على صدر ابيها وقالت متوجعة: لا افارقك يا ابت ما دمت حياً

— لا تخافي يابنية فلن افارقكِ ما لم يأبَ هوبر لان به مناط امرك فاسأليه

فمدت يدها الى الشاب وقالت له: لعمرك ياهوبر اشفق عليَّ وقل كلمة تبرد لوعتي فما هي تلك الحقيقة التي يشير اليها سنترمون باني ساطلع عليها واي مدخل للانسة ماينا معي فيها

— لا استطيع ان اشرح لك الان كل شيء بل حسبي ان اقول لك ان المرأة المتوفاة اساءت اليكِ اساءة كبيرة كما اساءت الى ماينا

— اساءت اليَّ والى ماينا . . . فاية علاقة تجمعنا

— صدقي قولي . . لكني لا استطيع ان اشرح لكِ الخبر بل ادعهُ للكنت سنترمون الذي هو زوج عمتي اما الان فيكفي ان تعرفي ان نصيب الانسة ماينا في هذا الامر كان نظير نصيبك وهذا مما يقربك اليها كانكما شقيقتان

— شقيقتان يالله ماذا تقول كأننا شقيقتان

ثم امرت احد الخدم باستدعاء ماينا فلما حضرت وشهدت هذا الاجتماع وجلت وتراجعت القهقرى الا ان ليلي جذبتها بيدها اليها وقالت لها: لقد أكدوا لي ان امرأة توفيت من هنيهة قد اساءت اليَّ واليكِ اساءة عظيمة وان نصيبنا فيها يضاهي نصيب شقيقتين . أفهمتِ . اخبريني هل كانت لك اخت فقاطعها دربوكوف بقوله لا حاجة الى هذا البحث ما دام سنترمون مستعداً ان يطلعك على الحقيقة عما قريب

فاجابت ليلي: ارجوك يا ابت ان لا تعارضني فاني لا اسألك شيئاً بل اسأل ماينا فقولي لي ياعزيزتي هل كانت لك اخت لماذا لا تجاوبيني

ففركت ماينا جبينها كانها تسترد الى ذهنها خيال فكر قديم العهد وقالت: نعم نعم فان ابي كان يخبرني ان لي شقيقة كنت مشغوفة بحبها . . وقد ماتت ولا اذكر كيف ماتت . لكنها ماتت

— الا تذكرين اسمها

— نعم اذكره لانهُ ، يبـارح فكري البتة واسمها ليلي

— هل كانت تشبهني

فحملقت مانيا وحدقت ومدت ذراعيها بديهاً وقالت انتِ . . ليلي . فمتحت لها ليلي صدرها وتعانقت الشقيقتـان و بكتا بكاء الفرح طويلاً

وارادت ليلي ان تسأل ايضاً اباها وهوبر وامهُ بعض اسئلة فقاطعها هوبر وقال للفتاتين : يا انكما التقيتما الان فاول فرض عليكما قبل كل عمـل ان تذهبا الى بيت الكنت سنترمون وانا ارافقكما وهو يسألكما ان تصليا لاجل قرينته ولتعرب لهُ على مرأى الملإِ بركوعنا مصلين امام جثتهـا ان كل ضغينة قد زالت من القلوب

فاندهشت مانيـا من ذكر الكنت والصلاة لامرأته ولم تدرِ ما عسى ان يكون مدخلها في هذا الامر فقالت لها ليلي بلهجة اسيفـة : يظهر ياعزيزتي ان في الامر سرّاً عظيماً منوطاً بنـا لكن يبين ان هذا السر لا يبوح به الا الكنت سنترمون وان قرينتهُ المتوفاة التي كنت مغرمة بحبها قد اساءت الينا اساءة عظيمة فما علينا الا ان نخضع لامر هوبر فلنسر معـهُ وانت يا ابتِ هلم معنا ايضاً

فاجاب دربوكوف بلهجة مكتئب لا اذهب معكما بل اجعلكما تحت حراسة هوبر واظن ان الفطنة تقتضي هذا الابتعاد وان سنـترمون يكون اكثر حرية اذ يعلن لكما الحقيقة المطلوبة

وفيما كان دربوكوف يتكلم وهو حزين خامع صدره تمنّى لو تممه لكان اسعد حظاً فقد فكر هنيهة ان يختطف الفتاة ويعود بها الى اميركا حيث يتوارى عن الابصار قبل ان تعرف انهُ ليس اباها لكنهُ لفرط حبه لها لم يشأ ان يحرمهـا من لذة الاطلاع على اصلها النبيل وطيب عنصرها

فانطلقت الفتاتان مع هوبر وكانتـا كاسفتي البـال ولم تكلماه الا لازم الكلام اما هو فكان شاخص البصر والاسف ملء فؤاده تاينا التي اخنى عليها الدهر وحرمهـا عيشة الرغد مضطرّاً اياها في كسب خبزها بعرق جبينها كاحدى الفقيرات من بنـات الصعاليك

فلما وصلوا الى قصر سنترمون تقدمت ليلي امامهما لانها كانت ادرى في ذلك البيت منهما وذهبت بهما توًّا الى غرفة ليونيدة حيث كان ارثور جالساً بقرب النافذة فلما ابصرها خرج ولم يشأ ان يرى احداً اما سنترمون فكان على كرسيّ بجانب الجثة فعندما وقعت عينهُ على ابنتيه قام ليستقبلهما لكن لم يتمالك وقوفاً فقعد وبسط ذراعيه فترددتا فامرهما هوبر ان يتقدما فلما عانقهما بكى واصعد الزفرات وكان قد شعر ان قد مات فيهِ الرجل القديم الراكب المعاصي وتاب الى ربه مستغفرًا عما مضى

وبعد ان ضمهما الى صدره برهة وهو يقول لهما يا ابنتيَّ العزيزتين . رآهما متعجبتين فقال لهما أَلم يخبركما احد بشيء بعد فاجابت ليلي : ان ابي قال لنا اننا سنسمع منك وحدك ذلك الخبر

بلى بلى . ولكن لا يكون هذا في الساعة بل عما قليل لانني مفتقر الان الى بعض التروي وجمع شتات الفكر . يا ابنتيَّ احبكما من صميم الفواد كل قلبي هو لكما منذ اليوم

وكان يكتفي بلفظة « ابنتيَ » التي لا تدل على الحقيقة دلالة دقيقة . . . وكان يستثقل تلك الساعة التي يبوح فيها لهما بما يسلخ ليلي ومايناً عن دربوكوف وزفيريو ولذا كان محتاجاً الى التروي والاستبصار ولم يشأ ان يصنع الا وفقاً للعدل والانصاف

ثم جثت الفتاتان امام الجثة تصليان اما ليلي فكانت متأثرة وأما مايناً فمدهوشة فلما نهضتا خرج معهما سنترمون وعانقهما ايضاً ثم عانق هوبر وهو يدعوه « ياولدي » وانصرفوا جميعاً عائدين الى قصر دربوكوف كالسكارى وما هم بسكارى ولكن حيارى

وبينما هم داخلون القصر قالت ليلي لهوبر (لا اجسر الان ان اطلب شيئاً لا منك ولا من سواك ولكن مهما يجرِ ومهما كان الخبر الذي ساسمع اريد ان لا يتغير شيء مما كان وانت ياهوبر لا تتركني وحدي البتة)

فنظر هوبر الى ليلي ومايناً نظرة المتودد وقال لها : سيجتمع شملنا على ما ارى ولا اظن احداً منا يفارق لاخر الى ما شاء الله

وفي اليوم التالي أُقيم لليونيدة مأتم عظيم لائق بمقام تلك الاسرة النبيلة ومشى

في جنازتها خلق كثير من الاكابر والاعيان وليس لهم حديث الا موت ليونيدة ومنترفيو في يوم وبيت واحد وقد ذهبوا في تفسير هذا الحادث الغريب مذاهب شتى والنفوس تائقة الى استطلاع ذلك السر الخفي الذي اشارت اليه الجرائد لكن لم تستطع الوصول الى كنهه على انها اجمعت على نقـل الخبر من المقامات الرسمية على الوجه الآتي :

بينما كان الكنت سنترمون والمسو منترفيو مجتمعين في المصرف الاميركي تخاصما بالكلام في بعض امور شخصيــة ثم واصلا في الطريق الخصام حتى تداعيا الى البراز فاجرياه على الفور امام شهود عدول على نحو ما يفعل الاميركان وكان السجال بين الفريقين شديداً حتى خيل ان المتسابقين مقتولان كلاهما لا محــالة لكنهُ انجلى عن انغلاب منترفيو وموته . اما الكنتة ليوندة المصابة بداء القلب منذ امد بعيــد فقد اضطربت من وقوع هذا البراز في بيتهــا ولاسيما يوم توقيع صك الزواج بين ابنهــا وليلي دربوكوف فتأثرت تأثراً شديداً اودى بها بانقطاع احد شرايين قلبها

وبعد انتهاء حفلة المأتم وانفراط عقد الناس اختلى سنترمون بابنه ارثور ردحاً من الزمن تحادثا فيه في شؤونهما العائليــة ثم قال لهُ ابوه انت وريث والدتك

— أجل ان لم تكن قد كتبت وصية — بلى تكون وريثها ولو كتبت وصية فاني لا اريد ان ابقي لي من اثرها شيئــاً انظر الى هذا القصر البــاذخ الجميل فهو لك بكل ما فيه من الاثاث والرياش والتحف والنفائس وسارتب لك هذه الورثة بطريقة شرعية ولا اطلب منك لقاء ذلك الا شيئاً واحداً وهو ان تترك باريس الى بضعة اشهر على الاقل ولا اظنك تكون بهــذا السفر مغموماً

— لا البتة — ومتى تسافر

— متى شئت يا ابت امهلني ريثما اجمع ثيابي وغداً اسافر

وفي اليوم التــالي اتم ارثور كل لوازم السفر الى انكلترة لشهود اعياد السباق فيها وكان اقل غضباً منهُ بالامس لانهُ نال ما لم يكن في حسبانه ولذا جعــل يتملق اباه حين ودعه قال : اؤمل ان لا تكون يابتِ مغموماً

— لا يا ولــدي فان فراقك لا يغمني لاني لمــا قتلت ذلك الشقي الذي كاذ لي

واحتال على قتلي وخطف لي ابنتين كالملاكين ثم طمح بصره الى امك يراودها من نفسها
غمستَ وابنتي كأني بارداته قد حرمتك من رجل كنت توده وكان يتحفك بالهبات
ويعدك بالمكرمات ثم انطلقت الى امك فجرعتها مرارة اهانة فظيعة وقد سمعت
كلامك الغليظ الذي نفذ فؤادها كسنان مسموم فكانت به الضربة القاضية ..
قساوة قلبك تتجاوز كل حد وتصرم حبل كل رجاء فيك فلن تحب الا نفسك ولا
تعمل الا اعمال الشر ... فاذهب من وجهي واجتهد بان تقلل من الشر ما امكن
وبعد سفر ارثور انطلق سنترمون عند مساء اليوم نفسه وقد اخذ منهُ الاضطراب
مأخذ الى قصر دربوكوف حيث كان الجميع بانتظاره وقد عيل صبرهم وكادوا
يعزون لو لم يحدث لهم في ذلك النهار امر سارّ ملأ البيت كلهُ فرحاً وابتهاجاً
وذلك ان فرنسيس كان قد أُخرج من قالب الجبس الذي افرغ فيه جسمه ولبث كل
تلك المدة لا يتحرك كقطعة صخر وقام في اليوم نفسه ومشى بعض خطىً مستنداً
الى ذراعي دربوكوف ومايشا وكان بعد ضعيفاً لا يتمالك الوقوف وحده لكن جميع
جراحه ضمدت وعظامه المكسورة قد جبرت اتم الجبر حتى عاد جسمه الى ما كان عليه
من تمام الخلق لم ينقص من اعضائه شيء ولم يشوه وجههُ ولا بدنهُ باقل عيب بحيث
كان قلب ماينا يرقص ابتهاجاً وعينا دربوكوف تذرفان عبرات السرور

وكان زفيريو قد خرج من مختبئه متهللاً بقتل الشقي منترفيو الذي ارعد فرائصهُ وجعل يثب ويلعب ويهرج ويطرب راقصاً مارحاً وللصدور شارحاً

وكان كل هؤلاء قد اجتمعوا في بهوة القصر في ساعة مضروبة ائتماراً لاشارة الكنت سنترمون حتى فرنسيس نفسه قد جيء به ايضاً محمولاً على مقعد فلما انتظم عقدهم اقبل سنترمون واول عمل اتاه انهُ لثم يد ام هوبر وقبل جبهتي ماينا وليلي وجلس يتلو عليهم قصته من اولها معترفاً اعترافاً صادقاً بهفواته وفلتاته وخطايا شبابه

وكان من ليلي وماينا لما سمعتا انهما شقيقتان تعانقتا طويلاً وجعلتا تتأملان بالاسف والتحير معاً شاخصتين في زفيريو ودربوكوف. أجل انهما احبتا اباهما الحقيقي وسرتا سروراً لا مزيد عليه بكونهما اختين ولكن صعب عليهما الانسلاخ عن رجلين

وقفا حياتهما لخدمتهما وقد سلبا حبة قلبيهما ولذا ما اشد ما كان فرحها وفرح سائر الحاضرين لما قال سنترمون هذه العبارة الاخيرة : « يا ابنتيّ وانتم يا اصدقائي لا تظنوا اني اريد ان اغير شيئاً مما كان فلو كانتا صبيين لما كنت فعلت ما انا فاعل اما الان وهما على اهبة الزواج فان كلّاً منهما تنلقب بلقب زوجها . . فهلمّ اليّ يا ابنتي لاضمكما»

فارتمتا على صدره وجعل الثلاثة يصعدون الزفرات و يسبلون سيول العبرات في حين كان دربوكوف وزفيريو شاخصي البصر حزينين ولم يتمالكا من رد دموعها

اما سنترمون فاستأنف كلامه للفتاتين قال : انتما الان في الحقيقة ابنتاي واما في الخارج امام العالم فلتكن ابنتي الكبرى ماينا كنتستينا وابنتي الصغرى ليلي دربوكوف وهذا عدل وصواب اما هذا صحيح يا اصحابي

ثم مد يده فصافح زفيريو ودربوكوف وتبادل معهما ارق الفاظ التودد والشكر وانهم لفي الحال واذا بصوت تذمر خافت في زاوية الردهة حيث كان فرنسيس منطرحاً على مقعده فالتفتوا اليه فرأوه باسطاً ذراعيه بسط تضرع نحو سنترمون وماينا ولم يتكلم شيئاً بل كانت عيناه مغرورقتين بالدمع كأن لسان حاله يقول : العل ماينا باقية على عهد الوداد وقد ظهرت الان كريمة الاصل عريقة النسب فهل يؤذن لها ان تحبني ايضاً محبتها كيوم كانت من طبقة الممثلات وهل تريدني بعد .

ففهمت ماينا سر تلك الاشارة وهرعت اليه باسمة ولثمت جبينه قائلة له : « مالك يا فرنسيس وماذا تريد » ثم جاء اليه سنترمون ايضاً وقال له متلطفا : اني ادرى من كل احد بمقدار حبك لها واعرف انك خليق بمحبتها

فاشرق وجه فرنسيس وانشرح صدره وحينئذٍ اقبل دربوكوف اليه ممتقع الوجه مضطرب الحركة وقال له : اقسم عليك يا فرنسيس بشرفك و بحبك لماينا ان تخبرني من كان ابوك وما اسمهُ

فحملق فرنسيس وقلق فقال له دربوكوف ان كنت لا تريد ان تجيبني فانا اجيب عنك كان اسم ابيك غربك بولك اما هذا صحيح اصدقني الجواب

فلم يسع فرنسيس الانكار وقال له : نعم نعم

فالتفت دربوكوف الى الجماعة وخاطب سنترموس قال : ان كنت ايها الكونت قد أسأت السيرة ايام شبابك فلست في ذلك وحدك بل ان لك في شخص هذا غريك بوك شبيها قضى زهرة عمره في ركوب المعاصي حتى حرم مشاهدة وحيد له محوًا من ثلثاب شأنه ويحول لي الان ضيق المقام ان اتوسع في الكلام بل حسبي ان اقدم لكم ابني هذا فرنسيس ولدي وفلذة كبدي

ـ فانفتح قلب فرنسيس وصرخ انت ابي والدي ونهض يعانقه فضمه دربوكوف الى صدره وتباكيا سرورًا ـ

ـ فرفع الجميع لحاظهم الى السماء شاكرين الكريم المتعال الذي جمع الشمل بعد تفريقه الاعوام الطوال وطفقوا يهنئون بعضهم بعضًا واقاموا الافراح سبعة ايام عُدّ كل يوم منها بالف عام وكانت واسطة عقدها زفاف ماريشا الى فرنسيس والبي الى جوبر وقد دخل حينئذ على قلوبهم وقلوب سنترموس ودربوكوف وزوجته يوم ذاك من البهجة والسرور ما لم يشهد مثله في سالف العصور فمضوا جميعًا عيشة رغيدة بحياة راضية سعيدة وما برحوا يذكرون عدل الله في مجازاة كل بعمله ولو بعد مدة مديدة ويحمدونه تعالى على ما ادركوا من الهناء والسلام راجين من فيض مكارمه حسن الختام

تمت هذه الرواية النفيسة التي نالت رضى عموم القراء وقد جاء ختامها وفقًا لما تاقت اليه القلوب من جزاء كل بعمله ان خيرًا فخير وان شرًّا فشر لان الظلم والغدر والمنكرات مهما ظلّ صاحبها ناجحا سائدا فلا بد ان ياتي عليه يوم يقلب له فيه الدهر ظهر المجن فيضمحل بائدا وان المظلوم او المغدور مهما توالت عليه المصائب والشرور فلا بدّ له يوما من انفراج كربته وزوال غمته فيعود كريمًا جليلًا بعد ان عاش حقيرًا ذليلًا وكفى لنا بحوادث الاختبار دليلا